سأعيدُ إنجاب القمر

روايـــــــة

توفيقة خضور

الإهداء:

إلى طفلتي..

الشهيدة التي مازالت تلّمّ أجزاء القمر عن شواطئ الموت، وتخيطها بعروق الضحايا..

لتُعيد إنجابه..

وإليّ.. إن استطعتُ أن أكون الجزء المفقود..

الفصل الأول

-١

لفحتني رياح عشقها، مُذ رأيتُها أوّل مرّة تترجّل عن أحد المنابر، كعادتها في نزول درجات الموانئ.. الملكة التي أعرفها منذ.. منذ ولادتي الأولى قبل ألف، أو ثلاثة آلاف عام، أو أكثر..

ممشوقةً كانت ومُربكةً كما يليق بالآلهات..! لمحتُها، فتمطّى تمّوز بين جوانحي، ومدّ رأسه اليانع من نافذة القلب، كأنّه يُطالبني بالإفراج عنه.. رغم أننا مازلنا في شباط..!

أردت أن أستوقفها، لكن.. لأمرٍ لا أدرك كنهه، تجمّد الصوت على شفتيّ، وتركتُها تمضي، كجملةٍ رائعة، نسي القلب نقشها في آخر رقيم..!

وعدوتُ صوب البحر، موئل أقدام الآلهة، والبشر المُتعرّقين شغفاً بالحياة، والحب..

نزلتُ إليه بأقدامي العارية إلّا من الشوق..

فضحك الموج، والزّبد الكريم، احتفاءً بنجواي:

- يا بحر.. أحبك من الصدر للصدر، ومن الروح للروح.. أتعرف أيّها الحاني أني رأيتها اليوم.. سيدتنا أنا وأنت.. (سيليا) الحبيبة..؟ أجل رأيتها، دون أن تراني، لكني أعدك ألا أدعها تضيع مني.. سأقلب العالم بحثاً عنها.. وسنلتقي..

أتذكرها يا بحر..؟! لابدّ أنك تتذكّر تلك السامقة كأشرعة الفينيق.. الحنونة كموجةٍ تحكّ ظهر صخور الشاطئ بأمومةٍ لا تنضب..!

قل إنك مازلتَ تعرفها، فأنا واثق أنك لن تجرؤ أبداً على نسيان لون قدميها..! كما أنني لن أجرؤ على فقدانها بعد اليوم..

(٢)

دخلتَ فاتسع المكان كوجه حلم..! تناسل الحضور آلافاً عندما رفرفتْ مهابتك في فضاء الصالة، وقبل أن تجلس على المقعد الأخير، تمزّقت نظراتي بين وجهك النّاضح حزناً مضيئاً، وأوراقي النّازّة دماً كابياً..

غابة الأعين ترنو إليّ لأتابع قراءة قصّتي، وكنتُ قد وقفتُ على عتبة انتصافها لحظة دخولك، هل أتابع من حيث انتهيت، وقد لعبتَ بالزمان والمكان والأقدار..؟

كان عليّ أن أقول: (افترشوا الجثث وأشلاء الجرحى، وجلسوا يتساقون الأنخاب، وحشرجات الأرواح تَخزُ عجيزاتهم، فيمدّون أصابعهم المُخضّبة بالخمر والدم، لتحكّ المؤخرات المنتشية بدغدغات الموتى..)

فوجدتُني أرتجل نهايةً جديدةً لقصتي الدموية، وأربطها رغم أنف منطقها بالحب:

(زغرد ملح الدم زبداً ناريّاً على شفاه الكؤوس، والقتلةُ يدلقونها في أجوافهم، مأخوذين بنشوة النصر.. سكروا، فاستيقظ الحلم العتيق في عروقهم.. والحلم سليل الملح، ابنه الشرعيّ الذي يحمل في جيناته صفات أبيه، وأحرف اسمه.. فبدؤوا يستذكرون الحبيبات، يقفون على أطلال من بعد بهنّ العهد، يبكون، ويستبكون، ويلعنون الحروب التي أخذتهم طويلاً من ذواتهم، وجعلت لحبيباتهم أطلالاً.. وبدأت القرائح تنزّ حرمانها الطويل شعراً.. غناءً حزيناً، وحباً طعيناً.. وفي رمشة قلب خلعوا قشورهم المُلوّثة بالموت، وراحوا يتراكضون معاً صوب الحياة..)

تخضّبت أكفّ المُصفّقين الذين داعبت نهاية القصة أمنياتهم بزوال كوابيس الواقع ولو بطريقة رومانسية مرتجلة.. بينما تقدّمتَ نحوي كريشةٍ منزوعةٍ من ظهر نسرٍ، رميتني بنظرةٍ حارّة، وقلت:

ـ حاولتِ أن تقولي شيئاً، ففشلتِ.

وهممتَ بالمغادرة..

خفتُ أن ترحل قبل أن نلتقي، فأموت قبل ولادتي.. لبستُ قناع السخرية لعلّه ينجح في إخفاء لهفتي، وقلت:

ـ كان (الهروب ثلثي المرجلة) كما تقول جدّتي.. أمّا اليوم.. وفي هذه اللحظة بالذات، بات الهرب هو الرجولة شخصيّاً..!

توقفتَ، نظرتَ إليّ مليّاً، ثم دعوتني إلى مكانٍ هادئ نُتابع حوارنا فيه.

رشفتَ فنجانك دفعةً واحدة، وضعته أمامك، وقلت:

ـ ها أنا أمامكِ أعزل، فأطلقي ما شئتِ من سهامك..

بهدوءٍ مراوغٍ أجبتك:

ـ لماذا أردتَ الهروب..؟

قهقهت جوارحك جميعاً، قبل أن تسألني:

ـ أتظنين ذلك..؟

ـ لا..

ـ إذاً.. كان عليك أن تسأليني: لماذا تأخرتَ..؟!

ـ صحيح.. لماذا تأخرت..؟

ـ عندما ناديتني أتيت..

ـ أنا ناديتك..؟!

ـ أجل سمعتكِ بأذنيّ، لا بتهويمات خيالي، كنتِ تلدين اسمي حرفاً حرفاً، ولما تنهّدتِ على فراش مخاضك إثر الوضع، دخلتُ، أقصد ظهرتُ، لأرى أيّ رحمٍ تمخّض عني في زمن العقم.. وإن تجرأ أحدٌ على سؤالك: من أين لك هذا..؟ تُشيرين إليّ، فأخرق شرنقة مهدي، وأردّ كيد السؤال إلى نحر الجواب..!

قلتُ بين ضحكٍ وعبوس:

ـ ولهذا رميتني بذاك السهم، وأنت لم تسمع إلا نصف القصة..؟!

ـ نصفها الثاني عندي..!

ـ كيف..؟!

ـ كنتِ رحماً يحضن الروح في عصورٍ مضت.. ألا تذكرين..؟!

ضحكتُ منتشيةً، وهمست لنفسي:

ـ (هذا هو المجنون الذي أبحث عنه..)

وتابعتَ كلامك، كما النجوى:

ـ تُرى هل ملّ رحمك الحمل المديد، فقرر طردي خارج رحمته..؟!

ـ ليس الملل، بل النضج.. فقد حبلتُ بك دهوراً، وأظن أنه آن الأوان..

ـ أعتذر إذاً عن سهمٍ مراهقٍ، أطلقته طفولتي المتأخرة على أمومتكِ المبكّرة.

ـ أتقصد أنك لم تكن تقصد..؟

ـ أجل.. فأنا ما انتقدتُ أدبكِ، بل استعجالكِ الولادة، كما توهّمتُ..!

ـ ما تعليقكَ إذاً على ما سمعت..؟

عدّلتَ جلستك، فبتَّ كنمرٍ أقعى مُتأهباً، وقلت:

ـ أدهشني التّحوّل النّوعي عند أبطالك من الحرب إلى الحبّ.. لكني لم أتبيّن تماماً إنْ كان تحوّلاً استراتيجيّاً، أم تكتيكيّاً فرضه واقعٌ طارئ..!

وخزني استفسارك المُبطّن، فهجست روحي: (أتراه أدرك أن ظهوره الطّاغي، هو من أمسك دقّة القيادة، وحوّل مسار قصتي من أقصى الموت إلى أقصى الحياة..؟!)

ـ أما قصتك الأولى فـ ..

ـ مهلاً.. مهلاً.. أنا لم أقرأ سوى قصةٍ واحدة.

قلتَ ساهماً:

ـ في مكانٍ آخر، وزمانٍ أحسّه موغلاً في القدم، سمعتُ منك قصة اللعبة القماشية..

هتفتُ باحتفاليّة:

ـ ها.. كان ذلك في.. أنتَ تُلاحقني إذن..

ـ من يومها وأنا أفتش عنك..

ـ لماذا..؟

سألتُك، وأنا أسمع صخب الدماء في عروقي..!

ابتسمتَ بثقة العارف بما يعتريني، وقلت مُتخابثاً:

ـ لأقول لكِ رأيي في قصتك.

ـ فقط..؟!

ـ وهل تنتظرين غير ذلك..؟

حاولتُ التمسّك بثوب التّمنّع ـ رغم أني لا أحبّه ـ فجدتي حواء يوم فصّلته، لم تكن تعرف سوى الإبرة والخيط، فجاء الرداء هزيلاً.. مُمعناً في بدائيته..! لكن ظروف اللقاء تقتضي التّواري قليلاً، فأجبتك بحزم:

ـ لا أنتظر شيئاً..

تنهدتَ بعمق، وقلت:

ـ لا أعرف كيف أضعتكِ بعد تلك الأمسية، بحثت عنك طويلاً.. و..

قاطعتك مُعابثةً:

ـ كلّ هذا التّعب لتقول لي رأيك في قصتي..؟!

ضحكتَ مثل طفلٍ غرير، وأنت تقول:

ـ أتُصدّقين..؟ لولا تلك القصة لما عرفتُك.. ولبقيتِ في رحم الغياب عصراً آخر..

ـ ماذا تقصد..؟!

تلبّدت ملامحك، وتلعثمت حركاتك قبل أن تقول:

ـ إنها قصّتي أيضاً.. كتبتِها بالحبرِ الأحمر، وكتبتُها بالدم.. توهّمتِ أنكِ تكتبينَ بدمٍ طازجٍ، لكنّ رائحة الحبرِ مازالت تفوح منها..!

حاولتُ أن أقول شيئاً، لكني لم أستطع.. تلجلجَ صوتك لحظاتٍ، ثم انتفضَ كأنما على الموتْ، وقلت كنمرٍ يشلع آخر مخالبه:

ـ تتخيّلون..! جميعكم يسنّ قلمهُ مُتوهّماً أنه يشحدُ سهماً حيّاً، غير أنهُ لا يشحدُ سوى قلمٍ شحيح، يُسجّل ما يراهُ، فتأتي صوره مُخنّثةً..!

صرختُ بكَ بغضبِ أمٍّ تدفعُ الحيفَ عن أطفالها:

ـ أنا صوري مُخنّثة..؟! لاااا.. هذا كثيرْ.. لا بدّ أنّكَ لم تسمعْ كما ينبغيْ..

اسمع، اسمع هذا المقطع، واحكم بعدها:

(استيقظت طفلتي، تململت في سريرها الفولاذيّ (خوذةِ أبيها) الذي حاربَ حتى آخرِ زنادْ، وحينَ تشظّى كبقيّةِ عشقٍ في زمن العهر، صنعتُ من خوذته الصّابرة مهداً لأحلام طفلته.. وبتّ أهدهدها، وأحكي لها كل ليلةٍ فصلاً من حكاية ملكٍ سلّم مدينته، وامرأته، وجلس يبكيهما..!

ترمقني الطفلة بعتب، وتضحك ساخرةً من قصتي الكاذبة، وكأنها تقول:

ـ لم يكن للملوك نساء.. كان عندهم جوارٍ فحسب..!

أبتلع هزيمتي أمامها، وأهزّ السرير بقوة أكبر، فتُزقزق مُستهينةً بردّة فعلي، قبل أن تغفو، لتحلم بملوكٍ ليسوا أبناءَ جَوارٍ..)

لا أدري متى صارت يدي بين يديك، ثم لِصْقَ فمك، لثمتَها، تشمّمتَ مُتّكأ القلم بين الإبهام والسبّابة، هممتُ أن أسحب يدي من يديك، لأقول لك:

ـ لا تُقبّلها.. (فقد فعلت أشياء أخرى كثيرة..!)

لكني لم أستطع.. لا.. لم أستطع..

(٣)

بيتها يقبع غرب المدينة.. أوصلتُها، وكأني أعرف الطريق..!

وأعرفها أيضاً قبل أن آتي إلى دمشق..! نعم.. كنّا هنا.. ولنا شجاراتٌ أخرى قبل هذه، في الفنّ والأدب والسياسة.. وكرّرنا معاركنا الصغيرة كلّها في سهرةٍ واحدة، نزعم أنها كانت اللقاء الأوّل..!

كنتُ أحدّق في عينيها العابستين، وهي تردّ على انتقاداتي.. أحاول أن أتذكّر، كم من المرّات مسحتُ عنهما الدمع.. نعم.. أعرفهما تماماً.. غضوبتين، مُعاتبتين، وعميقتين كآبار المستحيل.. مذ رأيتهما أوّل مرّة، أثارني حزنهما العريق.. وحين تضحكان، يُشرق فجرٌ عسليّ من كحلّ ليلٍ عربيّ..! أراقب ثغرها المزموم بقسوة على بضع شتائم، كأنه جوريّةٌ، تحار وريقاتُها كيف تُخفي نحلةً عاشقةً، غطستْ في رحيقها..! نعم.. أعرف هذا الثغر اللميّ، أعرفه شهيّاً كلوزةٍ صعبة المنال..!

ركضتُ كثيراً بعد أن أوصلتها.. ركضتُ جذلاً كبخّة عطرٍ، صافحتْ وجهَ عاشق..!

سحبتْ يدها من شوق يدي، وهي تقول:

ـ تُصبح على خير..

وأغلقتْ وراءها الباب، دون أن تدعوني لاحتساء القهوة، فقلتُ باستكانة الخذلان:

ـ تُصبحين على خير..

ومرّتْ ثانيةٌ كدهرٍ أخرق، قبل أن يتثاءب بابها مُتكاسلاً، وتُناديني..

ظننتُ أنها قرّرتْ أن تدعوني لنُكمل سهرتنا، لكنّها وقفت قليلاً بجلال ابتسامةٍ عذراء، وأمرتني من رأس السلّم الذي كنتُ قد نصّفتُه بخطواتي:

ـ لا تحلق لحيتك.. فهي جميلة..!

ثم أغلقتْ شفتيْ بابها بهدوءٍ.. تاركةً دهشتي في حلْق الوقوف.

أتراها تسخر منّي..؟! أم أنّها تتذكّرني قبل تبرعم لحيتي.. بل قبل هذا القَبْلِ بكثير..! أجل فنحن مكشوفان على بعضنا مُذ كنّا معاً في جنّة ما قبل المعرفة..!

وركضتْ دمشق معي.. حاولنا اللحاق بالقلب.. كان يخفق أكثر، فأكثر..

وحين وصلتُ غرفتي، ألقيتُ نفسي على السّرير ضاحكاً بحبورِ من وجد نفسه بعد طول اغتراب، شددتُها إلى صدري بحنوّ.. ولم أدرِ إن كنت قد غفوتُ..

(٤)

(رحل أخي.. فمن يحمي ظهري في المعارك المُقبلة..؟!

دمه المقهور كان يعبر الدروب صارخاً، ورائحة الموت تُسمَع عبر الأسيجة.. قتله أبو جعفر المنصور، وأبو الليل المهزوم، والحجّاج.. ألف حجّاجٍ، وألف منصور، ومهزوم.. استدرجوه إلى مائدة الخديعة، وتعاونوا على جزّ عنقه، اتّحدت أيديهم الملوّثة جميعها، لتحمل رأسه، وترميه من شرفة قصر المؤامرات على رؤوس مُريديه، مشفوعاً بأكياس ذهبٍ مراوغ.. وانشغلت الرؤوس والأفواه بالتقاط النّثار المُدمّى، فيبست الصرخات على الشفاه، نشّفها فحيح الذهب..! وتدحرج رأسك

يا أخي، يا أبا مسلم الخراساني، يا غيلان الدمشقي، ويا لوركا، يا أبا ذرّ، يا ألف مذبوحٍ على طغام القلوب السوداء، تدحرج رأسك بين السنابك والأقدام.. وما وصل إلينا حتى.. حتى عبَرَ العصورَ، الجبال، الوديان، ووصلنا في تابوتٍ مخدوشٍ بعريهم..! زغردت أمّي.! والبنت العاشقة لك.. خمشتْ وجه الموت، حفرت بأظفارها خشب صندوقٍ خجولٍ يحتوي بعضك.. حفرتْ عليه أهزوجة حنينٍ، وحبّ طعين.. ورقصت، رقصت فوق قبرك دهوراً.. وما زال وقع أقدامها يُقلقُ الزمن.. ومازلتَ هناك.. بينما يختال القتلة برماحهم المسنونة على أهداب أعيننا، يأكلون، يشربون، يتناكحون، ويسنّون الشرائع، يصنعون التاريخ.. يدبّجون القوانين، ويقتلونك بها مرّةً، ومرّةً، ومرّات..!

الرّصاص ينعقد في السماء دوّامة جنون.. ولا يصلنا رأسه إلا بعد عصور..!)

طويتُ رسالتها الذبيحة، التي وصلتني دون أن يُذكر اسم المُرسَل إليه على غلافها..

قرع أحدهم الباب، وناولني المظروف..

هرول القلب صاعداً إلى أعلى نقطةٍ من رأسي، عندما رأيتُ اسمها، ولمتُ نفسي لأنّي أجبرتُها للجوء إلى وسيلة بدائيّة لإيصال رسالتها.. فأنا لم أقل لها اسمي، حاولتُ، لكني لم أستطع.. أيمكن أن أخبرها أنّ اسمي (روي دوسييه)، وهذا الاسم

لا يُشبهني، رغم أنه مُدوّن على بطاقتي الشخصية..؟ أم أقول لها: أنا (فينيقيل) البحّار السّوري رفيق سيليا في رحلاتها إلى الغرب..؟ وهذا الاسم اللصيق بي، ربما لن يُقنعها، وقد تُحسّ أنّه مجرّد لقبٍ لشخصيةٍ خياليّة لبستُها، لأختبئ خلفها..! لم أُعطها أيّاً منهما، وهي على كلّ حال لم تسألني، وكأنّي بها تقول: (ما حاجتنا للأسماء وقد بتنا جسدين بروحٍ واحدة..؟!)

لثمتُ أحرفها، تشمّمتُها، خبّأتها في صدري الواجف زوّادة حنين.. فهي أول رسالةٍ منها، وأولى شهقات الغرام في حياتي هذه.. فمن يبثّك كلّ هذا الألم، وينزف بين يديك بكلّ هذه الحرارة، لابدّ أن تكون مُتكأً لروحه.. فتحتُ دفتري وكتبت:

(لا تحزني يا حبيبة، فكلّنا يحلم أن يصل رأسه، ولو بعد عصور..!)

(٥)

أنبش أوراقي بلهفة من يُفتّش عن ذاته، فأنا الآن عاشقٌ حتى النّخاع.. والعشق مسؤوليةٌ قبل أن يكون امتيازاً.. فمن حقّ الحبيبة أن تعرفني.. لكنْ أليس من حقي أن أعرف ذاتي أولاً..؟

أتمعّن في بطاقتي الشخصية، كأنّي أراها للمرّة الأولى.. وأقرأ بصوت مسموع:

الاسم: روي دوسييه.. أعيد قراءته، لأطمئنّ أنّ أذنيّ قد تلقّفتا أحرفه التي كادت تنساها.. أحدّق في الصورة.. إنها صورتي أنا، لكني أحسّ أن (روي) هذا ليس أنا.. أجل لستُ أنا..! من أنتَ يا هذا..؟ من أنت..؟! أرمي البطاقة من يدي، كأني أتخلّص من شركٍ دبق، وتصرخ حيرتي:

(لا أشعر بالانتماء إلى هذا الاسم.. كأنه لا يخصّني، لا يمنحني شيئاً.. لا بل هو من يأخذ منّي..!)

أمشي بنزقٍ في أرجاء غرفتي، أقف أمام النافذة لحظةً، ثم أغادرها، أواجه المرآة المُعلّقة على الجدار، أوشكُ أن أوجّه لها لكمةً قاتلة، لكني أتفرّس في الوجه النابت منها، وأصرخ فيه: من أنت..؟ أجب.. هل أنت (روي دوسييه) الصحفي الفرنسيّ، أم البحّار (فينيقيل)..؟! ها.. قل، من أنت..؟ لماذا تكره أن يناديك الناس (روي)، وتطرب إذا دعوك (فينيقيل)..؟ ومن هو هذا الفينيقيل، أهو حقيقةٌ أم محض خيال..؟!

أترك وجهي مُعلّقاً على المرآة، مُسمّراً بشراهة إشارات الاستفهام، وأرتمي على سريري، مُحاولاً الهروب منّي.. لكني أسمع صوتاً من أعماقي يهتف بي:

(إلى أين يا فينيقيل..؟!)

لااااا.. هذا كثير.. فأنا هو إذاً.. أجل.. أنا هو.. لكن كيف..؟ أيعقل..؟! لا.. لا..لا.. أنا روي دوسييه.. هذا مكتوب في بطاقتي الشخصية التي تحمل صورتي.. فكيف أكون شخصاً آخر..؟! لكني أسمع (سيليا) تناديني فينيقيل.. أراها، وأرى المراكب الفينيقية، أشمّ رائحة البخور، وتخفق الأشرعة الأرجوانية في مُخيلتي.. أيكون كلّ هذا خيالاً.. وهماً..؟! ربما بسبب إدماني قراءة التاريخ.. نعم.. ربما تكون بعض الأحداث قد علقت بذهني، وتشبّثت بذاكرتي، فتقمّصتُ شخصية أحد الأبطال لإعجابي الشديد به.. لكن أيمكن أن يُزاحمني شخص تقمّصته على حياتي، ويسطو على اسمي وهويتي..؟! لا.. لا.. هذاغير منطقي..

أقهقه ساخراً، وأنا أصرخ، كأني أحاكم خصماً عنيداً:

منطقيّ..؟! وهل في هذا العالم ماهو منطقيّ..؟! ثم.. أنا واثقٌ أنني هو.. فينيقيل.. فما وقفتُ على البحر مرّةً إلا رأيتُ الأميرة الفينيقية، واقفةً بثوبها الأرجواني الذي يخفق على شفاه الريح، وهي تقود المراكب صوب الغرب.. وأسمعها تناجيني:

(تعال يا فينيقيل، لا تبتعد عني حتى في خيالك..)

لبّيكِ يا مليكتي.. لن يُبعدني عنك أحدٌ، ولن يطويك النّسيان، لأنك هنا، تسكنين قلبي وعقلي.. واسمي.. أما شفق فسأحكي لها كلّ شيء، وأظنّ أنها ستقبلني كما أنا..

(٦)

أطلتَ عنّي الغياب، وتمادى إليك اشتياقي، صهلتْ في عروقي خيول التّوق لاحتضان وجهك وعينيك.. فتحتُ نافذة مسائي على بابك، وقبل أن تلامس أصابعي أعصابه المُكهربة بألف غيابٍ، سمعتُك تغني دماً هتوناً:

(في وطني القريب، في وطني البعيد،

لي زوجةٌ وطفلة رائعتان كالفرات..

حين يهفو لاحتضان دجلة..

حمامتان تهدلان بالحنين فوق سعف نخلة..

يا وطني القريب، يا وطني البعيد..

عيون أطفالك ما تزال

تضجّ باللوعة والسؤال،

وترسم الشمس على طوابع البريد..)

لم يكن غناءً مُحايداً.. فلا الكلمات كانت غريبة عنك، ولا اللحن.. سمعتُك تُقطّر ذاتك، فتقطّعت أوصال قلبي غيرةً.. دفعتُ الباب، ووقفتُ أمامك، أُمطركَ عصير رهبةٍ وغضب.. نظرتَ إليّ بذهول، وسألتني.

ـ عدتِ يا أمّ شمس..؟

فار بركان جنوني:

ـ وتُناديني باسمها أيضاً..؟ تُرى ما ترتيب هذه المرأة بين سرب النساء اللواتي تعرفهنّ..؟ لماذا أيقظتَ فحيح أنوثتي، مادام لديك كلّ هذا الحنين لها..؟ وطفلتك.. أين هي الآن..؟ أين أمّها، لا بل أين أنا..؟!

جذبْتَني من يدي كعادتك عندما تحار جواباً، أجلستني أمامك، وألقيت في حضني رأسك الواجف.. أردتُ دفعك عن صدري المغدور، لكنّه خانني، وتواطأ معك.. فإذا به يلتفّ عليك بكلّ شراسة الحنان.. حاولتُ التّملّص منّي، لأصرخ في وجه غدرك، وضعتَ على فمي سبّابتك، وهمستَ:

ـ (هس).. لا تصرخي، فأينما يحلّ الغضب، يرمِ الصيّاد شراكه..!

ورحتَ تنتفض كجوادٍ مسّه تيّار.. أحسستُ أن صياداً قد فتك بزوجك وطفلتك.. وتُشفق أن يفتك بي أنا أيضاً.. اجتاحتني في هذه اللحظة رغبةٌ محمومة بحملك، والطّيران بك خارج الغابة.. فراحت أصابعي تتغلغل مُتلذّذةً في شعرك، وتسري بشهيّةٍ لتُوقظ عبق السّنابل على بيادر صدرك..! و.. و.. وشربتُكَ عروقي الظمأى، فاخضرّتْ، وما عدتُ أملك لصهيلها رداً.. ويبدو أنك أصبتَ بعدوى الصّهيل، فاجتحتَ سهوبي الأنسيّة والوحشيّة.. ورقص الصّفصاف على سواقي الروح.. ولمّا كنّتْ عاصفة العطر الجريح في أوردتك، جلستَ تحكي لي عنها:

ـ كنّا معاً عندما اتصلتْ به.. ارتجف بين يديّ فرخ يمامٍ، لمّا أخبرَتْهُ أنها ستصل غداً إلى دمشق مع ابنتهما، وسيلتقون بعد طول بعاد، وفي الغد نفسه كان عليه أن يطير إلى كردستان تنفيذاً لمهمةٍ كلّفه بها حزبه.. كيف يُطفئ أعين فرحتها بلقائه، وأين يُخبّئ تمزّقه..؟ هل يقول لها: لا تأتِ، فأنا سأسافر غداً..؟ أم يعدها بانتظارٍ لن يُثمر..؟ رجوتُه أن يُؤجّل سفره، وينتظرها، ليقضي معها ولو ليلةً واحدة، ذكّرتُه بارتجاف عظامه في ليالي الصّقيع، وهو يحكي لي عن امرأته وطفلته..

لكنّ كلّ ما فعلتُه تكسّر على جدران تصميمه:

ـ إنها الأوامر، وعليّ تنفيذها.. إنه الواجب يا صديقي..

وطلب إليّ أن أستقبلها، وأقوم بواجبها، حتى يعود.. وأمضى ليلته ساهراً، يغني:

ـ في وطني القريب، في وطني البعيد

لي زوجةٌ وطفلة رائعتان كالفرات..

في تلك السّهرة وُلدتْ أغنيته، سجّلتُها له، وكأني أعلم أنها آخر كلماتٍ سيقولها، وآخر لحنٍ ستلده مُهجته.. سافر أبو شمس في ذات الغد الذي قدمت فيه زوجه من العراق، وهي تحلم أن عصا البعد قد حطّت أخيراً.. ودّعتُ هذا، واستقبلتُ تلك على نفس النّقطة الحدوديّة، وأظنّ أنّه لمحها، وما لمحته، فهو يعلم أنها آتية، وتجهل أنه راحل..! لذلك فتّشتْ عيناه عنها، وعبّ منها ومن طفلته، ما يقيم أود روحه العارية، ورحل.. لم أستطع إخبارها أنه ليس هنا.. أجبتُ على أشواك أسئلتها بجملٍ مراوغة، لم تُقنعها، لكنها سكّنت حرائقها حتى وصلنا البيت، ولمّا وقعتْ عيناها على عوده، سارعت لاحتضانه، تشمّمته وتراً وتراً.. تجمّرت عيناها دون دموع.. وهمست له:

ـ ما زالت حرارة يديك تسري هنا، وصوتك لا يزال يترنّح على الأوتار.. إني أسمعه، ألمسه..!

والتفتتْ إليّ، أمسكت بكتفي، لتُحاصر هروبي، وقالت:

ـ متى سافر أبو شمس..؟ أعرف أنه سافر اليوم، لكني أريد أن أُمسك ساعةً دقّتْ لرحيله..

تراخيتُ أمامها أنشج مقهوراً، وكأنها هي من فاجأتني برحيلٍ، كانت تُخفيه عني..!

فهل تستطيع كلّ بلاغة العالم أن تخدع عاشقةً..؟!

وفي ذات اليوم اصطادوه.. اصطاده الصياد الذي لا تخيب فخاخه.. وظلّت أغنيته تصدح في فضاء غرفتي، وكياني، حتى باتت خبزي ساعة يعزّ الزاد..!)

ـ أتعني أن المهمة التي كُلّف بها، كانت مجرّد فخّ..؟

ـ أجل.. فرأسه كان مطلوباً.

وظلّت ذكرى ذلك اليوم تجلدني، ما زالت تفاصيله تنقّ في داخلي، فقد رقص قلبي طرباً، لما علمتُ أنك لستَ أبا شمس، ورقص فرقاً، لأني طربت.. خجلتُ مما دار

في نفسي، فكيف لا أفرح بأنك لا تحبّ سواي، وبأنه ما من امرأةٍ لها مساحة ذكرى في نفسك..؟ وكيف أفرح في حضرة فراق الأحبّة..؟ كيف لشفتيّ أن تبسما أمام مهابة الموت؟! لكن إحساساً آخر بدأ يبزغ كبرعمٍ خجول بين ضلوعي.. ثم ما لبث أن تفرعن، إنه الخوف من أم شمس من جديد.. فأنت لم تخبرني يوم ذاك عن مصيرها، وعما حدث لها بعدما وصلها نبأ استشهاد زوجها.. أنهيتَ الحكاية بسرعة، وتعمّدتَ القفز فوق الجزء الخاص بها، وبابنتها.. أين هي الآن..؟ وكيف تعيش، ألا تراها..؟ أجل لابدّ أنك تراها، تلتقيان، وتحاول مساعدتها على نسيان جراحها.. تضمّها إلى صدرك، لتطرد من صدرها صقيع الوحدة.. تحضنها، لتُشعرها أن صداقتك لزوجها تفرض عليك حمايتها، وربما جرفك الحنان أكثر، فقبّلتها.. وربما.. الويل لك مني إن كانت هواجسي صحيحة.. لا.. لا.. غير معقول، فهو يحبني، ويحب صديقه أيضاً، ولا أظنه يخون ذكراه، وإن كان يقابل أم شمس فلمساعدتها على تدبير أمورها وحسب، وتعويض الطفلة عن غياب أبيها..

آهٍ.. آه.. ليتني أعلم أيّهما الصحيح، أيّهما الواقع..؟! مخاوفي تقتلني، تمنعني من ممارسة حياتي بشكلٍ طبيعيّ.. أقابلك بلونٍ مخطوف، وقلبٍ مهزوم، ولا أجرؤ على مصارحتك بحقيقة معاناتي، تسألني، وتلحّ في السؤال لمعرفة ما يعتريني، فأنشج على صدرك لحظاتٍ، وأسارع بالهروب.. أغادرك دون أن أعطيك ولو طرف خيطٍ يُسكّن قلقك، فتجتاحكَ بعد ذهابي مخاوف تُشبه مخاوفي.. أكنتَ حقاً تشكّ بي، وتظنّ أنّ بكائي على صدرك، لا يعدو أن يكون إحساساً بالذنب على خيانةٍ ارتكبتُها، وجئتُ أغسلها بدموعي..؟

أرعبكَ هذا الخاطر، وأتعبكَ أنك لا تستطيع البوح به.. لا تريد ذلك، مخافة أن تتأكّد مخاوفك.. آثرتَ، كما آثرتُ أن تبقى الروح تتخبّط في محيط الشك، على أن ترسو على شاطئ اليقين بالخيانة..

واستمرّ سجال مخاوفنا، حتى استهلك أعصابنا، وفي نفس اللحظة التي قرّرتُ فيها أن أفاتحك بالأمر، وأفرش أمامك مائدة ذعري، حدّقتَ في عينيّ، وقلتَ بأسلوبٍ صارخ المباشرة:

ـ أتعرفين غيري..؟

ـ ألا ترى قطعان الشكّ ترعى قلبي، مذ عرفتَها..؟

ـ حدّقي في وجهي، فتّشي عنه، أما زال موجوداً بعدما غادرتْهُ فراشات نظراتك..؟!

ـ لماذا لم تُصارحْني بشكوكك..؟

ـ لماذا أخفيتِ عني تمزّقكِ، وغيرتك..؟

ـ أين هي أم شمس الآن..؟

احتضنتني، وحكيتَ لي، حكيتَ حتى لم يعد ثمة ما يُقال.. ووعدتني أن نذهب معاً لزيارة شمس وأمّها في وقتٍ آخر.

(ملاحظة: القصيدة الواردة في هذا المشهد لفنّانٍ عراقي شهيد.)

(٧)

المدينة مبلولة بالمطر، غريقة بالحب.. وحبيبتي بكامل عدّتها الملكيّة تُخاصرني وسط الحشود اللائبة إلى اللاشيء..

ـ مابك يا صغيرتي..؟

ـ لا شيء أيها المغرور..

ـ بم تفكرين..؟

ـ بقصة جديدة كتبتها بالأمس، ولا أعرف كيف أختمها.. هل تساعدني..؟

ـ لستُ كاتباً، أنا مجرّد مراسل صحفيّ.

ـ يا مراوغ.. ألا تكتب الشعر أيضاً..؟!

ـ أكتب بعض الخربشات، لكني تقاعدت..

ضحكنا معاً، وتوقفنا كأنما بقرارٍ مشترك.. نظرنا في أعين بعضنا، حتى كدنا نتعانق في الشارع، لولا أنْ صفرَ لنا بعض الشبّان العابثين، الذين مرّوا لحظتها إلى جوارنا، وهم يقهقهون بمجون..

ـ ألا تريد أن تسمع قصتي، وتُعطيني رأيك..؟

سارعتُ بالإجابة قبل أن تغضب:

ـ نعم سيدتي نسمع، ثم ندمت، فقد فوّتُّ على نفسي فرصة تصويرها، وهي غاضبة..

ـ أتسمحين أن آخذ لك صورة..؟

ـ لنبحث عن مكانٍ أجمل من هذا الشارع..

ـ كلّ مكانٍ تكونين فيه جميل..

كان المطر قد توقف، كأنه يريد إعطائي فرصة تصويرها..

ـ لا تنظري إلى (الكاميرا).

وصوّرتها.

ـ ولكنْ.. هذه ليست أنا..!

قالت، وهي تتفحّص الصورة بما يشبه الذهول، ثم أردفت:

ـ صحيح أنها تُشبهني، لكنها تُظهرني أجمل، وأكثر شباباً..!

ـ لا ياحبيبتي.. أنت أجمل من الصّور..!

ـ ألا ترى كيف يظهر تاجٌ ملكيّ على رأسي..؟ من أين جاءت به هذه (الكاميرا) المُحتالة..؟!

ـ ألستِ الملكة..؟ ومن الطبيعي أن يكون التاج على رأسك.. أم أنك تعتقدين أن الكاميرا تكذب..؟! لا يا سيدتي.. فالتصوير ليس كالأدب، إنه ينقل الواقع كما هو تماماً.. ولا يتسعُ صدره أبداً للفانتازيا التي تستخدمينها في قصصك.

ـ اسمع.. لا أريد أن يرى أحد هذه الصور..

ـ لماذا..؟

ضاع الجواب بين زعيق بوقٍ أرعن، وصرير مكابح مفاجئة.. فقفزنا معاً إلى الرّصيف.. فلم نكن ننتبه إلى أن ذهولنا الغراميّ، يسير بنا في وسط الشارع..!

أكمل السائق طريقه، وهو يشتمنا.

ـ كدنا نموت تحت العجلات..

قالت، وقد أضاف شحوبها على الغروب اصفراراً واجفاً..! فأمسكتُ يدها مُهدّئاً، لكنها فاجأتني بقولها:

ـ إنك شاحبٌ جداً.. وشحوبك يُضيف على الغروب صفرةً راجفة..!

جذبتُها من ذراعها، ومشينا على بساط الصمت.. دون أن أقول لها: إني فكّرتُ بنفس العبارة تماماً.. وكأن شيطاناً واحداً يتأرجح بين دماغي ودماغها..!

كمشة عتمٍ ذَرَوتُها في وجهك لاتقاء ضيائك، والتّشويش على نورك الذي كاد يخطف بصري، وأنت تقرأ لي قصيدة سومر.. طفلك الذي ستعرف بعد ذلك أنك التقيتَ أمّه لأجله، وفارقتها لأجله أيضاً.. سعتْ إليك، لتُنجب أضحيةً ذكراً.. فالأضحية بعرفها يجب أن تكون ذكراً.. لا احتقاراً للأنثى، ولا غضّاً من شأنها، ولا حتى ترفّعاً عن ذبحها لأنها والدة الحياة ـ كما تُفتي بعض المذاهب ـ بل لأن الأضحية هنا تحتاج إلى عضلات، وقدرة تحمّل عالية.. فالمذبح بيتٌ في قرية فقيرة، أركانه ثلاثة مرضى.. هم من سيكونون أخوال ابنك (الأضحية).. الذي يجب أن يتغذّى جيداً، ويُربّى كما أبطال الرياضة، ليملك العدّة العضليّة، والعصبية اللازمة لمساعدة هؤلاء، ونقلهم حيث يحتاجون، فدخول الحمّام وحده يحتاج قوّة ثور بلديّ، وشمّة الهواء، وتنظيف طبقات اللحم المُتراكمة، وغيرها من المهمات التي وُلد ابنك من أجلها، وأقلّها يحتاج مواصفات خاصة، لهذا جاءت إليك أنت، نسجت حبائلها شركاً جذاباً، مُعطّراً بألف لونٍ، ولونٍ من المغريات، حتى أوقعت بكِ.. اغتصبتك بعقد زواجٍ مُشرعن.. احتلبت نطفتك في غفلةٍ من عين ظهرك.. ثم.. وفي عزّ تعلّقه بك، أبعدته، أصرّت على الطلاق، كي لا يتعوّد رائحة المشاعر، فيرقّ عوده، وتُرهف نفسه.. فالتعامل مع أخواله، لا يحتاج أعصاباً مُرهفة، كما قد يتبادر للذهن والقلب.. وحتى إن وُجدتْ سيُحوّلها العمل اليوميّ الشاقّ حبالَ ليفٍ متين، وربما مُتكلّس..

أخواله المساكين جاؤوا ثمرة تعصّب أجيال، فتلك العائلة ظلّت تتناسل من بعضها حفاظاً على نقاء الدم، حتى لم يبقَ فيها من يصلح للإنجاب، ومتابعة المسيرة الميمونة إلا امرأة، أيقنت أن واجبها يحتم عليها إنتاج بعض الفحول المُهجّنة، التي سيقع على عاتقها إنتاج فرعٍ جديد، وسليم للسّلالة الطّعينة بدم ملوّث بالعجز، والمرض.. إضافة إلى تمريض الجذور المُتآكلة من الأخوال والأجداد.. لأجل كلّ هذا، كان عليها أن تنتضي عدّة الصّيد، وتنطلق في أدغال الحياة بحثاً عن أبٍ للسّلالة الجديدة.. أبٍ قويّ البنية، لا يملك مكاناً، ولا يملكه مكان.. يضع بيوضه في الماء كالسّمك، ويرحل غير عابئ بمصيرها.. وبمن سيموت منها، أو يفقس على مهاد الموج.. ولا أدري، وأنت كذلك لا تدري، من أوحى لهذه الجاهلة بأنك أنت الذّكر المطلوب.. ذكر المهمات المستحيلة..؟!

وجاء سومر، سكبتْه الأقدار في حضنك فيضاً مُشتهى.. أملاً عشّقَ الأضلاع الظمأى براعمَ حياة..! وما أن بلغ عامه الثالث، حتى اختلقت أمّه عاصفةً شلعتها، وشلعته من حياتك، فمادت عظامك فرقاً، وتشقق أديمك ظمأً.. لم يردعْها تواشج روحه

بروحك، ومجافاة صدرها للالتحام بصدرك، وهجر نومها لرضاعة صحوك.. كانت تصرخ بك في ليالي الشتاء:

ـ أطفئ هذا المصباح لأنام، فأنا لا أغفو إلا في العتم.

يراقب الطفل حيرتك وارتباكك، إذ يراك في حرم الكتابة تجثو، فكيف لك أن تغمض أعين المصباح، وتسهر بين يدي الظلام في غرفةٍ يتيمة، لا مكان لك إلّاها.. فيدنو منك، وتهمس طفولته الغريرة في أذن حيرتك:

ـ بابا.. أزح هذه الستارة ليدخل إلينا القمر، فنسهر أنا وأنت على ضوئه، وتنام هي، لأنها لن تجرؤ على طرده..!

ويضحك مُنتشياً بحلٍّ لن يخطر لها..! تُقهقه دموعك دهشةً.. وأنت تلقّهُ بين أضلاعك..! وأنتشي أنا انبهاراً بعصير روحك، التي فاضتْ شعراً.. وعذوبةً ذبيحة:

أسومرُ..

والروح لِيلكةٌ حمراء..

تذرفُ

مطراً،

وأفوافَ حنين..

أسومرُ

زقزقاتك تجنّ في عروقي

ابتهالاتِ شوقٍ وحرائق..

أستحمّ بنارك الغرقى

بنيَّ..

وأهفو من فرط احتراقي

لموتٍ، وموتٍ، وامّحاء..

علّك تأتي إليّ..

أو لعلّ الريح الحنونة

تحمل إليك رمادي..

فتبعثني من الشوق حيّا..

تنشرني من الشوق حيّا..

(٩)

دخلتِ فانبلج الصباح.. وانهمكتْ غرفتي تُلملم فوضاها المسائية.. كصبيّةٍ فاجأها حضور حبيبها، فسارعت تُسوّي هندامها على قرع طبول قلبها.. وكأنّ سطوعكِ يُفاجئني للمرّة الأولى.. أفي كل مرّةٍ تأتين تكون المرة الأولى..؟! وتتخضّب وجوه أشيائي المبعثرة، تتلعثم خطواتها، تتعثّر ببعضها، وهي تُحاول أن تأخذ أمكنةً وأشكالاً جديدة..؟!

أفي كل حضورٍ يعدني رحم الأحلام بولادة فراخٍ جديدة..؟!

لكأنّ الإناث لا تملّ الولادة أبداً، والرغبات لا تبلغ سنّ اليأس.. أو كأنّ غبار طلعكِ يُلقّح الحياة، فتنتشي كلّ الأشياء في غرفتي، تتحوّل إناثاً ودوداتٍ ولودات.. حتى دفاتري العتيقة تهفو إليكِ، تستعرض خطوات أصابعي على أضلاعها، كمراهقةٍ تتلو آيات عشقها بين يديّ الحبيب..! فأجد نفسي أقلّب أوراق روايةٍ قديمة، وأقرأ لك أحد فصولها، كنوعٍ من القِرى الذي لا أملك أثمن منه، ولا يليق بالملكة إلّاه:

(كنا معاً تلك الليلة، نتربّع على مائدةٍ كانونيّة، عاشقان ثالثهما البرد.. مدفأتنا مُتخمةٌ بالجوع، ترشّ رذاذ ظمئها في أرجاء المكان، فنسمع طقطقة عظامها وعظامنا..
بماذا أدفّئكِ، وما من سبيلٍ إلى ذلك..؟ السماء تدلق أحشاءها ندفاً مُحنّاةً بالبياض، والعتمة سيدةٌ متألّقةٌ ببهائها، لا يشقّ عصا الطاعة عليها إلا نورُ وجهكِ، وشمعةٌ تتلوّى يُتماً.. رميتُ فوقكِ غطاءً آخر، فأزحتِ عنك ما طمرتُكِ به، وأنت تُحشرجين اختناقاً:

ـ سيتحوّل جسدي عما قريبٍ بترولاً، لكثرة ما سطرتَ فوقه من طبقات..!

وقع بصري على مكتبتي العجوز، راوغتُه محاولاً صرفه عنها، لكنّه ثبّت أقدامه بإصرارٍ على باب صندوقها السفليّ، فخلعتُه، وحاولتُ إضرام النار بين أضلاعه، غير أنّه مُشبعٌ بالرطوبة هو الآخر، ولا بدّ من الاستعانة بقرينٍ حميم، ينفخ الرّوح في رحمٍ من صقيع.. عاودت عيناي البحث عن مُنقذٍ في ليل الأزمات هذا، ووقعتا من جديدٍ على المكتبة، غمغمتُ مُستنكراً:

ـ لا.. هذا كثير.. المكتبة ثانيةً..؟ أنوقد العظم، واللحم أيضاً..؟!

طبطبتْ روحي على كتفي، وهمست بعتبٍ:

(ولوْ يا رجل.. هذه حبيبتك.. وهي من ألهمتك كلّ هذه القصائد..؟ أتبخل عليها ببعضها..؟!)

فهدرتُ بصوتٍ أثار استغراب آلهة البرد المطمورة بثيابي:

- (خسا)..

وهجمتُ على الدفاتر أقطع لحمها الطريّ، وأشويه على عظام مكتبتي، علّ رائحة الشواء تبعث الحياة في أوصال سهرتنا، ولا أدري لماذا لم أحرق دفتراً مُحايداً، أعزل..! يبدو أنني أردتها حفلة شواءٍ حقيقية.. ولابد إذاً من الذبائح.. وكمن يرمي بناته أضحياتٍ لوحش النهر المجنون في موسم النذور اتّقاء لغضبه، كان لابد من فكّ ضفائرهنّ، وغسلهنّ بحليب العطور، وتعليق النظرات المُشفقة على الملامح المذعورة، قبل إلقائهنّ على الزّبد الشّبق.. كنتُ أرتّل قصائدي بنفس الشوق الذي حملني لتسجيل صوت والديّ المُسنّين قبل رحيلهما، كذكرى تُهين النسيان.. أقرأ النصّ، ثم ألفّ الورقة، وكأني أكفّنُ نثار روحي، قبل إلقائها في المحرقة.. وتابعتُ تخصيب المقبرة الجماعية بجثثٍ طازجة، أقبّلها، أتملّى ملامحها، وأسكب على أعطافها صلاة الميت، ثم أتنشّق عبير لحومها، وبخور احتراقها..!

يا ربّ الأكوان.. ماهذا الطّيب..؟! ما كلّ هذا العبق.. وهذا السّطوع الذي ابتلع كلّ ما عداه؟! صورة آلهةٍ تتلامح على صفحة النار.. يا إلهي.. لابد أنها أرواح كلماتي، وقد تآلفت في روحٍ واحدة، لتتراقص على ألسنة اللهب مُتحدّيةً الاحتراق..!

التفتُّ إليكِ، أسألكِ إن كنت ترين ما أرى، فتساقطت أجزاء السؤال قطع ماسٍ تكسّر عند قدميكِ.. كنتِ تشعّين عرياً..! متى خرجتِ من شرنقتك يا فراشة النور..؟

كم تشهّيتُ رؤية هذا الجسد، هذا السحر العاجيّ، وقد انعكست عليه حمرة النيران، فبدا جحيماً مُشتهى..! كنتِ قد رميتِ قشورك عن آخرها، ولا أعلم إن كان ذلك بفعل الدفء المنبعث من النار، أم من دفء قصائدي..! بركان جمالٍ يفور أمامي، وقد تشهّيتُ انبعاثه مئات المرات من قبل.. كنت دائماً تتمسّكين بقشورك، وتسقط محاولاتي عند قدميك، كنظرات عجوزٍ خرفٍ إلى صبيةٍ لاهية.. فكيف حصلت المعجزة الآن، وفي هذا البرد الجهنّميّ، ودون أدنى محاولةٍ مني؟! كنتُ مشغولاً عنكِ بمحاولة تدفئتك، فإذا بك تشعّين أمامي بركان عقيق وضياء..! لم أنتبه متى بدأت طقوس الانبعاث، متى بدأت الشجرة المباركة تنفض عن كاهلها أوراق السكون، لتستحمّ بنيران قصائدي..! لم يكن انشغالي بالنار وحده ما يأخذني منك، بل

كان ألمي من تجاهلك مجزرةً ارتكبتها لأجلك.. لم تحاولي منعي من القتل، والتّمثيل بالجثث الأثيرة.. فتناسيتكِ، وأمعنتُ في خنق فراخ قلبي، وتعذيب نفسي بالإنصات إلى شهقاتها الأخيرة.. لكن ما حدث.. آهٍ مما حدث.. كم قلتِ لي فيما مضى:

(لو اختليتَ بي ألف مرّة، فلن يكون الشيطان ثالثنا، حتى أشاء أنا، لن يحضر رغماً عني فالشيطان هنا، أحمله معي في محفظتي، في قارورة عطري، ولن أطلق سراحه إلا عندما أحتاجه، عند ذلك سيكون مارد القارورة المُخضّب بعطري، الدّائخ بأريجي، الذي سيمتثل لمشيئتي، ويُنفّذ رغباتي، دون أن أضطر لطلبها منه..)

والآن ما الذي حدث..؟ أتراك أطلقتِ ماردكِ العطريّ من قمقمه..؟! أجل.. فأريجك مجبولٌ بفوح أنفاسه التي تملأ المكان، وهي من أيقظتني من ذهولي.)

أعادتني شهقاتكِ إليك، فتوقفتُ عن القراءة عند كلمة ذهولي.

ويا لذهولي من جديد..! يا لعظيم دهشتي مما رأيت..! فراشتي مزّقت شرنقتها، وخرجت ترقص حولي رقصة الحياة.. أيمكن أن تحدث المعجزة مرتين..؟! متى ولدتِ يا محارتي العذراء..؟ أتبكين..؟ منذ متى وأنت تكابدين عذابات المخاض، حتى انبثقتِ أمامي نوافير خمرٍ، وسلسبيل جمال..؟!

دنوتُ منك على حذرٍ، وجنونٍ، واتّقاد اشتهاء.. ولما احتواك الصدر، ضاعت الأبعاد، تماهى الزمان بالمكان، وما عدتُ قادراً على تبيّن موطن الروح.. غير أني أدركتُ السبيل إلى جنانك منذ ذاك الظهور.. فما عدتُ بحاجة إلى طرائق الذكور التقليديّة، التي طالما استخدموها لاستمالة إناثهم، فما حاجتي للعطر الخدّاع، أو استعراض البطولات لاستمطار غيثك الذي جاءني يسعى على أقدامٍ من فضّة الأدب وضوع الكلام..؟! وبتُّ كلّما تشهّيتُ الاتّحاد بكِ، قرأتُ عليك مقاطع من روايةٍ أو قصيدة، فتسّاقط عنك القشور طبقةً إثر أخرى.. لأرفل في رضوان نعيمك..! لكني حتى اليوم لم أستطع معرفة سبب بكائك يوم ذاك.. وهل بكيتِ اشتهاءً أو ألماً.؟! هل كان فعل التّعري طلباً للتّوازن الحراريّ بين جسدك الرّيان، وجوّ الغرفة الذي حوّلته جثث قصائدي، وعظام مكتبتي تنّوراً مُلتهباً، أم كان تقليداً لبطلة الرواية، وغيرةً منها..! أيعقل أن تغاري من امرأةٍ من حبرٍ وخيال، وأنت المجرّة التي لا تُكرّر..؟! بل أيعقل أني لم أستطع يوم ذاك أن أميّز بينكما..؟! ولا أعلم إن كنتُ قد مارست الحبّ معك، أم معها..! ربما كان فِعلُنا تلك الليلة ثلاثيّ الأبعاد..!

(١٠)

ـ قتلوها.. قتلوه.. قتلوهم..

جاءني صوتكَ مُغمّساً بالدم، قبل أن يتوقف، وينقطع كآخر طلقةٍ من بندقية محارب مهزوم..! تركتُ كلّ ما يشغلني، وطرتُ إليك.. لم أستطع أن أسألكَ:

أين أنت.. بل لم ألحق، أغلقت الهاتف، حملتُ جرحي المُبكّر، وانطلقتُ ألهث إلى غرفتك.

كنتَ مُبعثراً في أرجاء المكان.. مُتناثراً في كل جزءٍ منه.. لملمتُ أجزاءك الموسومة بالفزع، أسندتُ رأسك إلى صدري، وهمستُ:

ـ ما بك حبيبي.. ما الذي حدث.. من القاتل، ومن القتلى..؟

التفّتْ يداك حولي، شددتني إلى صدرك، وكأنك تريد الاتحاد بي، انسلّت أصابعي في شعرك، تغلغلت تفركُ الجذور المتحفّزة هلعاً.. بينما صوتك يوزّع عياراتٍ نارية محمومة، تحرق ما تبقّى من أمانٍ في داخلي:

ـ دمّروا المخيم.. قصفوا كل شيء.. الأرض، السماء، وتشظّى القمر..

ثم بدأ صوتك يتقهقر، حتى بات بوحاً، لم أجرؤ على مقاطعته:

كانت طفلتي تمشي معه، ليدلّها على مكانٍ آمنٍ تدفن فيه لعبتها، لتُهرّبها من الموت.. ولما تناثر مُضرّجاً بالأشلاء، راحت تُلملم أوصاله، لتعجنها، وتصنع منها قمراً جديداً.. أرادت ابنتي الثكلى إعادة إنجاب قمرها، فتّشتْ عن عروقه بين الرؤوس المقطوعة، والأهداب المُتفحّمة ..! تعثّرتْ برأس ابن الجيران، قلبته، تمعّنت فيه، فكبرت عشرين جرحاً.. حضنت خوذته بحبٍّ قانٍ، وخبّأت فيها ما جمعته من نُتف القمر..)

لم أعد أسمع شيئاً، سوى همهماتٍ تتكسّر على أمواج روحي التي رحلت إلى مكانٍ آخر.. ولم أرجع إليك، إلا وأنتَ تهزّني بعنف، وتقول:

ـ انظري.. ألا ترين..؟ مازال صوتها يقرع نحاس السماء.. ألا تسمعين..؟!

ـ أجل أسمع وأرى حبيبي.. وقد رأيتُ ذلك بأمّ قلمي.. ورويتُه، ألم أقرأ عليك هذا (المزمار) في ظهورٍ سابق..؟

مسحتُ دموعي، ودموعك، وأردفت:

ـ أتراك تُعيد إنجاب قصةٍ، قرأتُها لك فيما مضى..؟! أم أنه الواقع، هو من تجرّأ على خيالي، هضمه، تمثّله، وأعاد إنتاجه خلقاً جديداً، أقصد موتاً جديداً..؟!

أتراني بشّرتُ بالخراب، فجاءني يسعى..؟ يا لي من بومةٍ خرقاء، أرادت أن تُغنّي، فطرد نعيقها الأمان من عينيك..!

ـ كفاكِ جنوناً، فأنتِ لا ذنب لك.. وأنا، وهم، وابنتي، وحتى أمّها التي لفظتني، وارتمت في بحرٍ آخر، ربما أكثر جنوناً أو حناناً.. واستشهدت مع ابنتنا، لا ذنب لها.. لا يدَ لنا في اغتيالنا..!

أتذكرين..؟ بكيتُ عندما سمعتُ منكِ هذه القصة.. أحسستُ أني كتبتها في زمنٍ ما.. أو ربما سأكتبها..! سأعيشها..! فهي هنا، تسكن خافيتي، مذ قذفني رجلٌ بائسٌ، أسموه أبي بعد ذلك داخل رحم امرأةٍ، ستشقى بأمومتي فيما بعد.. من يومها وأنا أسير على الشعرة المشدودة فوق الجحيم.. وسأبقى أتأرجح خائفاً مترقباً.. لا أصل الحياة، ولا أفوز بالموت..!

ـ اهدأ حبيبي.. أرجوك كفى..

أكفكفُ عرقك، وتهدّجات روحك.. أضمّك بشراسة إلى صدري، وأحاول أن أُخرجك من بؤرة العتم، وأترجّل وإيّاك عن ذاك الصراط اللئيم.

(١١)

ترتيبُ غرفتي التي تُصرّ حبيبتي (شفق) على تسميتها (عشّ النّسر) مرهونٌ بالفراغ، فمن أين لي بالوقت الكافي، لأبدأ كل شيء دفعة واحدة..؟!

ـ تفضّلي حبيبتي، أرجو ألّا تخدعك الفوضى.. فكلّ شيءٍ مُرتّبٌ، ولكن هنا..!

وأشرتُ إلى رأسي، وأنا أغمس قدميها بالماء المالح.

سحبت إحدى قدميها من الماء، وهي تقول:

ـ أنت عبثيّ جداً يا فينيقيل.. لماذا لا تُرتّب هذه الكتب على الأقلّ..؟

أضحك أنا والرّغبة معاً.. وأبدأ بأفعال الشهوة.. أرفع قدمها الثانية من الماء إلى مستوى فمي، وأمصّها كقرص شهد، فأوقظ أمومتها التّائبة في حلمتيها..! ويتحوّل جسدها بين شفتيّ مفردات رحيق، أعيد ترتيبها بلساني، فتهدل مُتأوّهةً:

ـ أيْ.. أيْ.. أنت تُؤلمني..

ـ أرأيتِ..؟ كلّ شيء نُرتّبه يتألم..!

ـ لا تخفْ عليّ حبيبي، خذني قدر ما تستطيع.. اعبرني.. اعبرني أكثر..

ـ مُنعشةٌ أنت يا حبيبتي، وخصبةٌ كرمّانةٍ مُثقلةٍ بنبيذها..

ـ كم أنت حبيبي.. يا حبيبي..!

تعرّقت جدران اللذة، وتُهنا في عالم لا يعرفه غيرنا..

فجأةً انتبهتْ إلى الساعة، فنهضت مُسرعةً إلى الحمّام:

ـ سأتأخر عن الأمسية، ألم أقل لك أن تتذكّر الموعد..؟

ـ لا أريدكِ أن تذهبي.

ـ أخّرتني عمداً إذاً..؟

ـ نعم.

ـ أنت تُغيظني فينيقيل.. ألم ترَ كم يُصفّقون لي إثر كل أمسية، فمتى سأكبر بنظرك..؟!

ـ أتظنّين أنهم صادقون..؟ أراهنك على أنهم لم يسمعوا جملةً واحدة مما تقولين، فجلّ ما يشغلهم حركات شفتيكِ، التي يُمنّون أنفسهم أنها تدعوهم لما يشتهون.. فإذا فازوا في نهاية الأمسية بلقائك على طاولةٍ، ستؤدي إلى السرير، بقيتِ بنظرهم ربّة الأدب، وإلا..

ـ أنت تُسيء الظنّ بالناس، فحكمك لا ينطبق على المُثقفين، وأصحاب المشاريع..

ـ لا سيدتي بل يشمل معظمهم.. فمازال في أعماق الكثير منهم قنفذ صغير نزق، يتحرّك غاضباً، فتخزهم إبرهُ الحادّه، كلّما حاول أحدهم الاعتراف ـ ولو بينه وبين نفسه ـ بأهمية أدب النساء..

ـ وأنت.. كيف حال قنفذك، ألا يحكّ أشواكه بجدران روحك..؟

أجبتها غامزاً:

ـ بل اخترعتُ له وظيفةً جديدة، هي دغدغة شهواتي لاحتضانك، والتهامك..!

وهجمتُ عليها شمّاً، وضمّاً، وتقبيلاً، فدفعتني عنها قائلةً:

ـ كفاك ولدنةً يا فينيقيل.. ألا تشبع..؟!

ثم.. وخلال لحظةٍ واحدة، تلبّد وجهها بالغيوم، وهدرت:

ـ أتعرف أن قنفذك أخطر من قنافذهم جميعها..؟

سألتها متضاحكاً:

ـ كيف ذلك يا فيلسوفة زمانك..؟!

ـ لا تُسخّف الموضوع.. فأنا أعني ما أقول.. فهؤلاء الذين تهاجمهم، قنافذهم تخزُ في وضح النهار.. وهي مُخلصة لطبيعتها العدوانية، لذلك يبقى خطرها محدوداً.. أمّا قنفذك فمراوغ.. يلبس وجهاً غير وجهه، ويحارب في ساحة أخرى.. وهنا يكمن خطره.. أتدري أن منطقك يشبه منطق الدول المُهيمنة على العالم..؟ فكلاكما يحاول إلهاء عدوّه عن قضاياه بأمورٍ أخرى..

ـ عدوّه..؟! ماهذا الذي أسمعه يا شفق..؟ هل وضعتِ نفسك في خانة الأعداء.؟! ثم.. أنا أحاول إلهاءك..؟ لا يا حبيبة.. لا.. كنتُ أمزح فقط..

ـ بماذا تُفسّر تأخيري عن الأمسية إذاً..؟

ـ الأمر بسيطٌ جداً.. بعض الخوف عليكِ، مع بعض الغيرة، مع بعض الإشفاق على نفسي من الوحدة، نخلط الأبعاض ببعضها، ونرشّها فوق إيماني بلا جدوى تلك الأمسيات، ونضيف إليها قناعتي السابقة بشراسة القنافذ القابعة في نفوس أكثرنا، ثم نضع الخليط في فرنٍ مُتوسّط الحرارة، لنحصل بعد دقائق على أشهى حلوى في العالم..!

ضحكتْ بعذوبة، وزقزق صوتها:

ـ وماذا تُسمي تلك الحلوى الفريدة..؟!

ـ حلوى الحبّ.

قلتُ بسرعة، وكأني أنتظر سؤالها.. وأردفتُ محاولاً تنظيف ذهنها من أية شائبة:

ـ اسمعي شفق.. أنت موهوبة فعلاً، لكني أتمنّى عليك أن تتجهي للرواية، فهي وحدها القادرة على حمل بصمتك، إنها تصنع كوناً جديداً، وعالماً موازياً للعالم الواقعي..

ـ ما أبرعك بالمراوغة..! لكني لستُ بعيدة عما تقول، وقريباً سأفاجئك بروايتي الأولى، التي سـ..

ـ لا.. لن تبدئي بالغرور من الآن..

ـ هيّا.. هيّا.. مازال لدينا الوقت لنلحق بالأمسية..

ـ ألا ترين نارجيلتك جاهزة..؟ هيا أسمعينا قرقرتها..

ـ وهذه طريقة أخرى بالإقناع..!

ـ هيّا.. قرقري.. ولا تشغلي بالك بعد اليوم إلا بروايتك، التي لم تُحدّثيني عن موضوعها حتى الآن..

ـ لا تحاول، فهذا سرّ..

ـ سرّ على فينيقيل يا شفق..؟

ـ أجل سرّ.. أم أنك تظنّ، أني لا أستطيع أن أفعل شيئاً مُهمّاً دون وصايتك..؟!

ـ المُهمّ الآن أني حققتُ مشيئتي، وألهيتكِ عن الأمسية.. وهذا إنجاز، أليس كذلك يا أمّ الأسرار..؟

ـ يا لئيم..

(١٢)

ـ هل أسألكَ عن امرأة المخيم..؟ الزوجة التي فقدْتها في لبنان.. هل أجرؤ على الاستفسار عن ملابسات زواجٍ، وإنجابٍ لم أكتشفه إلا بعد استشهادها..؟!

ـ اسمعي يا صغيرتي، سأروي لك الحكاية كلّها.. قصتي مع النساء، والأطفال، مع البحر، والحرب، وإن شئتِ سألمّع لك مُفصّلات التاريخ، وأزيّتها، كي لا تزقزق..

ضحكتْ كنبعٍ ثرٍّ كريم، وسألتني:

ـ وهل للتاريخ مُفصّلاتٌ..؟!

أجبتُها ساهماً كأني أناجي روحي، وأنا أضغط أصابعها الرقيقات على رصيف بردى:

ـ انظري حبيبتي.. راقبي هذا النهر الذي أضناه الجفاء، فصار ضامراً كقلبٍ خليّ..! إنه لا يجري، هو فقط يذرف بعض التعب.. لقد احتضن الناس آلاف السنين، ولم يرَ منهم غير العقوق..!

ـ أترى وجهك في مرآة النهر حبيبي..؟!

ـ نعم.. فنحن معاً منذ..

وفاجأنا الحرس، قبل أن أتمّ عبارتي:

ـ من أنتما، وإلى أين تذهبان..؟

يبدو أننا دخلنا مكاناً ممنوعاً، فسبقتني للإجابة ضاحكةً:

ـ أنا صغيرته، وهو حبيبي.

حاولتُ اللحاق بكلماتها، فقلت مُتلعثماً:

ـ أنا حبيبها، وهي صغيرتي..

أشاحوا عنّا بلا مبالاة، وهم يُبربرون: (مجانين..!)

وركضتْ أصابعنا المتشابكة على رصيفٍ آخر مبلولٍ بالحب، طلبت مني، وهي تلهث، أن أحكي لها قصتي مع النساء، كما وعدتها.. فلهثتُ جملةً أعرفها كالوشم القوميّ الذي يُزيّننا جميعاً:

ـ في غزوةٍ أخرى حبيبتي، في غزوةٍ أخرى..!

(١٣)

الوقتُ تمّوزٌ فينيقيّ، وسماء دمشق تتعرّق ياسميناً مُسخّناً في أتون الرغبات..

أصابعنا متشابكة كصبيّين يتقافزان فوق أسطحة الخيال، غير عابئين بالزمان والمكان.. نمشي، بل نطير، وتطير بنا الشوارع.. نزقزق، ونعزف أحلامنا على شرايين الحاضر والمستقبل، فيبزغ رأس الماضي الأشيب، دون أن نطلبه، أو نرغب به بين جملنا الموسيقية، ليوقّعها بطعم الملح والدم.. فجأةً توقفتَ أمام مقرّ إحدى المنظمات الفلسطينية، تنهدتَ بعمق، وقلت:

ـ أتعرفين أني دخلتُ هذا المكان يوماً ما..؟!

سألتك باهتمام:

ـ دخلتَه زائراً..؟

ـ لا.. بل انتسبتُ إليه.

ـ ماذا.. متى كان ذلك..؟

ـ عندما بدأتُ أحسّ بنسغ الرجولة يدبّ في عروقي، قررتُ أن أتصرّف كالرجال، حملتُ كتبي المدرسية، وتسللتُ من البيت مُتّجهاً إلى مكتبة العم أبي محمود، هذا الرجل كان يعتبرني صديقه ـ رغم فرق السنّ بيننا ـ فقد أمدّني بعشرات الكتب بأسعارٍ زهيدة، وأحياناً كان يُعيرني بعضها، ويوصيني ببسمة رضى:

ـ اقرأ هذا الكتاب يا صديقي، وأعده لي، فهو غالٍ، لا تستطيع شراءه.. إنه كتاب مهمّ، ويجب أن تقرأه.

أعطيتُ كتبي لأبي محمود ـ رحمه الله ـ وقلت له:

ـ خذ هذه يا عمي، وأعطها لمن تشاء، فأنا مسافر.

شهق الرجل وجلاً، وقال:

ـ إلى أين يا صديقي..؟

ـ إلى مصانع الأبطال يا عمّاه، فقد آن الأوان..

حاول أن يستبقيني، حتى أنضج كما قال، لكني أقنعته أنّ النضج بحاجةٍ إلى تربةٍ مناسبة، فبارك إصراري، لمّا أدرك أن الفكرة مسيطرةٌ عليّ تماماً، ونقدني ثمن كتبي، رغم تمنّعي.. ودّعته، وانطلقت من فوري إليهم..

قلتُ لهم:

ـ أريد أن أتطوّع عندكم.

سألني أحدهم بريبة:

ـ لماذا.. ماذا تعرف عنا..؟

قلت:

ـ سمعتُ أنكم أبطال، وأنا أريد أن أكون بطلاً..!

وبعد عدة أيام رحّلوني مع مجموعة من الشبان إلى فرعهم في بيروت..

وغامت عيناك بعيداً.. هززتك من كتفك، وسألتك:

ـ وماذا بعد..؟

زفرتَ باحتراقٍ، وقلتَ:

ـ لم أستطع أن أبقى معهم إلا بضعة أشهر..

ـ لماذا..؟

سألتك مستغربةً..

أجبتَ كمن يبصق أحشاءه دماً:

ـ عندما التحقتُ بهم، كنتُ أظن أن الطريق إلى القدس يبدأ من هناك، لكني صُدمتُ عندما عشت بينهم.. وأيقنتُ أن الطريق إلى فلسطين قد تحوّل عنهم، مذ انشغلتْ زعاماتهم بالتناحر، وحياكةِ المؤامرات، ونفخِ نار الشقاق بينهم وبين فروعٍ أخرى.. معظمهم أخذته الدنيا، فنسي سبب وجوده في هذا المكان.. أدركتُ كل ذلك من خلال تصرفاتهم، فتركتهم عند أول سانحةٍ بعدما غادرنا بيروت إلى تونس..

رميتكَ بنظرة شكٍّ وحّاذة، وسألتك:

ـ من أنت.. بربك خبّرني من تكون..؟

ضحكتَ هازئاً، وأجبتني:

ـ معقول.. حتى الآن تسألين من أنا..؟!

ـ لقد حيّرتني يا رجل..! فتارةً تقول إنك من جنوب فرنسا، وتعمل مراسلاً لإحدى وكالات الأنباء، وتارةً تُحدّثني عن طفولتك في هذه البلاد..! فأيّ الحديثين أصدّق..؟

ـ لا أعلم.. لكنّي أخبرك صادقاً عما حدث معي دون أن أتبيّن زمنه الحقيقي.. فالأحداث تختلط في ذهني، ولا أعرف أيّها حدث هناك، وأيّها حدث هنا..! لكن أبي أخبرني أنه جاء بي إلى هذه البلاد تلبيةً لحاجةٍ روحيّةٍ غامضة، أحسّ أنها تسكنني، وتُمسكُ دقّة عمري بيدٍ من ظمأ وحنين.. فأوّل ما أتقنتُ إمعان النظر، كنتُ أميل ببصري نحو الشرق، وأسرح ساعاتٍ طوالاً، أضحك مرةً، وأبكي مرات..!

وما زال والدي يتذكر تلك الحادثة، التي جاءت بنا إلى هنا، ويُحدّث بها.. فقد طلب إليّ مرةً أن أعدّد الجهات، بعدما علّمني إياها، فقلتُ:

ـ الشرق..

قال:

ـ والجهة الأخرى..؟

قلتُ:

ـ مقابل الشرق..

قال:

ـ وماذا بعد..؟

أجبته:

ـ يمين الشرق، ويسار الشرق..

أربكه جوابي، وأقسم أن يفكّ شيفرة تعلّقي الغامض بجهةٍ واحدة، فقد أحسّ بعد امتحاناتٍ متنوّعة، زجّني فيها، أنّ كلّ مكانٍ عندي، لا قيمة له إلا بمدى ارتباطه بالشرق.. فتّش في كتب الفلسفة وعلم النفس، ولمّا لم يجد ضالّته، أبحر صوب التاريخ، وهناك اشتمّ رائحة جذوري وجذوره، وأيقن أننا ننتمي إلى الفينيقيين الذين جاؤوا من هنا، من سوريا، وبنوا مجداً ما زالت الإنسانية كلّها ترفل فيه.. عند ذلك حزم أمره، وعاد بنا إلى جذورنا.. وعشنا في هذه المنطقة حتى خرجتْ منظمة التحرير من بيروت إلى تونس، بناءً على اتفاقٍ دوليّ، فأنت تعرفين أن إسرائيل اشترطت خروج المنظمة، لتفكّ حصارها عن بيروت، وهكذا غادرتُ إلى تونس مع عشرين ألفاً من المقاتلين، ومن هناك عدتُ إلى فرنسا.

سألتكَ مستغربةً:

ـ ولماذا لم تبق معهم، أليست تونس أثيرةً عندك أيضاً..؟!

ـ أجل.. لكنّ الحكومة التونسية أمرتْ بتفكيك بعض القواعد، فوجدتُ نفسي أردّد مقولة مَنْ قصدَ المسجد مُتثاقلاً فوجده مُغلقاً:

(الحمد لله طلعتْ منّو مو منّي)..! مع أني كنتُ أتحيّن الفرصة للتخلّص من ذاك الشَرَك..

ضحكتُ حتى تورّدتْ عروقي، وأنا أقول:

ـ من يسمعكَ يُقسم أنك ابن الشام أباً عن جَدّ..!

لكنّ ضحكاتي وقفتْ اضطرارياً على ساكنٍ مفاجئ، إذ رأيتُ مُحيّاك يتلبّد بكالحات الغيوم، فسألتكَ بارتباك:

ـ ما بك حبيبي..؟ ما الذي غيّرك..؟!

ـ تشلعينني من جذوري، ثم تسألين مابك..؟!

ضحكتُ من جديد، واطمأنّت روحي، بعدما فهمتُ سرّ العاصفة، فهذا المجنون يصاب بـ (كريزا) شدّتها سبع درجات على مقياس (ريختر) كلّما شكّك أحدهم بانتمائه إلى هذه البلاد..! حضنتُه بحبّ، وأنا أقول:

ـ لم أقصد الطّعن بانتمائك حبيبي.. لكني استغربتُ عمقَ فهمك لمجتمعنا، وإلمامك بثقافة الشارع..! هيّا.. هيّا.. ابتسم.. وأكمل لي قصتك مع منظمة التحرير..

تبسّمَ العبوسُ على وجهك، فبدا كوجه أبي.. وضعتَ يدك على كتفي، وقلت:

ـ حكايتي معهم انتهتْ بتفكيك القواعد الجديدة، فغادرتُ إلى فرنسا، لكن بقائي هناك كان مرهوناً بإتمام دراستي، وتأسيس حياتي.. ولما رجعتُ نهائيّاً إلى صدر أمّي دمشق، التقيتكِ.. أقصد رجعت إليكِ..!

ـ ماذا تعني بـ (رجعتُ نهائياً)..؟ هل كان لك رجوعٌ قبله..؟!

ـ أجل.. كانت لي ظهوراتٌ أخرى، وقد تزوجتُ امرأتين من هذه البلاد كما تعرفين.

تنهّد الجرح في جوانحي، وقلتُ:

ـ كيف ومتى تزوجتَ امرأة المخيّم..؟!

تضاحكتَ ساخراً من سذاجة غيرتي، وصرختَ:

ـ هل صار اسمها امرأة المخيّم..؟ أهذه إهانة أيتها الفلسطينية..؟ هل أنستكِ الغيرة من أنتِ..؟ إنها فلسطينية مثلك..! أم تراك تظنين أن سكنك في حيّ عاديّ يُلغي كونك مُشرّدة.. لا يا حبيبتي.. فلو سكن الفلسطيني في قصرٍ خارج فلسطين، يكون القصر مُخيّماً..!

انكمشتُ خجلة، و بتُّ حزمةً ضئيلةً من الخزي، مغطاةً بدمعةٍ سوداء..! مسحتَ دمعتي، وأردفتَ بلهجةٍ تحاول أن تكون هادئة:

ـ شفق لا تدعي الغيرة تأخذك من ذاتك، وتُنطقك بغير منطقك.. ثم.. هل تغار مثلك من الماضي..؟ تلك السيدة ماتت في قلبي وحياتي قبل أن تستشهد، وأنت تعرفين

ذلك.. لكن يبدو أن المرأة تبقى امرأة مهما كبرت، وتبقى لمشاعرها الخاصة الأولويّة حتى على انتمائها وجذورها..

ابتلعتُ اختناقي، وهدرت:

ـ (المرأة تبقى امرأة)..؟ أين ومتى سمعتُ هذه العبارة..؟ أجل.. أجل.. لقد سمعتُها من جدّي نقلاً عن جدّه الذي نقلها هو الآخر عن جدّه..! أهي إهانة أيها المثقف..؟ نعم امرأة وأعتزّ بذلك، ولو أخطأت.. وأنا هنا أعتذر لنفسي، لأني أُخِذتُ بلحظة حمقٍ عاطفيّ، فتلفظتُ بما لا يُشبهني.. فأنا أيضاً امرأة المخيم.. كلّنا في الشتات أبناء مخيمات.. يجب ألا ننسى ذلك أبداً، لكيلا نذوب في مجتمعاتنا الطارئة، فننسى واجب العودة..!

تهلّل وجهك بِشراً، وأنت تحضنني، وتقول باحتفاليّةٍ مباشرة:

ـ يا حبيبتي.. نعم هذه أنت.. والآن أنا أعشقك أكثر ممّا يشاء العشق..

(١٤)

كنتُ معكَ عندما هدلت فيروز من قلب الجرح:

(ما في حدا لا تندهي ما في حدا..)

ذرفت عيناك، والقلب:

ـ (إي والله ما في حدا..)

تقصّف سنديان الروح صارخاً:

ـ (ما في حدا)..؟! وأنا بين يديك..؟!

لم تسمع صراخي، ولا هزّتك سقسقة دمائي.. فقد بدأتَ تلتقط صوراً لفضاء غرفتك، لأثاثها ولنا، لذرّات الضوء والغبار، كأنّما للالتفاف على الموت.. فتسّاقط من فم الكاميرا أشلاء فراغ..! عندها تيقنتُ أنه (ما في حدا) بالفعل.. وأنني الآن خارج مدارك، فآلة التصوير التي تُديم عناق صدرك، تنقل مابداخله.. هكذا قلتَ لي مراراً.. حملتُ جثتي، وغادرت.. لم تسمع أنين خطواتي، ولا أحسستَ بغيابي حتى فاض بك الفراغ.. تدفّق عليك من كل فجٍّ عميق.. غمرك، ابتلعك.. ورحتَ تُجدّف في زبده بيديك، بساقيك، وتضرب ذرّات الفراغ المُتكاثفة كلزوجة ضبابٍ عنيد.. لم يُجدِ تجديفك نفعاً، ولم ينجح قارب النجاة الذي شيّدته خلاياك بحملك خارج بحر الخواء هذا..

فلجأتَ ـ كعادتك عندما تحار سفنك ـ إلى ملاذك الأوحد، إلى الشعر، أو ربّما هو من لجأ إليك ليرتاح من ملوحة ضياعك:

أسومرُ

والرّوح إليك تسري..

ويضجّ من وجدي السؤال:

حتام يأكلنا الغياب..؟!

لا شيء أحلى من دبيب أصابعك

على موتي..

فتنتفضُ الحياة..!

لا شيء يجمعني..

يشلعني من العبث المقيت،

سوى..

ثرثرات أنفاسك تهمي على عنقي..

لايوم أحلى من الخميس..!

لا يومَ أكبرُ من الخميس..

لا عمرَ أبغضُ من خميسٍ

أضمّ القلب فيه

على قارعة العيون..

وتثغو في صحوِ جنوني

فيحرقني المآل..

كلّ خميس..

على نول أعينهم ينسجون لقاءنا،

يقيسون حنيني على مسطرة الوقت

كلَّ خميس..

ويقول شرطيٌّ أبترُعند المساء:

دعه، فقد انقضى وقتك..

انتهتِ الحياة..

ويأخذك الخميس كما أعطاك..

الله أكبر، والخميس، وحبّك..

الله أكبر والخميس وشوقي..!

سقط القلم من يدك على أرض الجرح، سمعتَ وجعه، فانتبهتَ.. فتشتَ عني، ندهتني، فأجابك الصدى الأصمّ.. لعنتَ قلّة عقل العاشق، وعدتَ إلى آلة التصوير تستفتيها، ألفيتَها أمّاً تسبحُ في بركةٍ من دم نفاسها.. وخدّجٌ مجهضون يتناثرون حولها.. ورأيتَ سومر طفلك القصيّ، يُجدّف بأصابعه الغضّة في الدم.. يحاول الصعود، يناديك.. أجل سمعته يناديك، ويده رايةٌ ذبيحة تعلو، وتهبط، تطفو، وترسب.. فصرختَ ملهوفاً:

- إنه الشوق إذاً.. نيرانه أحرقت كلّ ما عداه، ولم يبقَ من أحد..

حزمتَ حقائب الانتظار، وانطلقتَ تُطارد فلول الغياب، فما عاد في القلب مُتّسعٌ للبعد.. والخميسُ ضنينٌ وبعيد..!

وقفتَ على باب مدرسته في تلك الضّيعة البعيدة، سبرتَ المكان لحماً ودماً.. قبل أن تدخل، وتطلب رؤية ابنك، شهرتَ في وجوههم ورقةً صفراء، تُثبت أبوّةً أنكروها في عينيك، فلا أبوّة بلا أختام في عرفهم.. تمعّنتْ مديرة المدرسة في أوراقك، ثم طلبت إحضار الطفل، وأوصتك أن تعيده قبل نهاية الدوام.. وما أن لمحْتَه، حتى اختزلتَ كلّ ما يمور في أعماقك بحَضنه والطيران به خارج أسوار المدرسة.. وبسرعةٍ دار محرّك السيارة، وراحت تركض بكما الدروب، يُسلمك شِعبٌ إلى آخر، وشوقك للتّوقف، والتنعّم بتشمّم عبقه أسرع من كرج عجلات سيارتك على إسفلت الشوارع.. غير أنّك لم تتوقف حتى وصلتَ غرفتك.. وكأنك تتوقع أن جيشاً من مديري المدارس يُطاردك.. وبين تلك الجدران التي خمشها الحرمان، بدأت لهفتك تتعرّى.. تتفتّح بيادر توقٍ، وجنون حنين..

اتصلت بي بعد يومين، لتقول:

ـ حبيبتي.. تعالي، سومر يودّ رؤيتك..

ـ أتعني أنه (في حدا)..؟

قلتَ فرحاً:

ـ عندما تأتين تُزهر الحياة، وعندما يأتي سومر تُثمر..

جاء سومر إذاً.. وأثمرت حياتك حبوراً.. غبطةً قلقةً، ومخاوف لذيذة..! وباتت أيامك حلقاتٍ حامية في مسلسلٍ بوليسيّ.. تسمع طقطقة عظام الوقت، بعدما جفّفتْ حرارة اللقاء رطوبته، فتظنّ أن الشرطة قد عرفت مكانك، يعربد في دمائك الخوف عليه، تضعه تحت إبطك، وتهرب به من النافذة إلى سطح الجيران، ومنه إلى سطحٍ آخر، حتى تصبح خارج الحارة تماماً.. يسألك الصغير بين منعطفٍ وآخر:

ـ أبي هل ستُعيدني إلى أمّي..؟

ـ أتريد العودة إليها..؟!

فيتعلّق بعنقك، يُعربش عليك كما اللبلاب على شرفات العشاق.. تتنهّد بارتياحٍ، وتهمس في أذن طفولته:

ـ لن أتركك بعد اليوم ياحبيبي.. تجرحني رؤيتك في المحكمة يا ولدي.. وأنت.. أتحبّ أن تراني في ذاك المكان..؟

ازداد التصاق الصغير بك، وهمس:

ـ أنت تحكي لي حكاياتٍ جميلة، أمّا هي فمشغولة دائماً بأخوالي..

هتفت روحك احتفاءً برغبته:

ـ لعينيك يا ولدي.. سنبقى معاً حتى لو اضطررنا للاختباء تحت جناح بعوضة..

(١٥)

أيامٌ كبيسةٌ ترك زحفها على روحي خدوشاً عميقةً، وعلى وجهي بصماتٍ ستبقى شاهداً فصيحاً على ماكابدتُ، وأكابد.. فأنت في كلّ مكان، ولستَ في أيّ مكان.. تحطّ لتقلع، تنزل لتغادر.. وأنا لم أعد أنا.. هل أقول إني كرهت سومر..؟ كرهتُ جزءك الغالي.. بعضك..؟! لا.. لكني كرهتُ جنونك.. فكيف تحرم الطفل مدرسته وأمّه، وتأخذه دون علم أحد، فتضطر للعيش مُطارداً.. لاهثاً بين رحيلٍ وآخر..!!

تُفتش بين أسنان الزمن المنخورة عن سنٍّ مُذهّبةٍ تستأثر بها، وما إن تحظى بملامستها، حتى تخرج منها دودةٌ شمطاء، تضحك منك شامتةً، فتُجفلك قهقهاتها المُتشقّية، وتدفعك لترمي غنيمتك على أول مفترقٍ للموت، وتهرب..!

هربتَ إذاً.. سلّمتَ ابنك لدورية الشرطة التي كانت تُلاحقك، مذ قدّمتْ أمّه بلاغاً تتهمك فيه بالجنون، وخطف ابنها.

حاصرتْكَ الدّورية على منعطفٍ فارهٍ في ذاك الجبل، فأدركتَ أنّها النّهاية، لكنك لم تشأ الاستسلام، وبلحظةٍ خاطفة أدرتَ السيارة صوب الوادي، وكدتَ تُلقمها فم الهاوية.. لولا أن لمعت صورتي في خيالك فجأةً، فتوقف الزمان، وتغيّرت إحداثيات المكان.. ترجّلتَ رافعاً يديك في وجوههم رايتيّ سلام.. فتّشوا السيارة، ونبشوا منها طفلك الذي كان ينبض خوفاً، وما إن صار بين أيديهم حتى ردّدت الجبال صدى صراخه المقهور.. هجمتَ عليه، تريد إخفاءه تحت جناحيك، ليهدأ روعه، أمسكَ بك الرجال، قيّدوكَ، وكفّوا حركتك الجريحة.. تقطّعت شهقات الطفل، عندما رآك ترسف بالأغلال.. خاف الرجال عليه من شهقةٍ تُودي به، فهو يسحب الفضاء بكلّ ما فيه إلى جوفه، ثم يزفره حارّاً مخموراً بلون الموت.. قرّبوه منك، فقفز إلى صدرك، وتعلّق بعنقك.. لم تستطع أن تضمّه، فيداك مربوطتان إلى ظهرك، لكنّ صدره التحم بصدرك، ويداه سوّرتا عنقك، قبّلك، وكأنه من دهر لم يرك.. تشمّم عبق دموعك، لحسها مُستشعراً فيها طعم حليبٍ لم يتذوّقه من ثدي أمّه..

تأمّل رجال الدّوريّة المنظر كلٌّ على طريقته، بكى بعضهم، وضحك الآخر.. بينما أمرَ كبيرهم أن يُعبّئوه في السيارة في حالة الالتحام هذه.. ويذهبوا به إلى المخفر، ليُحسم الأمر هناك، وهناك التفّ حولك رجال الشرطة، فكّوا يمناك، ودفعوا لك ورقة وقلماً، ثم أملوا عليك تعهّداً بعدم التّعرّض للصبيّ، أو محاولة الاقتراب منه إلا تحت نظر القانون.. وبصمْتَ على هذا الكلام كأيّ أميٍّ تنوب خارطة إبهامه عن خارطة عقله.. ولما وصلتْ أم سومر، أراد الشرطي أن يأخذ الطفل عن صدرك، ليُسلّمه لها، أمسك جسده النّاحل، وسحبه، فلم يستطع اقتلاعه عن عنقك، شدّه بعنف، فازداد بك التصاقاً.. صرخ غاضباً:

ـ دعه يا رجل، فلدينا أمورٌ أخرى نهتمّ بها..

زفرتَ مقهوراً، وأشرتَ برأسك إلى يديك المُقيّدتين..

كرّر الرجل المحاولة، وساعده زميله، ثم انضمّ لهما ثالثٌ، فعجز الجميع عن شلعه من صدرك.. عند ذلك قسّموا المهمة الشاقّة بينهم: فواحدٌ يتكفل بفكّ يده اليمنى عن عنقك، والثاني يقوم بذات الدور مع اليُسرى، بينما يسحب الثالث أضلاعه من

أضلاعك.. ولما انتهت العملية كنتَ مُبلّلاً بعرقٍ ودمٍ ودموع.. ما زالت آثارها تحت أظافر الصبيّ الغضّة، وما زلتَ كلّما مرّت ذكرى ذلك اليوم، تتلمّس عنقك بحنينٍ عتيق، ثم تلثم أناملك، التي تمشّتْ على أخاديد حفرتها أظفاره على جلدك، كما تلثم مراهقةٌ اسم حبيبها المنقوش على دفتر مذكّراتها السرّيّ..

وأقسمتَ ألّا تراه بعد ذلك، حتى تنتهي مدّة حضانته، ويعود إليك تماماً..

(١٦)

المجد للغباء..! طوبى له.. وهذا وسام امتنانٍ منّي، أعلّقه على صدره الأصمّ..!

هل قال أحدٌ قبلي مثل هذا..؟!

وهل ركعت امرأةٌ من قبل بين يديه مُمتنّة..؟

أظن أن كلامي يثير زوبعة غضبك، ويُنفر ظباء اطمئنانك.. لكني لن أسحب كلامي، ولن أسلب الغباء حصانته عندي.. بل سأمعن في تمجيده ما حييت.. أليس هو من أعادكَ لي، بعدما فقدتُك دهوراً..؟ أليس عماء منْ عرفتهنّ قبلي، هو منْ ساهم في لقائنا، وحاك خيوط تآلفنا..؟

تصوّر لو أنك التقيتَ قبلي بامرأةٍ عرفتْ قدرك، أتراها كانت ستُغامر بحبّك، وترمي أوراقك على طاولة لعبٍ عابثة..؟ وأنتَ.. أكان من الممكن أن تعافها، وتبحث عنّي..؟

أسمعك تقول:

ـ أجل.. كنتُ سأفتّش عنكِ في تلافيف أدمغة الزمان والمكان.. فأنتِ نصفي الآخر، الذي تاه منّي أجيالاً..!

ربما.. لكنّ لقاءنا كان سيؤجّل أجيالاً أخرى، فلو أنّ مَنْ أنجبتَ منها، ارتقتْ إلى فخذ أحلامك، لتنحّتْ أحلامي بك عصراً جليديّاً آخر.. فلستَ أنت من يركل امرأةً أحبّته.. أنت الذي لم تدفع ذاك الكلب المُبلّل بالماء والطين والشوق، عندما هجم عليك إثر عودتك من غيابٍ طويل، ولطّخ ثيابك.. حضنك، لفّ أربعته حول ظهرك، والتحم صدره بصدرك.. حاول والدك إبعاده عنك، فازددت به التصاقاً، وشددتَ خفقات شوقه إلى وجيب امتنانك.. فهاج غضبُ والدك، وماج، وراح يضرب حنين الكلب بعصا الفرقة، ويرجمك بحجارة اللوم:

ـ ما هذا الذي تفعله يا رجل..؟ تحضن الكلب بكلّ هذا الحبّ، وقبل أن تُصافح أبويك..؟ أفلته، قبل أن أُطلق عليه رصاصة الرحمة.

وتابع تهكّمه، وهو يضرب الكلب الذي امتلأت عروقه خزياً.. انتفختْ كأنما بسائل من صديدٍ، باعد بين صدرك وصدره.. كما يقف بطن الحامل في شهرها الأخير حاجزاً يحرمها ضمّ حبيبها كما تشتهي..! ترجّل عن عرش شوقه كليماً.. زمّ فمه، نظر إليك بانكسارٍ.. وغادر الدّار إلى غير رجعة، كما أخبرتني من قبل.

من يومها والعلاقة بينك وبين والدك مُشوّشةٌ.. وربما تكون هذه الحادثة سبب عودته النهائية إلى فرنسا، واستقراره فيها.. لم تستطع أن تغفر له كسر قلب الكلب، فهل تغفرُ لنفسك ذبحَ امرأةٍ أحبّتك..؟ لا لستَ أنت.. فالمجد لها.. لهنّ.. للسّلبيّة، وخذلان الذات.. لا تردعني.. لا تقل كنتُ أبحث فيهنّ عنكِ، فأنا أدرك كلّ ذلك، لكنّ الحواجز التي يقطعها الحصان ليتّحد بصهيله، قد تكون مستحيلة، إذا كانت تلك الحواجز أكباداً حرّى، وأفئدةً عاشقة تُتقن بذكاءٍ عشقها، وتتشبّث بذاتها..

لا تبتئس حبيبي.. فلستُ أشتمك، ولا أشتم نفسي بما أقول.. فلا أنا أرضى بمُنازلة خصمٍ ضعيف، ولا أنت يُرضيك هذا الهُزال، ولا يُشينك.. فأنا لم أكن بعدُ حاضرةً في ضمير المكان.. و(ديونيزوس) لا يضيره، ولا يُصغّره تجرّع بعض الخمر على شرفة قصرٍ أخرق، أو على كتف قبرٍ أبلق، ظنّه لوهلةٍ مشروع حياة.

(١٧)

الساعة الآن تُشير إلى علّةٍ في القلب، وصقيعٍ في الرّوح.. فجوّالها مغلقٌ، وعمري مفتوح على العواصف، مُذ صفقت وراءها باب المساء، وغادرت.. يبدو أنني قسوتُ عليها.. لكنّ الأمر يستحق، فرأسها اليابس لا يريد أن يكنّ، ويقتنع أنّي لا أستطيع القبول بما تطلب، لا يمكنني أن أكون زوجاً تقليديّاً، فأنا سريع الملل، وعاجز عن المكوث مع أيّ شخص مهما كان أثيراً لفترة طويلة.. غادرتُ غرفتي بعد رحيلها بدقائق، مشيتُ، لا بل ركضتُ على غير هدىً حتى ثملت الدّروب من خمرة قدميّ التائهتين.. ولا أدري كيف عدتُ، ومتى احتواني سريري البارد..

ومرّ انتظارٌ مرير، قبل أن يرنّ الهاتف، أو الرّفّ كلّه.. بل الغرفة، والنّوم، واللحاف..

ـ إنّها الثانية بعد منتصف الليل..

كانت هي.. تذوّقتُ عسل كلماتها، وأنا أسألها:

ـ أين أنتِ حبيبتي..؟

ـ لماذا لم تقل لي: صباح الخير..؟

وارتجّ الهاتف بضحكتها.. فسألتها ببعض الحزم الذي أفتقده غالباً أمامها:

ـ كيف استطعتِ البعد عني قرنين..

ـ أنا في طريقي إلى دمشق، سأصل بعد ساعة، انتظرني في المحطّة.

نزلتُ لاستقبالها.. ضممتُها باقةً جديدةً من حبٍّ أعرفه منذ الأزل..! وخفق قلبي مُنبهراً باكتشافٍ انقشعتْ عنه اللحظة، فهمس لي متضاحكاً:

ـ لقد التقيتما هنا.. في هذه المحطّة، يوم أنزلكما الله من الجنّة..!

شددتُ قلبي المُبتهج من أذنه مُداعباً، قبل أن أربت على كتفه، ليهدأ قليلاً، ويدع لنا فرصة البحث عن سيارة أجرة.

ـ إلى بيتي، أم بيتك..؟

ـ حيث تشاء حبيبي.. لكن عشّ النسر أقرب.

وألقت رأسها على كتفي حزمة نعاسٍ، وشوق.. إنها تقصد غرفتي، فقلتُ للسائق:

ـ عشّ النسر، لو سمحت.

ـ شمالاً، أم جنوباً..؟

سألني ساخراً.. فأجبته مُمتعضاً:

ـ قلتُ لك عشّ النسر.. ألا تعرفه..؟

وأشرتُ شمالاً..

أغلقنا على الثالثة والنصف باب غرفتنا.. والفجر لافحٌ كعادة الشوق في نيسان.. وهي مرهقةٌ وناعسة.. مثل كل مرّةٍ تعود فيها من أمسيةٍ في محافظةٍ بعيدة.

ـ لم يفهمني أحدٌ، أقصد بعضهم.. انتقدوني بشدّة.. كأنهم يثأرون منّي على ذنبٍ لا أعرفه..

أجبتها، وأنا أغسل قدميها بماء الملح:

ـ أنت هكذا دائماً يا صغيرتي، لا تتقبّلين النقد..

وقلتُ، وقلت.. لكنّ النّوم كان هو الأبلغ.. فقد غفت على الكرسيّ، رفعتُ قدميها من الماء، ثم حملتها باقة سحرٍ إلى السرير.. وسمعتُ من الأعماق صوتاً، يسألني:

ـ أتحبها يا ولد..؟**!**

ـ (بهراً.. بعدد الرمل والحصى والتراب..)

سمعتُ الجواب، وكأنّ أحد الشعراء المُزمنين عشقاً قد تكفّل بالإجابة عني..

ـ أف.. كم الجو حارّ..**!**

قالتْ كبذرة يقظةٍ في أيكة نوم، وهي تقلب ساقيها، فانكشف الشرشف عارياً بضراوة.. غطيتُها، مدفوعاً بوحي عذريّةٍ مفاجئة، صحتْ بين أضلعي..**!** لكنها دفعت عنها الملاءة، فراح جسدها ينضح كهرماناً مُتلألئاً بخفوت.. ولو كنتُ أملك ألواناً تليق بجلال اللحظة لرسمتها، بدل أن أصوّرها بفورةٍ لا إراديّة.. وحين طقطق زناد الكاميرا، انكسر الهواء بيننا كلوح زجاج..**!** فتحت عينيها، وهمست:

ـ ماذا تفعل يا فينيقيل..؟

ابتلعتُ فزعي مما رأيته في الصورة، وتلعثمتُ مذعوراً:

ـ لا شيء.. لا شيء.. نامي الآن.

وأمسكتُ منشفةً، ورحتُ أروّح بها، محاولاً تحريك النسمات فوق وجهها.. ولم أتوقف حتى تكلّل محيّاها برحيق الشكر، وهناءة البرودة.. غطّت نصف فخذيها بأطراف الملاءة، وهي تهمس:

ـ كفى حبيبي.. تعال ونم إلى جواري.. ضمّني بين ذراعيك، يبرد قلبي أكثر..

وضممتها تحت الفجر، وجناحيّ.. وكانت اللذة تعضّ كأريج البرقوق الجبليّ..**!**

(١٨)

تنفّس الصّبح محبوراً.. تمطّى، فتمطّت.. والتقّتْ أطرافه على أطرافها جدائل نورٍ**!** فتحتُ عينيّ على اتساعهما، لأملأ روحي بهذا السّحر، تبسمتْ برضى، وقالت:

ـ حبيبي تعال دلّك لي ظهري.

يا إلهي.. أين ومتى سمعتُ هذه العبارة..؟! ودارت الدّنيا فيّ سبعين ألف دورة، أو يزيد..! أجل.. أظنّ أني سمعتها كثيراً في صباحاتٍ مبلولةٍ بالرّذاذ والنشوة..! وبدأت أدلّك لوح الفضة المُذهّب، المشوب بالندوب..

ـ ماهذه الندبة حبيبتي..؟!

ـ إنّها.. أنسيتَ أنّي فلسطينية..؟! فهل يمكن لجسد فلسطينيّ أن يكون صقيلاً؟!

ـ لم أقصد آثار الشظايا، فهذه أعرفها تماماً..!

ـ عمّ تسأل إذاً..؟

أمعنتُ النظر في دائرةٍ خمريّة، تشفُّ عن جرحٍ عتيق مُندمل، وقلت، وأنا أضع إصبعي عليه:

ـ أقصد هذا الاحمرار الذي يُشبه ثغر رمح.. هل قبّلكِ فارسٌ مجنون برمحه الأسمر، بدلَ شفتيه المشغولتين بالشعر مثلاً..؟!

وضحكتُ، بينما راحت عيناي تسبحان بعيداً..

ـ إنها.. لا أعلم.. ربما تكون وحمة خُلقتْ معي.. لكنّها تُؤلمني كلّ صيف، في يومٍ مُحدّد، لا أذكر تاريخه بالضبط..!

لثمتُ فم الرمح، أقصد الوحمة، وتابعت تدليك ظهرها.. وأنا أهجس:

ـ كأني أعرف هذا الثغر اللئيم من زمنٍ سحيق..!

(١٩)

اليوم عيد ميلادها.. ماذا سأقدّم لها في هذا اليوم..؟ هل أهديها شالاً، أو زجاجة عطرٍ، أو قطعة (إكسسوار)..؟! لا.. لا.. شفق لا تُحبّ الهدايا العاديّة، فماذا أفعل..؟! أجوس الأسواق بحثاً عن شيءٍ لم أتعرّف إليه بعد.. تُقلّب عيناي، ولهفتي كلّ ما عرضته المحلّات على واجهاتها، وأخيراً اهتديت إليه.. إنه تمثالٌ صغير لإله الحب (كيوبيد).. أراد البائع أن يُغلّفه بورق القصدير، فقلت له:

ـ دعه عارياً، فجمال الإله لا يُحجب..

حملتُ كيوبيد، وطرت به..! ولمّا وصلت غرفتي، وضعته أمامي، ورحت أتأمّله بعينيها.. خُيّل إليّ أنها ترمقني باستخفاف، وهي تتسلّم هديتي، وتقول:

ـ أمثلك يُهدي حبيبته تمثالاً، صنعته يدا تاجرٍ، لا يعرف معناه.؟! تُرى هل ارتعشت يداه، أو خفق قلبه، وهو يصبّه في قالبه..؟!

احمرّ وجهي خجلاً، وأعدتُ التّحديق فيه، فأثارني السّهم الذي يُوجّهه إلى قلب العاشق.. وكأني سمعتُ شفق تحتجّ عليّ من جديد:

ـ لماذا هذا السّهم يا فينيقيل..؟ أما من أمرٍ في حياتنا لا نستعمل فيه السلاح..؟ حتى الحبّ..؟! أنا أحبك لكنّ قلبي غير مثقوبٍ بسهمك..

ـ وأنا أحبّك..

هتفتُ، وكأنّي أُكلّمها وجهاً لوجه.. وعدتُ أدراجي إلى السوق، اشتريت صلصالاً، وأشياء أخرى سأحتاجها فيما نويت عليه.. وضعت كيوبيد المعدنيّ أمامي، وعجنت الصلصال، ثم شكّلته إلهً على صورته، لكنّه يحمل وردةً بدل السهم.. وعندما جفّ، شويته على نارٍ هادئة، ثم بخختُه بدهانٍ شفاف، وجلستُ أتأمله، لأضيف لمسةً هنا، ونظرة حب هناك.. اتصلتُ بها، وأنا أبتسم راضياً:

ـ تعالي حبيبتي، فطقوس عيد ميلادك جاهزة..

ولما وصلتْ، كان كيوبيد الجديد يتلألأ مُحاطاً بالشّموع المُتّقدة.. وينظر بسرورٍ إلى (قالب الكاتو) المُزيّن باسم الحبيبة..!

ـ أرأيت حبيبي..؟ إنه سعيدٌ بنا.. انظر إلى عينيه الحانيتين، كيف تبسمان لنا بحبّ..

قالت، وهي ترفل فرحةً بهديتي.. فتنهّدتُ بارتياحٍ، وهمست:

ـ إنه إله الحب، فكيف تُريدينه أن يتعامل مع عاشقين أسطوريين مثلنا..؟!

ضحكت جدران غرفتنا، وأثاثها الكهل..! حتى بدا لي كأنّه يتيهُ احتفاءً بشبابه..! وفي نهاية السّهرة، قالت، وهي تُحدّق في التمثال:

ـ مارأيك حبيبي أن نزرع (كيوبيدنا) في أصيصٍ، نضعه في هذه الزاوية من غرفتنا..؟

ضحكتُ بعمقٍ من فكرتها المجنونة، التي أعترف أنّها أدهشتني:

ـ نزرعه..؟! وهل هو نبتة، أو بذرة تتوقّعين أن تعيش، وتكبر أيضاً..؟!

ـ أجل حبيبي.. كيوبيد نبتة حبّ حيّة، لا تموت.. وهي تنمو، وتكبر إذا رُويت بنسغ المشاعر.. أم أنك تظنّ أنها ستموت ظمأً عندنا..؟!

وبعد دقائق كان كيوبيد غرسةً أثيرة في أصيصٍ كبير، يأخذ الزاوية الشمالية من غرفتنا.. وبتنا نرفع له السّلام، كلما دخلنا، وخرجنا.. ونراقب تطوّره يوماً إثر يوم.. وقبلةً بعد قبلة..!

(٢٠)

فتحتُ الباب، فانزلق بسهولة على غير عادته، دخلتُ، وأغلقته ورائي..

استقبلني عبق الحبّ فاتحاً لي ذراعيه، فهذا عشّنا، أنا وحبيبي، الذي سافر في مهمة، وترك لي المفتاح:

ـ لا تتركي بيتنا يتيماً.. اذهبي إليه، اقرئي، اكتبي، دخّني نارجيلتك، تخيّلي أني معك، وقرقري كما يحلو لي ولك.. لكنْ لا تقـ.. وأمسكَ.. كأنه فطن إلى إغواء التّحذير..

تنهّدتُ مُتنسّمةً عبق فوضاه المُحبّبة.. التي بدتْ لي الآن أكثر الأشياء ترتيباً في العالم.. كتب وأوراقٌ على السرير، وفي المكتبة أكداسٌ من المُجلّدات، والصحف، ودفاتره التي مازال بعضها مفتوحاً على آخر ما كتبه فيها: قصائد غير مُكتملة، مقدّمات مقالاتٍ، وتقارير صحفية.. وحده كيوبيد لم تُزحزحه الفوضى، ولم يلوثه الغبار.. وكأن روحه الحيّة تنفض عنه ما يعلق عليه.. انحنيتُ أمامه باحترام، وأظنّ أني رأيتُ عدداً من البراعم تكسو جسده.. قبّلتُ رأسه امتناناً.. فشممتُ عطر الحبيب..! أغمضتُ عينيّ لحظة، فأحسستُ بروحه تمدّ يدها، لتمسح وجهي.. ثم تفرد ذراعيها النّحيلتين، وتضمني، فأستسلم لها..

ـ أهلاً بكِ حبيبتي..

فتحتِ الدهشة عينيّ:

ـ إنه هو، حبيبي أين أنت..؟

الغرفة لا تُخبئ أحداً، وهي فارغة إلا من حنوّ فوضاه.. لكنني سمعته..

نسمةٌ، أو ظلٌّ نسمة دفعت غلاف الدفتر المرميّ على الكرسيّ، فأغلقته، ووقع القلم الذي كان عليه بهمسٍ:

ـ نعم أنا هنا..

نهضتُ مُصطدمةً بالدهشة، أسرعتُ إلى القلم أرفعه، تحسستُ مواضع أنامله عليه، فوجدتُ نفسي ألثمه، ثم أوسّده مهداً آمناً من الأوراق.. أفتح الدفتر، وأقرأ:

(أنثايَ.. كلّ خفقة قلبٍ في هواكِ صلاة.. ساكنة فيَّ قبل الوجود.. مُتوّجة قبل أن يبتكر الملوك حاجتهم للرّعيّة..)

أغلقتُ دفتره، ضممتُه إلى صدري.. كانت تلك الكلمات آخر ما كتبه قبل أن يغادر.. وهي مُوجّهة لي.. فهجست محبورةً:

ـ أنت مشتاقٌ إليّ.. صح..؟ إذاً اقرأ لي شعراً، فهو الأقدر على امتلاكي..

ـ أجل.. فالشعر يُغري بكل جميلٍ وإنسانيّ.. لكن انتظري حتى أجهّز لك نارجيلتك أولاً، فقرقرتها تُغويني..

أضحك، وأنهض عن السرير، لأحتضنه، فأصطدم بكثافة الفراغ.. وأسمعه يسألني:

ـ أتعرفين صغيرتي..؟ أخشى أن يأتي يومٌ لا تجدين فيه من يغسل قدميك قبل أن يقدّم لك نارجيلتك..

ـ أرجوك حبيبي، لا تُشاكس الموت.. يكفينا ما لقينا منه..

ـ اسمعي شفق.. علينا أن نكون واقعيين، ونعترف أن عملنا خطير، ففي أيّة لحظة قد..

وأفقتُ من خيالاتي.. فينيقيل في مهمةٍ خطيرةٍ، فهو الآن على الأرض اللبنانية، يغطي أخبار الحرب، ولن يمنعه شيء من اقتحام المخاطر:

ـ لا.. يا حبيبي.. لا تتركني..

صعقني احتمال موته.. فرحت أدور في الغرفة على محور الجنون، وأنا أتعثّر بدموعي.. وفجأةً.. رقص جوالي، ومادتْ جوارحي، وأنا أسمعه:

ـ مرحباً يا صغيرتي..

كان هو.. فينيقيل حبيبي.. وسمعتُ صوت الانفجارات، فسألته، وأنا ألملم دموعي:

ـ أين أنت حبيبي..؟

ـ أنا في الجنوب، وغداً عندما أعود، سأجلب لك كيساً من الشظايا التي لم تصبني..!

ـ كيف هي الأوضاع..؟

ـ مازال لحم الناس صامداً.. لا تخافي عليّ فقد عشتُ حروباً عديدة..

ـ كيف حال (كاميراك) اللئيمة..؟ أما زالت مشغوفةً بالدم..؟

ـ إنها ـ كما قلتِ لي ـ أنثى اغتصبها الشيطان، وملأ رحمها بآلاف الأجنّة الدمويين..!

.. انقطع الخط.. واستمرّ صراخي:

ـ ألو.. ألو..

حاولتُ مُعاودة الاتصال دون جدوى، فرميتُ الجوال عاجزة، فتحتُ دفتري، وكتبت:

(ولما كان العصر، دنت (عناة) من أبيها كبير الآلهة بذات الخفر المضيء، الكان مُعلقاً على واجهة روحي، لما دنوتُ منكَ ذات أصيلٍ بعيد.. وكما طلبتُ إليكَ أن تُطلق بعلي المحبوس هنا في أعماق صمتك، طلبتْ هي من أبيها، أن يأمر الإله (موت)، أن يُطلق سراح حبيبها.. حبيس الطبقات السبعة من الأرضين.. وكما أرجأتني أجيالاً مديدة ـ ربما لأنضج، ويطيب حبي، أو لتقيس منسوبه، وتمتحن صلاحيته لأعمارٍ لأخرى ـ دفع إيل عناته في أتون المغامرة.. قال لها:

ـ اذهبي أنت وخلّصيه، إن كنتِ تحبينه..

قالت:

ـ أبتِ امنحني من بركاتك عدّةً لسفرٍ طويل..

فخلع عليها من روحه جمالاً فوق جمالها.. سلاحاً لا تخيب سهامه، ولا تخبو مقاصده.. وانطلقتْ عناة، كما انطلقتُ، تخترق طبقات الأرض، وتمنح لحارس كل أرضٍ جسدها مفتاحاً لبوابته.. ولما وهبتْ أنوثتها لحارس الأرض السابعة، أجبرتْ الإله (موت) على مقابلتها، وقدّمت له طلباً بإطلاق سراح حبيبها مشفوعاً بسبعة طوابع، ألصقتْها عليه بماء أنوثتها..! تمعّن في طلبها، تفحّصه، ثم ختم عليه بخاتم الرفض.. فار غضبها، مثلما فار صمتي جنوناً، يوم فتّشتُ عنك الأصقاع، وشقتْ نداءاتي طبقات الفضاء، ولم تسمعني.. ورجعتْ مُحمّلةً بخيبتها، لتقول لأبيها:

ـ إن عاملك على مملكة الظلام، ازدرى تضحياتي، ورفض طلبي، فأبرقَ له، يأمره بإجابة نصف طلبها، كي يجبر قلب ابنته، ولا يكسر كلمة عامله.. وبات بعلها يخرج ليمارس الحياة معها، فيفور الجمال والخير، ويعمّ العالم نصف عام.. ثم يعود إلى مملكة الظلام، فتصفرّ الدنيا، وتذبل، لتدخل مرحلة البيات في النصف الآخر..

سجدتْ عناة امتناناً لأبيها، لكن صلاتها جاءت مشوبةً بعتبٍ مرير:

ـ أبتِ.. لماذا دفعتني لتبذير جمالي..؟ أما كان هذا الجمال عدّتي وسلاحي، فكيف ترضى لسلاحي أن يُهان.. وأنت الفارس الذي يُدرك نبل السلاح؟! أوّاه يا أبتِ..! سبعة أجيال، وربما أكثر عبرتُ، لألتقي به.. وكنتَ تستطيع أن تجعل الأجيال ساعات، وتُجنّبني مُصارعة ثيرانٍ، ووحوشٍ، وحرّاس جحيم.. وبعدما سمحتَ لي به، ببعلي (فينيقيل) الحبيب، ضننْتَ علينا من جديد، وقضمْتَ من كلّ عامٍ شطره.. فحبيبي مضطرٌ لقضاء نصف عمره مسافراً وراء الأحداث من عتمٍ إلى عتم ليصوّرها، ويكتب عنها، ليعيش..

ربتَ إيل على كتفي، وهمس في خلايا روحي، فاهتزّت طبقات الفضاء خشوعاً:

ـ لا فائدة من حبّ سهلٍ يا صغيرتي، فلتتعبي ليحلو حبك، ويصفو شراباً مُنيراً.. فرضتُ عليكِ الانتظار، لتفرحي بلذّة اللقاء..! ولتعلمي أني امتحنتُك بالجمال صراطاً.. فسيري عليه، وحاذري السقوط عنه.. دعي صراطكِ متألقاً، مُشعّاً، قوياً.. كي لا تهلكي، ويهلك الحب..

ـ رحماك إيل يا أبتِ.. واحفظ عليّ نعمتي.. نعمة الحب إلى أبد الآبدين..).

تنهّد دفتري مرتاحاً بعدما أودعتُه صلواتي، وراحت أوراقه تُفطفط مُختالةً أمام عينيّ، كأنها تقول لي: اطمئني فقد وصلت رسالتكِ، وها هي الآن في ديوان إله القلوب، تنتظر دورها، لتغدو عما قريبٍ بين رحمة أصابعه.. فلتتركي هواجسك، لتطبعي بصمة الأنثى على وجوه الأشياء في غرفة حبيبك الذي لايسمح لك بتحريك أيّ شيءٍ أثناء وجوده.. فكلّما حاولتِ إعادة ترتيب الأثاث، أو تنظيفه، كان يقول لك:

ـ اتركي هذه الأمور البائدة، وانشغلي بالخلود والحب..! ولا تنسي أنك الملكة.. والملكة لا تُبدّر عمرها، فيما يستطيع غيرها القيام به..!

ينتفض جسدي، كما كان يفعل في حضرته.. ويورق ريشاً زاهي الألوان قشيباً.. ويدفعني شوقٌ عريقٌ لاستعراض الجمال أمام مُريديه، لأتمشّى مُتباهيةً بما أملك.. مُجرّجرةً بردة ألقٍ، تعزّ على غيري من الملكات..! ليس لأنني الأجمل، بل لأنـي الوحيدة التي يعشقها فينيقيل.. الرجل الذي يربأ بها أن تلوّث يديها، ووقتها بمساحيق التنظيف، وأعباء الحياة اليومية..! مع أنها ورثتْ ككلّ النساء حبّ هذه الأعمال، والاستمتاع بها.. ويسعدها أن تغسل ملابس حبيبها، وتطعمه لقمةً صنعتها بيديها.. لكنه لا يقبل بذلك أبداً، وكأنه لا يحمل في جيناته برعماً واحداً من شجرة الذكورة الأزلية..! فكلّما عصف بهما الجوع، طار إلى مطعمٍ قريب، وأحضر ما تتحمّله ميزانيته من أصناف، وأحياناً يُحضر وجبةً بيتيّة، تتفنّن بعض المطاعم في طهوها، يُقدّمها لي، وهو يقول جذلاً:

ـ اشتقتِ للطبخ.. أليس كذلك..؟

فأقول مُستنكرةً:

ـ لابد أنك دفعتَ ضعف ثمنه.. فلو طهوناه في البيت، لوفّرنا..

يضع يده على فمي، ليمنعني من متابعة مُرافعتي، ويقول:

ـ ربما نوفّر القروش، لكننا نهدر أثمن ما نملك.. نهدر لحظاتٍ نقضيها معاً.. كُلي، ولا تُفكّري بعقول النساء العاديات.. فأنت الملكة.. أنسيتِ..؟ كم مرّةً عليّ أن أعيد هذا الفرمان، حتى تتمثّله جملتكِ العصبيّة، وتأمركِ بالتّصرف كما يقتضيه..؟!

آهٍ يا حبيبي.. لقد جعلتني أقتنع أني ملكةٌ حقاً.. لكني اليوم سأتجرّأ عليك في غيابك.. وأكسر كلمتك.. أستبدل تاجي بوشاحٍ ألفّ به رأسي.. وأبدأ بتنظيف الغرفة، وشعورٌ بالحرية يضخّ طاقةً جديدةً في كياني.. أزيح الأغراض، أمسح تحتها، ثم أعيدها إلى مواقعها، وأغرق الأرض بالماء، فتعبق في الجوّ رائحة التراب بعد المطر..
أستنشقه بحبّ، وأهجس باسمةً:

(أرأيتَ يا فينيقيل كيف تراكم الغبار في بيتنا، حتى صار تراباً.. ويمكننا أن نزرع فيه الورد والخضار، إن أردنا.. سامحك الله..)

والآن بعدما انتهيتُ من إزالة آثار عصور الإهمال، سأرتّب المكتبة التي تشرح الفوضى على أصولها.. أرفع دفتراً مازال مفتوحاً، وما أكثر الدفاتر التي تتركها مشرعةً.. قلمٌ أحمر يضع حدّاً فاصلاً بين الصفحات المخضّبة بالحياة، وبين تلك التي مازالت تزهو ببلاهة بياضها.. وأقرأ:

(صخبُ الصمت يُزاحم وحدتي، وأنا أعاشر الوجد، وأذرف عمري جرحاً جرحاً..)

يخفق قلبي بشدّة، وأتلمّس لزوجة جلدي، وكأنه يذرف دماءكَ..!

أواه يا حبيبي..! يبدو أنني لم أخترق منك سوى قشرة الروح.. ولا أعرف من أسمائك إلا ما علّمتني..! أدنو بخشيةٍ من حاسوبك، أحاول تشغيله، فيطلب كلمة المرور، أجرّب أحرف لقبك الذي تأبى سماع غيره من فم من يناديك، وكأنك تريد له أن يبتلع كلّ الأسماء، ويُلغي أيّ انتماءٍ لك إلا له: (فينيقيل). يرفض الجهاز أن يفتح، ويسألني: هل نسيتَ كلمة المرور..؟

فأضحك مُحتارةً، وأجيبه:

ـ أجل.. نسيتُ كلّ الكلمات إلّاه..!

والآن.. ما هي كلمة السرّ التي ستفتح لي مغارة علي بابا..؟! أجرّب أحرفاً وكلماتٍ يُحبها: سومر، فلسطين، فينيقيا.. سوريا.. وفي كل مرّة يأتيني ذات الجواب مُتقمّصاً روح سؤالٍ مُربك: هل نسيتَ كلمة المرور..؟

ما الحلّ الآن..؟ أيكون مفتاح الدّخول كلمةً يكرهها، ويخافها، وضعها قفلاً، ومفتاحاً ليُجرّدها من أسلحتها باعتيادها، وكسر رهبتها..؟!

أبتسم للفكرة، ويملؤني شعورٌ بالزّهو.. وكأني وقعتُ على اكتشافٍ، سيمنحني براءة اختراعٍ فريد..! أجرّب: التعصّب، الموت، إسرائيل، الشيطان، أم سومر. تنكمش روحي خائبةً.. يا إلهي.. ما أكثر شيءٍ يحبّه، أو يكرهه هذا الرجل..؟! سأجرّب آخر كلمتين، وإن لم أنجح سأكون واثقةً أني لا أستحقّ حبّه، لأني لا أعرفه..

أنقرُ على أحرف كلمة (الكاميرا) بفزع من يُجري تحاليل، يخشى أن تحمل له نبأ إصابته بمرضٍ قاتل، فأنكمشُ خجلةً.. لقد فشل الخيار ما قبل الأخير.. وترطن روحي التي أعياها الإفصاح:

(غبيّة، وفاشلة.. كيف تُحبّين رجلاً، لا تعرفينه..؟! أليست أولى مفردات الحب أن يعرف العاشق ما يحبّ حبيبه، وما يكره..؟)

أستجمع فلول شجاعتي، لأجيبها:

(لكني لم أستهلك فرصتي الأخيرة، بقي أن أكتب اسمي، وبعد ذلك قولي ما تشائين).

أسمع تكتكتها، وهي تقول ساخرةً:

(اكتبيه.. أتظنين أن اسمك أحبّ الأسماء إليه..؟)

أشحن طاقتي، وأكتب بوجلٍ أحرف اسمي، أتأمّل النقط السود التي ظهرت في حقل كلمة المرور، فأراها تشبه جميع الدوائر العمياء التي سبقتها.. وقبل أن يجتاحني الهلع، أسارع بالضغط على مفتاح (إنتر)..

يا إلهي..! إنه هو.. اسمي هو كلمة السرّ إذاً.. أتركُ الحاسوب يُنهي إعداداته، لأضع أغنيةً راقصةً على جوالي، وأرقص حتى تعود روحي وجسدي للتوازن.. ثم أعود إليه، لأبحث عن شيءٍ لا أدرك كنهه، أدخل ملفّ الصور، لعلّي أرى ما يفتح نفسي..

ربّاه.. ما هذا..؟! قتلى.. أشلاء.. حرائق.. دماء.. أكبّرُ الصور، وأدقق.. تُرى مَنْ هذا الجبل الذي اخترقه الموت..؟! إني أعرفه جيداً.. لا.. لا.. مستحيل.. فعماد مغنية

مازال حيّاً.. أطال الله بقاءه.. فكيف تُظهره هذه الصورة اللعينة ميتاً..؟! أعيدُ تكبير الصورة إلى أقصى حدّ، وأمعن النظر.. أجل إنه هو.. لكن كيف، والرجل حيٌّ..؟! أيكون قد استشهد، وأنا لم أسمع به..؟! مستحيل.. مستحيل..! أنتقل إلى صورةٍ أخرى، فتصعقني رؤية انفجارٍ مرعب.. سيارة محروقة، وجثث متفحمة.. إنه مشهد مقتل (الحريري).. هذا المشهد شاهدته على شاشات التلفزة، لكن التاريخ هو المُحيّر.. فالصورة التُقطت قبل الحدث.. هاهو تاريخها ظاهرٌ على حاشيتها السفلى..! يجنّ جنوني، وأتابع استعراض هذا الأرشيف الدمويّ: صورة رأسٍ يقفز من شرفة أحد القصور، ليسقط في أحضان جنودٍ، ينتظرون مفاوضات قائدهم مع سيّد القصر.

ماذا..؟ ماهذا البريق الذي يتساقط فوق الرؤوس..؟ أيكون ضياء الدم المغدور..؟! لكنْ.. ما بالُ الجنود يتلقفونه ملهوفين، ويدسّونه في جيوبهم..؟ أنحفظ دم قتلانا في جيوبنا..؟! لم أسمع من قبل عن ودادٍ كهذا..! أحدّق أكثر في الصورة..

ربّاه.. إنه نثار الذهب يُرشّ فوق الرؤوس الغاضبة، فتهدأ دبابيرها، وتهمد براكينها، كأنما نُثر عليها ترابٌ مسحور، فنسيتْ سبب وجودها في هذا المكان.

ما هذا يا أبا مسلم.. لقد أخفتني..! قل لي: من أيقظك من رقادك البعيد، وأعاد لدمك كلّ هذه الحرارة..؟!

يا إلهي.. ما الذي حدث لي، لأحاسب تلك الرؤوس الدّفينة..؟! وحبيبي هو من يجب أن يُحاسَب..! حبيبي..؟!! يبدو أنه لن يكون إلا عدوّي بعد اليوم..! فلابدّ أنّ له ارتباطاتٍ مشبوهة..! وإلا كيف صوّر الأحداث قبل وقوعها..؟! وهل يُحضّر مع الجهة التي يعمل لحسابها لاغتيال بعض الرّموز..؟!

يا ويلي.. ماذا سأفعل.. وهل أستطيع أن أفعل شيئاً..؟ نعم.. سأفعل يا فينيقيل، ولن أسمح لك..! لكن ما العلاقة التي تربط الماضي بالمستقبل..؟ ولماذا ربط بين

ما حدث في التاريخ، وبين ما قد يحدث..؟ وما سرّ انتقائه هذه الصور بعينها، وهو العارف بالتاريخ من ألفه إلى يائه..؟! لابدّ أنّ هذا التّداخل في تواريخ الأحداث يعود إلى ذهنه المُشوّش، وتداخل الأحداث فيه.. أو ربما لعمق فهمه للتاريخ، يربط الوقائع ذات الجذور المتشابهة ببعضها، حتى لو فصلتْ بينها قرون..! أما كان ينتقل من عصرٍ إلى آخر، وهو يروي لي أحداث التاريخ..؟! فكثيراً ما أكمل لي حكايةً بأخرى.. وكأنه يقطع رأس إحداها، ليُركّبه على عنق أختها.. ولا أنتبه للموضوع، إلا عندما يذكر اسم أحد الأبطال، فأتذكّر أنّ هذا الاسم مختلف عمّا بدأ به.. وأنبّهه أن الحكاية ضاعت، وأننا بتنا الآن في عصرٍ آخر.. فيضحك، وهو يقول:

ـ كلّه واحد يا صغيرتي..! صدّقيني كلّها وجوهٌ لعملةٍ واحدة..!

ياربّ العرش العظيم..! هذه أنا.. الدماء تفور من صدري، والموت يحوم حولي.. حتى أنا يا..؟! أتُخطّط لقتلي.. تُرى من رسم لي هذه الميتة.. ومنْ سيُنفّذها..؟! من سيُطلق عليّ رصاصة غدرٍ تحت كتفي الأيسر..؟! أنتَ..؟ لابد أنك ستقتلني بيدٍ أخرى.. لأنك تظهر معي في الصورة، وأنت تحضنني، ودمائي تُلطّخ صدرك..! بل هي دماؤك.. فأنت جريحٌ أيضاً..! أهذا تمويهٌ للجريمة، اتفقتم عليه إمعاناً في التضليل..؟! أم خطأ مدروسٌ سيقع فيه أحد أعوانك..؟! ماذا تقصدون بهذا الجرح..؟ وإلام ترمي..؟ ما الثمن الذي ستجنيه من قتلي..؟! رأسي يكاد ينفجر.. الدم يتدفق من أنفي.. أنا أموت.. أموت يا فينيقيل.. فلا حاجة بك إلى الرّصاص لتُجهز عليّ..

ها دمي يفور، يهرب من شرايين احتوتك حيناً من الزمن.. وأنا لن أوقفه، سأتركه يغادر جسدي، حتى يُعلن نظافته منك.. دمي الهارب يتجمّع بركةً عند قدمي.. أراقبها، أبحث عن صورتك فيها.. ولا أحرّك ساكناً لإيقاف النزيف، حتى أرى جثتك تتأرجح تحت صفحة الدماء.. عند ذلك أتصل بالطبيب، الذي يُلبّي ندائي، ويقوم بالإجراءات التي تحقن دمي، وتُخفّف من غلواء غليانه..

لكنّ كلّ ما في الدنيا من أدويةٍ، لن تستطيع أن تبعث في روحي الأمان..! فكونك مُعبّأ بالتاريخ، ولك رؤية خاصة في أحداثه، لا يعطيك الحقّ في إظهار الحيّ ميتاً.. ثم كيف عرفتَ أن الحريري سيُقتل بهذه الطريقة..؟ وصوّرتَ الحادثة قبل وقوعها..؟! إذاً لابدّ أنّ لك يداً في ذلك.. فمن أنت أيها الغريب، ومع من تعمل..؟!

يا ويلي.. ماذا أفعل.. وقد بتُّ في قلب المؤامرة..؟ فأنا أقرب الناس إلى هذا الرجل، أو هذا ما كنتُ أظنه، لكنّي أدركتُ اليوم، أنني لا أعرفه..

غير أنّ هذا لا يُعفيني من المسؤولية، تُرى هل جهلي به هو جريمتي الوحيدة..؟! الويل لي.. أأكون قد ساعدته، أو سهّلتُ تحركاته دون علمٍ منّي..؟ أجل.. لابدّ أني فعلت.. فالمجرم يحتاج جواً آمناً يتحرّك فيه، وأنا من أمّن له هذا الجوّ.. وربما فعلتُ أكثر من ذلك بغبائي.. أشدّ شعري، ألطم وجهي، أضرب بالجدار رأسي الأحمق، فتفوح في المكان رائحة عفنٍ مُعتّق.. أبحث عن مصدره، أقلب الأشياء رأساً على عقب، أدسّ أنفي تحتها، فوقها دون جدوى.. الرائحة وخّاذة، وقريبة.. أشمّ ثيابي، جسدي.. أف.. إنها منّي إذاً.. رائحةٌ مُقزّزة.. أُسرع إلى الحمّام، أغمر جسدي بالصابون، أفركه بعنف.. وما أن خرجت، وقد ارتديتُ ثياباً نظيفةً، حتى فاحت من جديد رائحة تفسّخٍ، كادت تفتك بي..! حاولت التّغلّب عليها بالعطر، لكنها تزداد شراسةً كلما أردتُ إخمادها..! ربّاه.. ماذا أفعل، وكيف سأعيش بين الناس.. بعدما

صرتُ وباءً متحرّكاً..؟!! يا ربي من أين جاءتني هذه القذارة..؟! ولماذا لم أشعر بها من قبل.. لماذا أحسستُ بوجودها، عندما انكشفتْ أوراق هذا الغريب أمامي..؟! إذاً أنا مُتورّطة معه، إنها رائحة غبائي المُجرم..! والآن ما العمل؟! يجب أن أفعل شيئاً يُنظّفني، ويمنع هذا الوغد، ومَنْ وراءه من ارتكاب ما يُخطّطون له. أدلق ما تبقى في قارورة عطري على جسدي، وأغادر.. أمشي بلا بوصلةٍ توجّهني، فلا مكان بعينه أريد الوصول إليه.. ولا شيء يشغلني سوى معرفة ما وراء الأكمة.. أقطع شارعاً قطعناه معاً مئات المرّات، أسمع دبيب ذكرياتنا في عروق الأشجار التي شابتْ ذوائبها فجأةً..! أشمّ عبير ضحكاتنا على بعض المقاعد.. وأرى زقزقة روحينا مُعرّشة على أسيجة الدور العريقة.. يُباغتني صوته من حيث لا أحتسب:

ـ كيف أنت يا صغيرتي..؟ أما اشتاقت مساماتك لعبير أنفاسي..؟!

شرقتُ بدفقة حنينٍ كادت تسيل من بين أسناني.. لكن كلمة العبير أجفلتني، فتذكرتُ الرائحة التي فاحت من كياني، عندما اكتشفتُ أمره، سحبتُ نفساً عميقاً بحثاً عنها.. تنهّدت بارتياح، فقد زالت، أو أنني لم أعد أشمّها..!

صرخت غاضبةً:

ـ لستُ صغيرةً.. أنا أكبر مما تتصوّر..

ثم ضحكتُ من نفسي بمرارة:

ـ أكبر..؟! هه.. لو كنتُ كذلك لما استغفلتني..

تقبّلتُ منك كلّ شيء.. معرفتك الكثير من النساء، زواجك من امرأتين قبلي، إنجابك منهما، وإخفاء كل ذلك حتى فترةٍ مُتقدّمة من علاقتنا.. قبلتُ فقرك، وإصرارك على بقاء كلٍّ منّا في بيته، رغم حاجتي الماسّة للعيش معك.. فكلّما طلبتُ أن نعيش معاً في بيت أحدنا، ضحكتَ منّي، وقلت:

ـ لا تكوني امرأةً عادية ككلّ النساء يا شفق.. أنت مُختلفة، ويجب أن تكون حياتك مختلفة.. ثم أليس مُثيراً أن نعيش حياتنا كعاشقين، بعيداً عن ملل الأزواج، وانشغالهم بتفاصيل الحياة اليومية، التي تبتلع الحب وبهجة الدهشة..؟! أم أنك تُريدين للتعوّد أن يغتال عشقنا، ويُحوّلنا مجرّد زوجين، يفتش كلّ منهما بعد حين عن حادثة حريّةٍ خارج سجن الآخر..؟!

أبتلع دمعتي، وأجيبك:

ـ أنت وأنا لا يمكن أن يهرب أحدنا من الآخر، ولو عشنا معاً ألف عام..

غير أنك تتشبّث برأيك.. فأضطرّ لقبوله.. لم يكن ليخطر لي، أن إصرارك يُخفي وراءه خوفاً من اكتشاف أمرك..

أمشي حتى يأخذ مني التعب مأخذه.. وأجد نفسي في غرفتك مرّةً أخرى.. يبدو أنني درتُ حول المكان ساعاتٍ دون وعي.. لم أستطع الابتعاد عن مسرح موتي، رغم أني استرجعتُ شريط حياتنا معاً أثناء جولتي.. تذكّرتُ سؤالك المُفخّخ ذات مساء:

ـ هل جرّبتِ الكتابة على الأضلاع..؟!

استفزّني عمقك، فأردتُ أن أباريك، وأثبت لك أني مُستعدّة للسّباحة في أيٍّ يمٍّ تختار، فأجبتك بسؤالٍ، رمى في بركة سكونك حجراً مُراوغاً:

ـ الأضلاع السليمة، أم المُكسّرة..؟!

ـ توقعتُ أن تقولي: أتقصد الأضلاع الحانية على تقوّسها، المُباركة لطبيعتها، أم المُقوّمة قسراً..؟!

ابتسمتُ بحيرةٍ باذخة، وسألتك:

ـ أيهما أفضل، وأصلح..؟

قلتَ:

ـ جرّبي، واحكمي بنفسك.. لكنْ حاذري التواطؤ مع أيٍّ منها.. انحتي على كليهما تهاويم روحك، وكأنك تكتبين على شغاف البيت الحرام.. وانظري على أيٍّ منهما ستُضيء كلماتك..

امتثلتُ لنصيحتك.. وكتبتُ على الأضلاع المحنيّة شعراً، فأعشبتْ.. تحوّلتْ أيكةً مُترفة الجمال، وفقست بيوض الحمام في أكمامها..!

ولما جرّبتُ الكتابة على تلك الحبيسة داخل قالبٍ للتّقويم، تحوّلتْ وثناً هشاً، نفختْ عليه الحياة، فتهاوى مُتكسّراً..!

أتساءل الآن بكل سوداوية الرّاهن:

ـ لماذا سألتني هذا السؤال يوم ذاك..؟! أكان يهمّك حقاً، أن توجّهني لأكون طبيعيّةً..؟! أكان يعنيك بالفعل، أن تخلد كتابتي بمحاكاتها نواميس الأشياء ـ كما كنتَ تقول ـ أم أنك أحببتَ دور الأستاذ الذي تُصرّ عليه في مسرحية حياتنا..؟!

ولأنك لا تريد لدورك أن يكون فاشلاً، ترشّ عليّ بعض النصائح الصادقة بين الحين والآخر..! لكن.. أيمكن لمن يحمل كل هذا الفكر، أن يكون خائناً..؟!

ألا تُطهّر الثقافة حاملها، ومنتجها..؟ بماذا أفادك فهم الحياة، والتاريخ، وماجدوى ثقافتك الثكلى التي لا تعدو أن تكون صورةً برّاقة مُلصقةً على جدارٍ عفن..؟!

عفن في كل مكان يحيط بك.. أعود للبحث في جحرك عن أيّ شيءٍ يشرح حقيقتك.. أنبش مكتبتك، أقلّب أوراقها بحثاً عن تعليقٍ كتبته هنا، أو خطٍّ وضعته تحت سطرٍ هامٍّ هناك.. أفتح أحد الدفاتر، وأقرأ:

(الكهف.. كما أسمّيه.. هو غرفتي التي أستأجرها في إحدى ضواحي المدينة.. ليس فيها سوى كتب، وذكريات، وملابس ملّتها الوحدة، وجافتْها ربطات العنق التي لا أعلم سرّ اقتنائي لها، لأنني قلّما أستعملها.. تركتها مُعلّقةً على أعناق مسامير صدئة، لتتدلّى على صدور الجدران دموعاً لزجة، تراكم عليها غبار الوحشة، فاسودّت وجوهها..!)

تُغادر عيناي سطورك التي ولدتْها وحدتُك قبل أن نلتقي، لتتعلّق على جدران غرفتك، وترمق بحنينٍ غامضٍ ما علّقتَه عليها.. وأجدّد سؤالي التليد:

ـ ما سرّ ربطات العنق الكثيرة، التي لم أرك تستعمل أيّاً منها..؟

وتلمع في ذهني فكرةٌ، لا أذكر أين قرأتها: مفادها أن الذين يهتمون بربطات العنق، يحملون في دواخلهم توقاً للظهور.. لكنك تشتري تلك الأشياء، ولا تستعملها.. كأنك تحبّ أمراً، وتخافه بقدر حبك له..! أتراك تخافني بقدر ما تحبني أنا أيضاً..؟! سأتابع البحث، لن أكلّ حتى أصل إلى مبتغاي في كشف حقيقتك، أما من دفترٍ دوّنتَ فيه مذكراتك، دلقتَ ذاتك بين سطوره دون تزويقٍ، أو تطعيم بالتاريخ..؟! أنبش كل ذرّةٍ في غرفتك، نعم.. ها هو.. أظنّ أنّه هو.. أفتحه برهبة طبيبٍ يُشرّح جثة حبيبته التي وجدها في بيت غريمه..! وأقرأ:

(في هذا اليوم وقفتُ مرتبكاً أمام مدير المحطة التي أعمل مراسلاً لحسابها.. كان قد اتصل بي، طالباً مني المثول بين يديه على وجه السرعة.. وما أن رآني، حتى رمى في وجهي صوراً تنزّ دماً، وهو يصرخ:

ـ ما هذا يا أستاذ..؟!

تفرستُ فيها مُرتاباً.. فاسودّ وجهي.. وما عدتُ قادراً على نطق كلمةٍ واحدة..

ومرّ أمام ناظري المشهد الذي صوّرتُهُ.. أعدتُ مُعاينة الصور، يا إلهي..! إنه المكان ذاته.. والأشخاص أنفسهم.. لكن الأيدي المرفوعة للدعاء تطايرت أشلاءً.. حتى (الأرغن) أصيب، وخرجت أحشاؤه.. وكأنها تعزف لحن الاحتجاج الجنائزيّ..! رباه.. كيف حدث هذا..؟ كانت الكنيسة تضجّ بالحياة والفرح، وقد صورتُ ذلك بنفسي، فكيف جاءت الصور حاملةً كلّ هذا الدّمار..؟! صحيح أني رأيت الصور، وفُجعتُ بها قبل إرسالها إلى المحطة، لكنّي كنت واثقاً أنّ هذا الخراب مشهدٌ حصريّ، لا تراه إلا عيناي المنحوستان.!)

يأخذني الذهول، ويستبدّ بي الفزع، فألوذ بما يقوله في يومٍ آخر:

(عرسٌ من نوعٍ آخر كُلفتُ بتغطيته.. عرسٌ ينضوي تحت جناح السياسة.. غطّيتُه كما ينبغي، بعدما قرّرتُ ألا يقع بصري على ما أنجزه، مخافة أن تكون عيناي منبع الشرّ.. وهما من تقلبان الصور من حالٍ إلى حال.. وحملتُ نتائج عملي إلى المحطة، وضعتُ (الفيلم)، والأوراق التي كتبتُها أمام المسؤول بزهو.. وما إن تسنّى له الإطلاع على ما صوّرت، حتى رماني بنظرةٍ مشحونةٍ بالغضب، وقال:

ـ لا تقل لي مرّةً أخرى إن في الأمر خطأً، أو التباساً..

ـ ماذا في الأمر يا سيدي..؟ ألم تعجبك الصور..؟ أعتقد أني اشتغلت عليها بحرفيّة.

رمى الصور في وجهي، وهو يصرخ:

ـ حرامٌ عليك يا رجل.. من أين تأتي بكلّ هذا الدمار..؟!

ـ أقسم يا أستاذ أني صوّرتُ ما طلبتهُ مني، والدليل هذه التعليقات التي كتبتُها عن الحدث.. فكيف يحدث هذا، لا أعلم..! لابد أن العيب في هذه الكاميرا.. سأجرّبها أمامك.. ها.. انظر، سألتقط صورةً لهذه النبتة الغضّة التي تُزيّن مكتبك..

وألتقط الصورة قبل أن يأذن لي، فتبدو النبتة وكأنها تجوّلتْ في أصقاع الجحيم شرقاً وغرباً.. أرأيت يا سيدي..؟ إنها الكاميرا اللعينة..! نذيرة الشؤم..! سألتقط لك صورةً لتتأكّد بنفسك..

ـ لا.. أرجوك.. لا أريد أن أرى جثتي..! لقد صدّقتك.. خذ هذه الكاميرا بدل تلك المريضة.. إنها مُجرّبة، فهي على درجة عالية من الدّقة، والحداثة..!

وسأكلّفك هذه المرّة بمهمة تغطية الأحداث في الشرق.. فهؤلاء يخوضون في الدم حتى الركب، ومهما تفنّنتْ كاميراك بعرض ألوان الموت، فلن تصل إلى مستوى حياتهم..! وستبقى مُقصّرةً في نقل نوعية عيشهم..!

تنهّدتُ بارتياحٍ، وقد غمرني شعورٌ بفرحٍ غامر.. كأني منفيّ أعيد إلى وطنه.. وهتفتُ كمراهق مخمور:

ـ الشرق..؟! كما تريد يا أستاذ.. أنا جاهز.. متى سأسافر..؟!

سألني مُستغرباً لهفتي:

ـ ما سرّ كلّ هذا الحبور.. وأنت لم تعرف بعد إلى أيّ بلدٍ ستسافر..؟!

أجبتهُ بأسلوب من لا يريد إهانة فرحته بإخفائها، أو التّمويه عليها:

ـ أنا يا سيدي سعيدٌ بالسفر إلى الشرق، لأن في داخلي توقاً عتيقاً لتلك البلاد.. وحتى لو كان قرار تسفيري عقوبةً، فأنا أرحّب به..!

قال بحسم:

ـ لا.. ليس عقوبةً، فقد كان اسمك مُرشّحاً من بين ثلاثة من المراسلين لهذه المهمة.. لكنّي حسمتُ الأمر الآن.. لا بل كاميراك المولعة بالدم هي من حسمته..! بالإضافة إلى إتقانك لغتهم..

تأبطتُ آلة التصوير الجديدة، ومهمّةً بتغطية الأحداث في العراق، ورحلت..)

أتكون العلّة بتلك الكاميرا..؟! لكنك اقتنيتَ ثانيةً وثالثة قبل أن تأتي إلى بلادنا.. فهل هذه الجديدة تفعل فِعل سابقاتها..؟! وهل أنا ساذجةٌ لأصدّق هذه الحكاية التي لا تعدو أن تكون إحدى شطحات خيالك..؟ هه.. قال كاميرا تصوّر الحدث قبل حدوثه..! والطّامة الكبرى أنها تقلب الحدث البهيج مأساةً.. وهي بارعةٌ في ذلك.. على من يضحك هذا المجنون..؟! أعود إلى مُذكّراتك، ففيها على ما يبدو أسرارٌ كثيرة يجب أن أعرفها.. وأقرأ:

(أيتها المُتهاطلة مطراً رخيّاً على جنبات الروح..

رفقاً بها.. فماعادت مظلّتها منيعةً أمام هبّات عطرك.. عليّ منكِ سلام الغيث.. تعالي إلى صدري، فقد أمطرت دمشق أيضاً هذا الصباح..)

تدور في حرم القلب زوبعةٌ من حنينٍ، تأخذني مما أنا فيه، زوبعة مُضمّخة بعبق المطر الصباحيّ في شوارع دمشق.. فأهبّ واقفةً، ثم أدور في المكان، أروح، وأجيء، وأنا أهتف:

ـ ها أنا قادمةٌ إليك حبيبي.. يرافقني الصبح، والشام.. ولا تخف، فقد أوصيتُ المطر ألّا يتوقف، لنرقص سويّةً على شواطئ الحياة..!

فجأةً تنطّ الصورة الذبيحة إلى ذهني.. وأرى نفسي مقتولةً بين يديه.. فترتخي يداي، تسقطان من عريشة الرقص، ويتحوّل مطره المبارك مهلاً مُذاباً يسّاقط فوق رأسي، فأسارعُ إلى لملمة فوضاي، ومغادرة غرفته قبل أن يداهمني، ويمسك بي متلبّسةً.. فهو لا يحبّ أن يلعب أحدٌ بأحشائه.. حتى أنا..!

على عتبة بيتي تعثرتُ بصوته:

ـ كيف أنت حبيبتي.. عدتِ إلى بيتكِ.. ها..؟

هزّني السؤال.. لا بل أربكني جوابٌ، يلبس طربوش إشارة الاستفهام الخبيثة..! فأجبته بنبرة الغضب:

ـ لماذا تسأل، ما دمتَ تعرف..؟!

ـ ما بك حبيبتي.. هل حدث لك مكروه..؟!

ـ لا شيء.. فقط تعثّرت بالعتبة، وكُسرت رقبتي..

ـ تُعجبني مبالغاتك.. لكني سأحضر غداً نزولاً عند رغبتها.. انتظريني في عشّنا.

ـ هل ارتوت كاميراك من دمائنا..؟ هل امتلأ رأسها، فثملت.. وآن الأوان لتستفرغ موتنا على شاشاتكم..؟!

ـ دمنا.. جثثنا..؟! ماهذا الذي تقولينه..؟

قطعتُ الاتصال، وأغلقتُ جوالي، فما عدتُ قادرةً على سماع كلمةٍ واحدةٍ.. فالطبول تقرع في داخلي، والهلع من كل شيء يستبدّ بي.. استلقيت على سريري، ونمتُ مفتوحة العينين هرباً من صورٍ مجنونةٍ تلاحقني، كلما أغمضتها..!

وحده هاتفي بقي مغمض العينين والقلب عدّة أيام.. وكذلك باب غرفتي ونافذتها الوحيدة.. لم أستطع، أو ربما لم أجرؤ أن أفتح له الباب رغم إلحاحه.. ناداني بكل جوارحه، وهو يقرع الباب، بصوته، بأصابعه، بأنفاسه المتلاحقة.. كنتُ أرشف جميع وسائله الباحثة عني، أبتلع صدى صوته، ورائحة أنفاسه التي وصلتني ملهوفةً، دافئة.. وكأنها معجونةٌ بالفعل بطيْبِ العاشقين.. أتلقى تمسّحه بباب غرفتي تارةً، وبنافذتها سميكة الأجفان تارةً أخرى، وأخنق توقي إليه، ولهفتي لاحتضانه..! ولما استدار خائباً، ندهته بوجيب القلب، ووجع الحنين:

ـ فينيقيل.. أنا هنا..

وفتحت الباب، ليتدفق داخل غرفتي موجةً مُستبدّة، جرفتني بقوة اندفاعها، ورمتني في أقصى زاويةٍ من سريري البارد.. تكوّرتُ كطفلٍ تصبّح بوجه زوجة أبيه..
ورحتُ أنشج مقهورةً.. اقترب مني، أحسستُ به يُمرّر يده بحذرٍ فوق رأسي، وكأنه يخاف أن يلمسه، فيستفزّ عشّ الدبابير القابع فيه.. التفتّ نحوه بعنفٍ، ورميتُ في وجهه كبّة اللهب التي تحرقني:

ـ من أنت..؟! أريد أن أعرف الآن كل شيء عنك وعنهم..!

ـ من تقصدين..؟!

ـ لابد أنك مرتبط بجهةٍ غريبة.. فقل ما لديك دون مراوغة..

ـ ومن أين جاءك هذا اليقين..؟

ـ اطلعتُ على جميع ملفاتك: الصور، المذكّرات.. ولم يبقَ أمامك إلا أن تعترف..

قهقه بمرارة حتى دمعت عيناه، وقال:

ـ ها.. الصور.. الآن فهمت.. تريدين فهم سرّ الصور إذاً.. يا لهذه القضية التي لم تعد تنتهي.. لكن مهلاً.. فأنت تقولين أنك قرأتِ مذكراتي.. أليس كذلك..؟

ـ أجل قرأت كلّ شيء..

ـ إذاً.. ما المطلوب الآن، وقد بات كل شيءٍ واضحاً أمامك..؟

ـ لم يقنعني ما قلته.. ولا يُقنع أيّ غرٍّ في العالم.. فمن الأفضل لك أن تُعلمني بكلّ شيء: هويتك.. ارتباطاتك، أسماء شركائك، أو أسيادك..

ـ أسيادي..؟ سامحكِ الله.. وتريدين هويتي أيضاً..؟! هويتي يا شفق..؟! يا ملكتي..!

ـ لا تضحك عليّ من جديد بهذا اللقب.. فأنا ماعدتُ أحبّه.. لا بل بتُّ أحتقره..!

(قال ملكة قال..) أية ملكةٍ مُغفّلةٍ تغرق بشبر حبّ..!؟

يضحك من عمق الألم، ويقول:

ـ والله العظيم أنتِ أحلى ملكة في العالم..! وخفة ظلّك وحدها تساوي قبيلةً من النساء..!

ـ نعم ملكة.. لكنك قطعْتَ رأس حبيبها، ووضعْتهُ داخل صندوقٍ زجاجيّ في غرفتها، لتجلدها عيناه الفاغرتان صباح مساء.. أجل.. أنت القيصر الذي فعل ذلك مع زوجته عقاباً لها على الخيانة.. أما أنا فعقابك لي كان على الإخلاص..! لكنها انتقمت بعد موته من كل الرجال.. وأنت تعلم أنها لمّا استلمت الحكم، صارت تختار كل ليلةٍ رجلاً يضاجعها أمام صورة زوجها، ثم تقتله..! أتعرف لماذا..؟

تململ كسليمٍ اندلق المصل المضادّ للسمّ من بين يديه، وقال:

ـ دعينا الآن من التاريخ، وروائحة، ولنلتفت إلى أنفسنا ومشكلتنا..

ـ ألستَ أنت من حقن دمي بالتاريخ..؟ هل نسيت مقولتك التي حفرتَ بها عظامي:

(اقرئي التاريخ بتمعّن، فهو الوصفة التي لا تشيخ..!)

وكلما قلتُ لك: لا أحبّ رائحته الوخّاذة.. ضحكتَ مني، وقلت: هذا طبع الدواء، فهل نقاطعه حتى يخلطه مُصنّعوه بالعطور..؟! وها أنذا أستفيد اليوم من التاريخ، لأفهمك، وأحاكمك.

ـ لكنكِ أخطأتِ في اختيار الوصفة المناسبة.. فهذه القصة لا علاقة لها بمشكلتنا،

لا تُشبهها، ولا تُقدّم فيها أيّة رؤيا.

ـ بل لها كلّ العلاقة، فهي صورةٌ عما حدث بيننا.. فأنت قتلتَ حبيبي، قطعتَ رأسه الغالي، ووضعته أمامي.. حشوتَهُ داخل رأسي أزلاً لا يموت.. ثم بدأتَ تتناسل في حياتي رجالاً مشوّهين.. يخونون طبيعتهم، ورجولتهم.. أفلا أتعلّم من الملكة، وأقتلهم..؟! نعم سأقتلهم.. فكلّ الرجال بعده سبايا..!

ـ لا.. تلك المرأة كانت مجنونة، مريضة.. أما أنتِ فملكة..

ـ من الذي جنّنها، أليس تصرّف زوجها المتوحّش.. أما كان يشفي غليلَه قتلُ غريمه، ودفنه بطريقةٍ إنسانية..؟ ليته قتلهما معاً.. وليتك قتلتني قبل أن..

ـ أفففففففف.. لقد مللتُ هذه القصة التعيسة.. ليتني لم أحبّبْكِ بالتاريخ، بل ليتني لم أقرأه أنا أيضاً.. ولم أقع في غرامه..

ـ أتعني أنك تتّهم طبيبك..؟

ـ يبدو أني عشقتُ عجوزاً ثرثاراً.. قاتلاً..!

ـ عجوزاً ثرثاراً..؟! ولماذا لم تحكم عليه بالختان..؟

ـ ختان للتاريخ..؟!

سألني، وهو يقهقه مستغرباً..

ـ أجل.. فالختان ضرورة لكلّ لسانٍ طويل..!

جحظت عيناه دهشةً، وسارع لإغلاق فمه تحسّباً، قبل أن ينفجر ضاحكاً، وتتقطّع كلماته على (مقام قهقهته):

ـ أنتِ.. أنتِ مُذهلة حبيبتي.. هه.. هه.. هه.. والله مُذهلة..! ختانٌ للألسن الطويلة..؟! لماذا لم تقولي بتر..؟

ـ لست مُجرمة لأقترح البتر.. الختان يكفي.. فهو يُطهّر، ويُخفّف إدرار الكلام..

ـ سأعمل بنصيحتك.. لكن قومي معي الآن، هيّا.. فكلّ ما تريدينه موجود هناك في غرفتي.

(٢١)

للمرة الثانية، أو ربما الثالثة يُفتح باب الغرفة بسهولة، كأنّه فُتح من تلقاء توقه.. رمى ما بيديه أرضاً، ثم خلع عنقه من طوق كاميراه المُحنّى بعرقه، أمسكها بكلتا يديه، وراح يهزّها، كأنّه يُعاقبها على ما طرحه رحمها من مصائب، وهو يقول:

ـ انظري حبيبتي.. هنا.. في جوف هذه الكاميرا شيطان بثلاث عيون.. عينٌ مفتوحةٌ على الماضي، لا تغمض أجفانها أبداً.. وأخرى تُراقب الحاضر بكللٍ، وتُغضي، وكأنه لا يروي ظمأها.. والثالثة.. آهٍ من الثالثة.. إنها ترى المستقبل كما يحلو لها.. اللعينة.. توسوس أكثر من إبليس..!

ضحكت دموعها، وسألته هازئةً:

ـ هي التي توسوس يا (روي)..؟

وحانت منها لفتة حنينٍ إلى وعاء الماء الذي خصّصه لغسل قدميها، مذ وطئتا هذا المكان أول مرّة.. شعرتْ بدبيب الشوق يسري بين أصابعها سخيّاً ساخناً.. فأردفت كأنّما بملل من كلّ شيءٍ، إلا من تلك اللحظات:

ـ ألم تنسَ شيئاً يا (روي)..؟

ـ لأول مرة تنادينني (روي).. مامعنى هذا..؟! هل يـ ..

قاطعَتْهُ ساهمةً:

ـ ألم تنسَ شيئاً..؟

وكان بصرها مايزال معلّقاً بوعاء الأمس الذي رأته يدنو منها مُشرعاً بسمة ضيافته الضافية..

انتبه فجأةً، فسألها:

ـ أحقاً مازلتِ ترغبين بذلك؟! قبل قليلٍ كنتِ تنوين..

وضعت إصبعها الرّاعشة على فمه، ونهرته:

ـ هي مجرد طقوسٍ، مازال لها شيءٌ في داخلي..

دغدغت كلمة الطقوس مفاصله، زيّتتْ روحه.. وبعد لحظاتٍ كانت يداه تخوضان في ماء قدميها المُتعرقتين، ولسانه يلهج ملهوفاً:

ـ أتعرفين يا حبيبة..؟ أنت ظالمة جداً..

بدأ صوتها يسترخي مع قدميها:

ـ اسمع يا حبيـ..

وغصّت بما تبقى من عبارتها..

ـ قوليها حبيبتي.. أرجوك..

ـ ليس قبل أن أفهم سرّ تلك الملفات التي ذبحتني..

كان يدلك أصابعها، وكاحليها بهدوء الملح، الذي راح يتسرّب إلى خلايا عشقهما كالعادة.. لكنه كان يرتعش، وهو يقول بحسرة:

ـ كنت أتحمّل أن يشكّ بي الجميع، إلا أنتِ..

ـ لم يطّلع أحدٌ غيري على أسرارك..

ـ ليتني صارحتُكِ بكلّ شيء.. لكني أعتقد أني لمّحتُ لك بما..

رفعتْ ساقيها من الماء، لتجلس أمام الحاسوب، وهي تقول بسخريةٍ مالحة:

ـ تعال يا فينيقيل.. أو يا روي.. أو.. لم أعد أعرف بأيّ اسمٍ أو لقبٍ أناديك.

بجزءٍ من الثانية خُطفت روحه، طارت إلى تلك الليلة التي خلع فيها روي عن عرش حياته، ونصّب مكانه (فينيقيل) ملكاً بتاجٍ وصولجان، وإرادةٍ من لحمٍ ودم..

رأى نفسه يجاهد الموج الغاضب على مراكب الفينيق، ويصحو مُبلّلاً.. يمسح عرقه، ويتناول كتاباً كان قد غفا، وهو يُبحر بين دفّتيه.. يقرأ حتى يُداهمه النوم من جديد، فيعاوده الحلم الذي يأتي تتمّة لسابقه، إنه مع ملكة الفينيق على السفينة، يسمعها تصرخ مُوجّهةً بحّارتها: (أنتم فينيق (إيل) رسل الحضارة والشروق الأرجوانيّ، لا تهنوا، ولاتضعفوا.. قاوموا العاصفة.. وأنت يا فارسي فينيقيل كن ندّاً لإيل كي يحترمك.. اختر مواجهته، فهو لايحبّ من يستسلم له..

ـ لكنه قويّ وجبّار مولاتي.. فكيف أجابهه، وهو يرشقنا بالعاصفة تلو الأخرى..؟!

تضحك بعذوبة الثقة، وحلاوة اليقين، وتقول:

ـ إنه يُنازلك بقسوة، لا ليسحقك، بل ليُدرّبك على صرع الأهوال.. قاومه يا فينيقيل، لتستحق أن يرتبط اسمك باسمه..) ويجفل مُضمّخاً بالرّهبة.. وروحه تهذي:

(أجل.. أنا فينيق إيل.. هذا هو ما يليق بي..)

في تلك اللحظة مات (روي) وولد (فينيقيل)..

كان مايزال هناك، يُشيّع الأوّل، ليستقبل الثاني، عندما زعقت به:

ـ ما بكَ..؟ أين هربت..؟

ـ أنا معك حبيبتي.

ووقف يراقبها، وهي تفتح الجهاز، وتكتب كلمة السرّ:

ـ من أعطاكِ كلمة المرور..؟

ـ قلبي.

ـ القلب لا يكذب.. فكيف..؟

تضحك بمرارة، وتهدر:

ـ لا تراوغ.. فأنت تعرفني أتحسّس من رائحة النفاق.. وهذا دليل إدانتك أمامي..

وبدأت تستعرض الملفات ، بينما كان يقف خلفها متأمّلاً عنقها المكشوف، ورغب فجأةً باحتضانها، وارتشاف عسلها المُعتّق في دنانٍ أزليّةٍ مُدوّرة، رآها مرصوفةً بعنايةٍ مثيرةٍ بين أذنها الوادعة كمهد، وكتفها الشامخة باحتجاج أنثى نسرٍ فتيّ..!

لكنّ عناقيد الغضب المُتدلّية من رأسها، لجمت رغبته..

استدارت نحوه بعنف:

ـ ما بك.. لماذا لا تجيب.. ما كلّ هذا..؟! ما علاقة هذه الصور ببعضها، ولماذا يقطر الدم منها..؟ ثم كيف تصوّر حادثةً قبل حدوثها.. أكاد أجنّ.. ألا يعني هذا أنك أنت من خطّط لها، وربما اشترك في تنفيذها..؟ قل بسرعة، أعصابي لم تعد تتحمّل.. ولا تخف لن أغدر بك، لن أفعل شيئاً سوى الابتعاد..

ـ لن تستطيعي..

ـ ماذا.. هل ستقتلني..؟ آ..آ.. بالفعل لقد حُسم الأمر.. فالمخطّط جاهز، وطريقة الموت مرسومة بدقة، حتى المكان بات معلوماً..

وتُقهقه بجنون دامع، وهي تقول:

ـ كلّ الناس يعرفون أين يولدون، لكنهم لا يعلمون أبداً في أيّة أرضٍ يموتون، إلّا أنا.. فهنيئاً لي بهذا التّفرّد الذي منحتني إيّاه.. يا.. يا حبيبي..

رفعها عن الكرسي، أجلسها قبالته، امتشق صورةً من أرشيفه، وهدر:

ـ اتركي تلك النبوءات المشؤومة، وحدّقي في هذه الصورة، إنها تُظهر زهو السادات، وهو يُلقي كلمته الشهيرة في الكنيست الإسرائيلي.. سأصوّرها الآن أمامكِ..

يضع الكاميرا على عينيه، يُركّز لحظاتٍ، ويُصوّر الصورة..

ـ الله أكبر..

صرخ بصوت المنتصر..

ـ انظري.. ماذا ترين..؟!

حدّقتْ في الصورة التي منحت حبيبها وثيقة براءةٍ، مازالت مشوبةً بالغموض..! ولمعت في ذهنها صورةٌ قديمة التقطها لها في أحد شوارع دمشق، وقد تربّع على رأسها تاجٌ ملكيّ، لا تعرف كيف.. احتجّت عليه يوم ذاك، فأجابها متباهياً:

ـ ألستِ الملكة..؟ والملكة يجب أن تُتوّج..!

ـ هيه.. أين ذهبتِ..؟

قال، وهو يضع الصورة أمام عينيها، وأردف مُحتفلاً:

ـ انظري هنا، ماذا ترين..؟

عاودت التّدقيق فيها، وهي تفرك عينيها، ثم تفتحهما، وهدرت برنّة الفرح:

ـ يا إلهي..! إنه هو، السادات نفسه.. لكنه مقتول..! هاهو يتهاوى كطودٍ مشروخ.. ومازالت عصا الماريشالية الكانت خليلته.. مُعلّقة في الفراغ..

ويضحكان معاً.. يسكر الضحك بينهما.. تحضنه، تعانقه، تعجنه بجنون الفرح والأسى، تلطم صدره بقبضتيها، ثم تنفلتُ من بين جوانحه، وتهجم على الكاميرا، ترفعها بين يديها، وهي تقول:

ـ موتي أيتها اللعينة.. فقد كدتِ تُطيحين بعقلي، وقلبي..

ـ لا.. لا تقتليها.. أرجوك.. فالعلّة ليست بها.. العلّة هنا..

ويشير إلى رأسه.. مُتابعاً برصانة الواثق:

ـ لقد رميت الكثير من أخواتها.. كلّهنّ كنّ يُنتجن ما أفكّر فيه، وما أتوقّعه..!

صوّري أنت أيّ شيء، التقطي لي صورةً الآن، وسترين..

ـ لا.. لا أجرؤ.. فقد.. فقد تُريني ما يقتلني..

ـ إذاً أعيدي تصوير ماصوّرتُه قبل قليل.

وما أن فعلت، حتى جحظت عيناها، وتسارع وجيب قلبها.. فرمتها مذعورةً..!

اقترب منها ضاحكاً، حضنها، مشت أصابعه على رأسها مُهدّئةً، وهو يهمس:

ـ أرأيت حبيبتي كيف نقلت الكاميرا الصورة حرفياً..؟ المرض عندي أنا.. وهو غير مُعدٍ، ولا قاتل، فلا تخافي.. تعالي سأريك شيئاً آخر..

يجلسان معاً أمام الحاسوب، يفتّش عن ملفٍّ بعينه، وهو يقول باحتفاليّة:

ـ انظري هنا.. هذا هو نيلسون مانديلا، أترين..؟ إنه يُتوّج رئيساً.. أتعرفين أين التقطتُ له هذه الصورة..؟ لن تُصدّقي أنني فعلتُ ذلك في السجن..!

تلجلج الذعر، والدهشة في صوتها:

ـ كيف يُتوّج رئيساً في السجن..؟!!

شرق بضحكته الرّاقصة.. ولما تمكّن من ابتلاعها، قال:

ـ كنّا فريقاً من المراسلين نحضر مؤتمراً صحفيّاً مع الرجل داخل سجنه، ولمّا صوّرته أثناءها، كانت النتيجة هذه الصورة التي أمامك..! وبالفعل خرج الرجل من السجن، وتسلّم السلطة في بلاده بعد سنواتٍ طويلة من الاعتقال..!

هتفتْ بين رعبٍ وذهول، وكبير إعجاب:

ـ أنت تعرف إذاً كلّ ما سيحصل في العالم..! كيف..؟ وعلى أيّ أساس تبني تنبؤاتك التي تقرؤها كاميراك..؟!

ـ لا.. حبيبتي.. ليس الأمر كما تقولين.. إنه مجرّد فهم للتارخ، وتحليلٍ لوقائعه بكلّ رواياتها، ثم ربطها بالواقع.. إنها معادلة سهلة.. تاريخ + واقع = مستقبل..

زفرت مُعبّرةً عن عدم فهمها، أو تصديقها لسهولة الموضوع، وهدرت:

ـ غير معقول.. فليس كل من فهم التاريخ، يستطيع استشراف المستقبل..

ـ معك حقّ.. العارف بالماضي يملك نصف الحقيقة.. ولن يحصل على ما تبقى منها، إلا إذا قرأ الحاضر بناءً على مخزونه ذاك.. يعني الماضي مقدمة، والحاضر متنٌ، والمستقبل هو النتيجة التي لابدّ منها..!

قالت بصبر الظمآن للاكتشاف:

ـ أتعني أن التاريخ يمتطي رقابنا، ويسوسنا على هواه..؟!

ـ ليس تماماً.. فكما أن ذرّتين من الهيدروجين، وذرّة من الأوكسجين

لا يُشكلون الماء، دون تواشج، واتحاد، مع أن هذه الذّرات هي العناصر المُكوّنة له، كذلك لايُنبئنا الماضي بالمستقبل، إن لم يتّحد بوقائع الحاضر وذرّاته..

سحابة كآبةٍ عبرتْ مُحيّاها، فأمطرت خوفاً وهلعاً:

ـ أتعني أن موتي بات وشيكاً..؟؟ على أيّ أساسٍ بنيتَ رؤيتك التعيسة..؟ وكيف استطعتَ التفكير بذلك، حتى لقطت كاميراك هذا الخاطر..؟!

أدمتْ جراحُ أسئلتها فؤاده العاشق، فراح يضرب رأسه بالجدار، بقسوة من يُقارع عدوّاً.. وهو ينزف:

ـ لعنة الله عليك أيها المأفون.. خذ.. خذ.. أنت تستحق الكسر..

انهمرت عليه، سوّرت رأسه بأصابعها، وهي ترجوه أن يتوقف عن تعذيب نفسه..

رمى ندوبه على صدرها، وراح ينشج كطفلٍ شريد..

ـ لا عليك حبيبي.. فأنت لا ذنب لك في ذلك.. لكني مرعوبة.. ليتك لم تُصوّرني..

وتنتفض فجأةً لتسأله:

ـ صحيح.. متى أخذتَ لي تلك الصورة..؟! متى قتلتني..؟!

ونضح وجهها ماءً كئيباً، شربَته أنامله الحنونة كرملٍ نفوذ.. وهو يبوح لها:

ـ صدّقيني يا حبيبة أن مايحدث معي فعلٌ لا شعوريّ.. لا أملك له ردّاً، ولا رادعاً.. إنه ذاك الذي يُسمّونه العقل الباطن.. لابد أنه يستحضر المواد الأوليّة، ويمزجها كما يحلو له، ثم يطبخها على نارٍ هادئة، ويرشّ عليها البهار، والمُنكّهات، وأخيراً تأتي (كاميراي اللّصة) وتسرقها.. ثم تبقبق، وتوقوق احتفالاً بإنجازها العظيم..! أتعرفين أنها تُشبه الدجاجة التي تحضن ما يوضع تحتها من البيض، وعندما يفقس، تصمّ آذان الكون بهتافاتها الاستعراضيّة.. وكأنها هي من أنجبت تلك الكائنات، مع أن البيض مجموعٌ من هنا وهناك، وقد لا تربطها صلة رحمٍ بأيّة بيضةٍ منه..!

تضحك من عمق الألم، وتهمس:

ـ سأسمّي كاميراك الذكية من الآن فصاعداً: (الدجاجة)..!

ـ أجل.. وستبيض ذهباً..

ـ تقصد مصائباً..!

ولفّهما ضحكٌ، وأصداءُ ألمٍ، وحبّ.. وشروق..

(٢٢)

دمشق تتعرّى احتفاءً بالمطر الذي يفرك ظهرها، ويُدغدغ أنوثتها، فتلد ياسميناً، وحبّاً.. دمشق المُغوية تجذبني من يدي، فأركض معها صعوداً من ساحة الأمويين إلى قاسيون، تتقطّع أنفاسي، فأعتذر لها، لاعناً التدخين، ومَنْ اخترعه..

ـ لقد شختَ يا فينيقيل..

وتضحك منّي، وهي تُهرول صوب الجبل.

ـ ليس كثيراً حبيبتي.. فأنا مازلت شاباً..

تلتفت إليّ، وتصرخ ضاحكةً:

ـ إذاً اتبعني أيها الشاب..

وركضتُ محاولاً اللحاق بها، يُجندلني لهاثي المُشبع بالتبغ، والخمر، والجراح..

ـ أية جراحٍ حبيبي..؟

سألتني، وأنا الذي كنتُ أضع رأسي على فخذها هذه المرّة في إحدى حدائق الشام..

ـ لا تلمسي روحي الآن يا صغيرتي، لا تخدشي قشرتها، كي لا يتهاطل دمعها رماداً وهباباً..!

ابتسمت حبيبتي السمراء بأسى، وهدلت:

ـ تقول لي: يا صغيرتي.. وأنا في الأربعين..؟!

ـ مازلت طازجةً كالحبّ، والشّفق..

ـ وتزعم أني طازجة رغم أني تزوجتُ قبل أن ألتقيك، وأنجبتُ مُخيّماً كاملاً..

ـ أين أولادك شفق، فأنت لم تُحدّثيني عنهم من قبل، رغم أني سألتك مراراً..؟

ـ الشباب استشهدوا، أما البنت..

وغصّت بالجرح كجمرةٍ في الحلق..

حضنتُ رأسها، فراحتْ تخفقُ على صدري كعصفورٍ مذعور.. تغلغل حزن أصابعي في سمرة شعرها المُندّى بقهر الذكريات، وبدأتُ دون وعيّ مني أغنّي، وكأني أهدهدها لتنام:

ـ (هيهات يمّ الزلف، زلفا يا عينيّا.. وطفلة متل الحبق دبلتْ بلا ميّا..)

شهقتْ كمذبوحٍ، يستمطر بقايا الروح:

ـ (هيهات يمّ الوجع، وجعكْ يا عينيّا، وبنتْ قلبي هْناك، نامت بلا فيّا..

لو كنتِ شتلة حبق لسقيكي بعْنيّا.. ولو كنتِ حنّة حلب.. حنّيتْ إيديا.

بس إنتِ دمعْ وصبرْ.. والدّارْ غزّيّة..)

كانت مُبلّلةً بالموت من أظافر قدميها حتى هامتها.. رمقتني ببريق الآه، ونزفت:

ـ ابنتي تركتها نائمةً هناك في المُخيّم.. لم ألحق أن أمسح حليبي عن فمها، فبين صدري، وسريرها دخلت رصاصة غيّبتني.. ولم أفقْ إلا في أحد مشافي الأردن..

ـ وكيف وصلت إلى هنا..؟

ـ كان المشفى مُكتظّاً بالجرحى، فنُقلتُ مع الكثيرين إلى دمشق، هكذا قيل لي.

ـ وابنتك.. هل عرفتِ عنها شيئاً..؟!

ـ مارأيك أنت.. طفلةٌ رضيعة تنوح في مهدها، داخل بيتٍ فارغٍ إلا من القذائف، وأحذية الهمج.. تُرى كيف سيكون حالها..؟!

وذابت عيناها في جحيم الدّمع، والقهر.. قبل أن تنتفض بعنفوانٍ، وتقول:

ـ لا.. لا.. طفلتي مازالت نائمةً هناك.. أجل.. فأنا أسمع مُناغاتها، وأشمّ عبق حليبي على فمها، وعنقها..!

ـ يا لقبحي.. كيف نكأتُ الجرح، وأدميتُ قلبها الغضّ..؟!

قلتُ في نفسي، وأنا أبتلع ملوحة ألمي، وفكّرتُ:

ـ كيف سأنتشلها من مستنقع الخوف، الذي رميتُها فيه بحماقةٍ مثاليةٍ..؟!

جذبتها من يدها، وأنا أقول بين ضحكٍ مُعلنٍ، وبكاءٍ مكتوم:

ـ هيّا.. هيّا.. أيتها النّمرة السمراء، تعالي لنركض على وهوهات مطر الشام، وأرصفتها.. ولا تحزني، فقد بات قريباً يومُ اللقاء..

الفصل الثاني

(طال غيابك حبيبي.. أتراك ستنجح في مهمّتك..؟! وتُخلّصني من لزوجة حيرتي..؟
عد بسرعة أرجوك، فأنا أتأرجح على الخيط المُعلّق بين الحياة واللاحياة.. أتّكئ

على كتف اليقين بتحقيق أملنا، فأجد نفسي مرميّة على أقدام الشّك..! الخوف من الفشل يأكلني..)

أعادت قراءة رسالتها، وقبل أن تضغط على زرّ الإرسال، وصلتها رسالة، سارعت لفتحها، فشهقت فرحتها:

ـ ها.. إنّها منه.. يا حبيب قلبي يا فينيقيل..!

وبدأت بقراءتها بصوتٍ مسموع، وكأنها تريد أن تُطمئن حواسّها جميعاً:

(حبيبتي شفق.. في هذه اللحظة انتهت الإجراءات والتحضيرات لانطلاق أسطول الحرية الجديد، مئات المتضامنين من جنسيات عديدة سيكونون معنا.. أعرف البعض منهم فقط، وقد ساهم بعض النّاجين من الأسطول السّابق بهذا العمل.. وعبّروا عن عظيم فرحتهم لأنّهم سيُحققون رغبتهم بإعادة المحاولة المغدورة..

حبيبتي سنكون في ميناء اللاذقية مساء الثلاثاء، خذي سومر إلى أم شمس، قولي لها أن تعتني به حتى نعود.)

ـ الله.. الله.. يا حبيبي..! كم أنت حبيبي..!

تنهّدت بارتياح، قبّلت حاسوبها المحمول، ورفعته عن حضنها، لتُوسّده مكتبها، وتستلقي بانتشاءٍ على سريرها، وهي تُفكّر:

ـ دقّت ساعة الصّفر إذاً.. فبعد ثلاثة أيام سأكون على متن أحد السفن الذاهبة لفك الحصار عن أهلي في غزّة.. أوّاه يا حلمي الأغرّ.. أتراك ستغدو واقعاً عمّا قريب..؟! وسألتقي بجذوري، سأرى طفلتي، وأمسح حليبي المُدمّى عن وجهها وعنقها..؟!

وفجأةً عبرت مُحيّاها سحابة قلقٍ رماديّ، فهجست:

(تُرى هل سنصل غزة..؟ أم أن سفينتنا ستتعرّض للقرصنة، كما حدث (لمرمرة) منذ أعوامٍ قليلة..؟!)

في هذه اللحظة دخل سومر، حيّاها بودّ، وسألها:

ـ هل من أخبارٍ جديدة ماما شفق..؟

ـ نعم حبيبي..

ونهضت بلهفة، لتحضنه، وهي تقول:

ـ شمس اشتاقت إليك، وأمّها كذلك..

ـ صحيح..؟ وأنا اشتقت لهما.. لكني أسألك عن أخبار أبي..

ضحكت بارتباكٍ، وتلعثمت:

ـ حبيبي سومر.. أنا.. أقصد والدك.. قصدي.. والدك وأنا سنسافر في مهمّةٍ،

ولا نستطيع اصطحابك، لذلك..

قاطعها بيأسٍ دامع:

ـ نعم.. نعم.. فهمت.. لذلك سأبقى عند الخالة أم شمس كالعادة، أليس كذلك..؟

ـ لا تنزعج مني حبيبي، فدراستك لها الأولويّة على كلّ شيء، وشمس وأمّها..

ـ أعلم أنهما خير من ينوب عنكما، وأنهما مدينتان لكِ ولوالدي.. فهمت كلّ هذا، وأنا أحبهما كثيراً.. لكني أريد أبي، لا نائباً عنه.. هل فهمتي ماما..؟

مسحت دموعها بباطن كفّها، وقالت، وهي تعانقه:

ـ أعدك يا بنيّ أنها ستكون المرّة الأخيرة التي نبتعد عنك فيها..

ابتلع نشيجه، وعلى شواطئ القلق تركها، تبحث لروحها عن مرساة.. بعدما صفق الباب وراءه دون أيّة كلمة..

....

شهق مصباح الرّوح، شبّتْ نيرانه، وتعالت.. كأنه حُقن بفيض طاقةٍ لمّا رأيتُها..

ارتمت على صدري، تشمّمتْ عنقي.. فتنشّقتُ منها رائحة حبّنا المعتّق..

ـ هيّا حبيبتي، تعالي.

وعانقتُ الشاطئ بعين قلبي، وأنا أصعد إلى السفينة..

ـ أعشق البحر..

ـ وأنا.. لكنّي أحبّكِ أكثر..

ـ يا كذاب..

وتضحك كالموج المُتلهّف للعناق.. وعلى الشاطئ المُتخم بالمُودّعين،

نقشنا أسماءنا.. وراحت سفننا تتراقص على ذؤابات الموج، مُحتفيةً بركّابها الذين فتحوا صدورهم لعذوبة المساء.. أمّا شفق فقد اصفرّ وجهها فجأةً، وبدأت تترنّح على هاوية السقوط، حضنتُها بقوةٍ، وأنا أقول ضاحكاً:

ـ إنّه دوّار البحر أيتها الغرّة.. تعالي، تعالي يا صغيرتي لنجلس هنا..

وجثوتُ مُتّكئاً على همهمات روحي، ثم مددتُ ساقيّ، ووسّدتُها فخذي، بينما توسّدت أصابعي كزبرات شعرها النّبيذيّ، وهمست:

ـ حاولي أن تنامي حبيبتي.

ـ إذاً.. احكِ لي حكاية، فهذه أسرع طريقة للنّوم.. لكن.. دون دم.. أرجوك..

فحكيت لها عن عاشقٍ، مخر عباب المحيطات مع (سيليا) ملكة الحضارة والسلام.. ولمّا أوغلتُ عمقاً، وملكتْني الحكاية تماماً، بدأت تهزّني بعنف، وهي تقول:

ـ مَنْ هذه (السيليا) التي تُحبّها أيّها الغدّار..؟

أبحرتُ في عينيها اللتين تسلّلت إليهما غيرة القمر، ورطوبة الليل البحريّ..

فأشاحت عني، وهي تقول لائمةً:

ـ يا خائن.. تختبئ وراء الحكايات لتُعبّر عما يعتمل في صدرك..؟! إنه التّنفيس إذاً.. وأنا المُغفّلة، صدّقتُ أنّك تبتكر القصص، لتُروّح عني، وتساعدني لأستسلم للنوم..!

وخزتني كلمة الخائن، فابتلعتُ غصّتي، وقلت:

ـ ألم أخبركِ أنها ليست المرّة الأولى التي أسافر فيها عبر المتوسط...؟

أجل يا شفق.. أبحرتُ مع سيليا ملكة الفينيق، وأحببتها أيضاً بكلّ البخور والقداسة..!

حكيت، وحكيت.. حتى فهمت شفق أن (ضرّتها) إحدى بطلات التاريخ، فهمست بجذل، وهي تحضنني:

ـ يا لك من حالمٍ مسكونٍ بهذيانات التاريخ..!

ـ لا أدري حبيبتي لماذا تُلحّ قصة سيليا على التجلّي في مُخيّلتي، مذ صعدنا هذه السفينة..! حتى أنني بتُّ أخلط بين رحلتنا، ورحلة الأميرة الفينيقية.

ـ إذاً احكها لي، فقد بتُّ في شوقٍ لمعرفة تفاصيلها..

وكأنّي كنت أنتظر منها الضوء الأخضر، لتُصبح رحلة (سيليا) زادي، وهوائي، فقلت مُتلهّفاً:

ـ حين وصلت المراكب شاطئاً جديداً للمتوسط، أمرتنا الملكة سيليا بالتّوقف، فامتثلنا، لففنا الأشرعة الأرجوانية على الصواري العابقة بالدهشة، أنزلنا المراسي، وسكبتْ ملكتنا قدميها في ماء الشاطئ، بينما تجمهر أهل المنطقة لاستقبالها.. سكّان الحفر والكهوف العراة هؤلاء، لم يتعلّموا بعد كيف يغسلون أفواههم من دماء طرائدهم..!

ـ هل كانت رحلتكم بعيدة..؟

سألتني شفق، وهي تضغط أصابع نعاسها على عنقي.. فقلتُ:

ـ نعم..

وكأنني صدّقتُ أنني كنتُ هناك..

ـ أكان عندكم بوصلات تُعرّفكم الجهات..؟

ـ كنّا نسير على هدي قلوبنا.. والملكة تُوجّهنا بعد أن تأخذ من كلّ قلبٍ ميثاقه:

(عندما يتّحد القلب واليد، فلا شيء يغلبهما)..

أتعرفين حبيبتي.. الحبّ أقوى من أيّ رادار، والقلب أدقّ من أيّة بوصلة..!

وذات غسق كانت قرب الدّقل تشهق كغيمةٍ في حالة مخاض..! ركعتُ أمامها:

ـ مولاتي سيليا..

ـ اتركني أبكي..

ـ يُمنع البكاء على المتوسّط.. هنا لا يُسمح إلا بالفرح.. أليس هذا كلامكِ..؟!

ـ أنا أبكي عليهم، إنهم يخافون حتى الأوراق التي نُدوّن عليها أسماء سلعنا وأسعارها، وكأنها بنظرهم رموزٌ تُنذر بالخطر..!

ـ معك حق مولاتي.. لكنّك قمتِ بما عليكِ..

ـ كان من الممكن أن أفعل أكثر..

قالت بين شهقتين، وأردفت:

ـ أليس كذلك يا فينيقيل..؟

كانت تُنادينا جميعاً بهذا الاسم (فينيقيل).. وعندما يستغرب أحدنا، ويسألها عن سرّ تجاهل اسمه، وتراجعه لصالح هذا اللقب، تبتسم بثقة، وتقول:

ـ نحن فينيق الله.. رسل الحضارة، واللغة، والسّلام..! نحن شروق شمس الربيع، التي تُبحر كلّ عام، لتحمل إلى الشاطئ الآخر رسالتها من العطور، والبخور، الزيت، النّبيذ، الحرية، والطعام أيضاً..!

لكنهم لم يفهموا رسالتها.. تمسّكوا ببدائيتهم، بأسنانهم الحادّة، المُعتادة على تقطيع اللحوم النيئة، وقاوموا بضراوة ما تحمله لهم من تحضّر..! تقبّلوا تجارتها، لكنها عانت طويلاً، لترتقي بهم، وتُعلّمهم مبادئ الحياة الإنسانية..!

ـ أرأيتَ ماذا فعلوا بكلّ ذلك يا فينيقيل..؟!

ـ لا تحزني مولاتي، فقد فعلتِ ما بوسعك..

ـ فينيقيل..

نادتني كالبوح:

ـ على صدركَ أبكي، فيخبو حزني..!

ـ أنا يا مولاتي..؟!

سألتُها بكلّ فرح الدّهشة ـ فأنا لو عشتُ معها ألف عمر، تبقى سيدتي، ومولاتي ـ فأجابتني بقبلةٍ على خدي الأيسر، جمعتْ ماضيّ وحاضري ومستقبلي في لحظةٍ واحدة..! وأحسستُ بجنوح جسدي كلّه إلى اليسار..! فطلبتُ منها قبلةً على خدي الأيمن للتّوازن.. قبّلتني، وهي تسألني:

ـ أتحبّني..؟!

قلتُ بخفوت الصوت، وضجيج القلب:

ـ جداً..

وغمغمتُ: حتى الآلهة نفسها بحاجة إلى الحب..!

....

الرّيح الشّابّة تلفّ سفينتنا برشاقة العشق، فيتطاير شعر الموج فرحاً.. ويرشقنا بعذوبة رذاذه.. وحبيبتي شفق تُرسل نظراتها بعيداً، كأنها تُسرّح سرباً من الحمام

الزّاجل، ليعانق حمام الأقصى، ويبثه أشواقها العريقة..! بينما ينتفض قلبي كطيرٍ يتوجس خطراً.. جذبتُها إلى صدري، وهمستُ لها:

ـ أترغبين بالنّزول إلى قمرتنا..؟

غمغمتْ بارتعاش:

ـ لا.. أريد البقاء هنا، لأراقب القمر والنجوم..

لففتُ جسدها الهشّ بسترتي، وجلستُ أراقب وجهها الخمريّ تحت ضوء القمر، أشرقت عيناها، ومدّتْ ذراعها لتُطوّقني، وهي تسألني ذات السؤال الذي أنتظره، رغم أنه يتكرّر أكثر مما ينبغي:

ـ أتُحبّني..؟

أجبتها مُعابثاً:

ـ لا أدري.. ربّما..

شدّتني من شعري، وهي تقول ضاحكةً:

ـ أتذكرُ كيف كنت تحضنني، وتحملني كما يحمل العشّاق باقات الورد لحبيباتهم في عيد الحب..؟!

وقبل أن أجيبها، استدركتْ بسؤالٍ مفاجئ:

ـ صحيح لقد مرّ عيد الحب، ولم تقدّم لي هدية، لماذا..؟!

ـ لا أؤمن به..

ـ ولماذا أيها العاشق..؟!

ـ لأنه صناعة أوربية.. أليس عاراً على أحفاد سيليا استيراد أعيادٍ للحب، وفي تاريخهم الكثير من شهداء الحب، الذين ماتوا جوىً، وإخلاصاً للحبيبات..؟

فلماذا لا نجعل من ذكرى استشهاد أحدهم عيداً..؟!

وغمغمتُ كأني أحاكم نفسي:

(لماذا قلت ذكرى استشهاد أحدهم، ولم أقل ذكرى ميلاده.. هل يسكنني هاجس الموت..؟!)

فجأةً مدّ القبطان رأسه الأشيب من قمرته، وهو يرفع قبّعته بالتّحية.. وابتسامته العريضة تنشر حولها غمامة ودّ، وراح يُمطرني بكلماتٍ من قعر لغته الأمّ.. فقالت له شفق:

ـ إنه لا يفهمك يا سيّدي، بإمكانك أن تكلّمه بالعربية، إن كنت تعرفها.

أجابها بسرعة، وبلغةٍ عربية شبه فصيحة:

ـ ها.. أنتم عربٌ إذاً، أنا تركي، وأحبّ إخواننا العرب كثيراً.. لكن من أيّ بلد أنتما؟

أجابته شفق باعتزاز:

ـ أنا فلسطينية من غزّة، وهو..

وأمسكتْ لحظاتٍ، ثم توجهتْ إليّ بالخطاب:

ـ أخبره عن بلدك يا فينيقيل.

ـ أنا من هذا المتوسط الحبيب الذي كان في يومٍ ما بحيرةً فينيقية.. و.. و..

لكزتني شفق، فانتبهتُ لنفسي، كنتُ كمن يُلقي بياناً سياحيّاً يهدف إلى جذب السّياح أمام دهشتها، ونظرات القبطان المُرحّبة.. الذي بدا كأنه اكتشف قطراً عربياً، لم يكن قد سمع به من قبل.. صافحني ثانيةً، وهو يقول بعربيّته الخاصة:

ـ أهلاً وسهلاً.. تشرفنا..

أجبتُه، وأنا أشدّ على يده: تشرفنا.

وأطبق العتم، وبدا البحر كالمرآة السوداء، تتلألأ فيها صورةٌ واحدة لجميع نجوم السماء.. فاعتذرنا منه، ونزلنا إلى قمرتنا، لنطلّ من نافذتها المُدوّرة على سفح الماء.. ونغفو مُتعانقين على صوت تكسّر الأمواج..

....

طلعتْ شمسُ نهارٍ آخر على مراكب سيليا، التي ظهرت وكأنّها سربٌ من البجع، يتقافز مرحاً تحت وشاح الشمس الأرجوانية ساعة الشفق..!

ـ ادفعوا أيها الشجعان.

أمرتنا سيّدتنا الواقفة على مقدّمة المركب الأول..

امتثلنا لمشيئتها، وشددنا أكفّنا على مقابض المجاديف، لندفعها في رَحِمِ الماء الرّخو، فتراكضت الأمواج بقاماتها المتطاولة، وكأنها ألسنةٌ تمدّها نحو ملكتنا لتتذوّق عذوبتها، وشموخها..! وحين بدأت طلائع النوارس بالدّوران حول

مراكبنا، هتفت السّيدة:

ـ توقفوا، لفّوا الأشرعة، وألقوا مراسيكم، فقد اقتربنا من ساحل جديد.. وسوف نتناول طعامنا، قبل أن نتابع رحلتنا.. لننزل هناك.

وتشير نحو شاطئٍ مايزال مُختبئاً في عبّ الماء..

وحين نزلنا، كان بين الحشد الذي حضر لاستقبالنا على ذلك الشاطئ فتاة تلبس ثوباً أرجوانياً، أهدتها إيّاه سيليا في رحلة العام المنصرم، لتستر به عريها الوحشيّ.. وقد هرعت البنت لتركع بخشوع أمام السيدة، التي راحت تمسح بيدها رأس الفتاة الأغبر، ثم تُنهضها، لتعانقها بحبّ أموميّ فاتن.. فتُناديها الطفلة باحتفاء:

ـ ماما.. ماما..

وكانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي تعرفها من الكلام، علّمتها إيّاها سيليا في رحلةٍ سابقة.. التفتتْ الملكة نحوي، وهي تقول:

ـ أسمعتَ..؟ الفتاة قهرتْ أمّيتها.. هيّا علّمها كلمة بابا، لنصبح أسرة واحدة.

وأشارت إليّ، وهي تُمسك يد الفتاة، وتقول لها:

ـ هذا بابا..

ثغت البنت بدهشة:

ـ بابا.. بابا..

ـ أسمعتها يا فينيقيل..؟ إذاً يمكننا أن نُعلّمهم الكلام، والكتابة.. فالنّباهة لا تنقصهم.. وهم بشرٌ مثلنا أيضاً.. أليس كذلك..؟

أجبتُها موافقاً، وأنا أنقل بصري بحبورٍ بينها وبين الفتاة التي صارت ابنتنا منذ تلك اللحظة..

....

مازالت سفينتنا تمخر صبح المتوسط الأرجواني، وشفق تتوسّد فخذي، وتُرخي جسدها بليونةٍ على الخشب الرّطب.. بينما أسند ظهري إلى الصاري، و(الكاميرا)

تتدلّى على صدري كقدرٍ لا بُرءَ منه، فأنا أربأ بنفسي عن استبدالها بكاميرا الهاتف المحمول، كما يفعل الجميع.. ومازلتُ أسمع منها أزيز أفكاري عن المستقبل..
وفجأةً تسألني شفق:

ـ هل كنت حقاً مع سيليا في تلك الرّحلة..؟!

ـ نعم.. أقصد أحياناً تنتابني رؤى غامضة من ماضٍ سحيق، وأراكِ معي خلالها، وكأنّما في التماعات (فلاشٍ) سريع..!

ـ أنت أسيرُ التصوير، وأسيرُ قصة سيليا التي لا أدري إن كانت حقيقية، أم أنها من نسج خيالك.. وكلّما طلبتُ منكَ أن تروي لي شيئا من التاريخ، ينزلق عقلك، ولسانك إلى نفس المكان والزمان.. وتكون هي البطلة بلا مُنازع..!

ـ أتدرين حبيبتي..؟ للحظاتٍ أتخيّلك مكانها، وأتوهّم أنك هي..

وها أنتِ أميرتي على هذه السفينة، كما كانت هي مليكتي على تلك يومذاك..!

ـ أنا أيضاً أتخيّل أني أعرفك منذ زمنٍ بعيد.. لكني لا أعتقد أنني سيليا..

وتصمتُ لحظاتٍ، ثم تهزّ كتفيها قائلةً:

ـ أعني ربّما.. أنا هي.. من يدري..؟

وتبتسم بعذوبة، فتُنعشني حرارة أنفاسها التي حضنت وجهي، كما يحضن نسيم الصباح جسد الموج العاشق..!

وكي لا يستدرجني عبقها إلى حيث لا أريد الآن، تشاغلتُ بتصوير المتضامنين، ومايرفعونه من لافتاتٍ وأعلام، وفجأةً.. رأيت القبطان التركي مقتولاً برصاصةٍ في الرأس، والدماء تصبغ بزّته البيضاء.. أقصد التي كانت بيضاء، لمّا التقطتُ له الصورة..! صعقتني المفاجأة، وأفلتُّ الكاميرا برعب.. فقد كانت مفاصلها ترشح دماً، وتئزّ بأصوات الطلقات..! وخُيّلَ إليّ أنّ أصابعي أيضاً خُضّبت بالدم.. فرحتُ أمسحها بسترتي بسرعة المفزوع..!

تبسّمتْ حيرةُ شفق، وقالت قبل أن تطلب منّي أن أصوّرها مع بعض المتضامنين:

ـ ما بك..؟ لماذا تمسح يديك، كأنهما مُشبعتان بما تكره..؟ هيّا صوّر..

ولم تُكمل جملتها.. فقد غصّتْ بالدمع، وهي تُحدّق في أصابعي، وكأنها رأتها تقطر نجيعاً..! هربتُ من نظراتها التي تُشبه خفقات جناحي حمامةٍ أسيرة..

ومسحتُ الدماء عن جفون أوهامي، التي تُحاصرني كشركٍ لئيم..

....

سيليا تبدو قلقة.. أحاول انتشالها ممّا هي فيه دون جدوى، فألوذ بصدر الحبّ، أدسّ مخاوفي تحت جناحيه، وأبتهل:

يا حبّ.. يا حبّ لملمْ عن جفون حبيبتي طعمَ البكاء..

تهزّني الملكة، لأعود إليها:

ـ أين رحلت يا فينيقيل..؟ دعك من هذياناتك وحدّق في الماء..

ألا ترى شيئاً غريباً..؟!

أعود إلى نفسي، وإليها مُمتثلاً، وأدقق النظر في البحر، فأهمس مُستغرباً:

(إنها عيون الحب يتلامح يخضورها تحت الماء.. يا الله بهذه السرعة استُجيب دعائي..؟!)

ـ مابك فينيقيل.. عدتَ إلى شرودك..؟

ـ أنا معك مولاتي.. لكنّ خُضرة الماء أذهلتني..

ـ إنها العاصفة إذاً..

ـ لاشيء على السّطح.. الهواء ساكن تماماً.

ـ اسمعْ همهماتها تحت المراكب..

كنتُ أسمع، وأفهم.. لكني أحاول تهدئة روعها، فأيّ حدثٍ سيكون صغيراً أمام خوف الملكة..!

ـ مولاتي تعالي إلى الأسفل، فالموج سيعلو، أنا سأتولّى قيادة المركب.

ضحكت بقسوة، وكأنها تقول:

ـ أتراني هشّة إلى هذا الحدّ..؟ لا يا فينيقيل سترى سيليا، والنّوء العاصف وجهاً لوجه..

وجّهتُ وجهي صوب فينيقيا الحبيبة، وابتهلت روحي: (بحقّ الحبّ المنشور على رباكِ رايةً خضراء، صلّي لأجلي، ولأجل مولاتي، وبحّارتها الشجعان يا حبيبتي السمراء..)

وسمعتُ كأنما بخلايا روحي همسها الدافئ، سمعتُ رائحة بخورها، ونذورها، وهي تدعو لنا..!

ـ هل تريد مولاتي أن نُشعل البخور..؟

ـ لا.. فلن يستقبل (إيل) رائحته، قبل أن يُحطّم المراكب..

صار الموج صخوراً تتدحرج مُقبلةً نحونا، والريح تُدوّم زوبعةً تلدُ أخرى، ومولاتي تمدّ يدها في وجه النوء، فيُخيّلُ إليّ أنها تكسر العاصفة، وتُهين نزقها..!

وكانت الريح تُطيّر أطراف ثوبها، والبرق يلفّها، فتبدو لؤلؤة أمانٍ في صدفة القدر الهائج..!

ـ هيّا أيها الشجعان.. يا بحّارة فينيقيا، أمسكوا قبضاتٍ من البرق، وضعوها في قلوبكم.. إنها من نور إيل الغاضب.. إنه يحبّ الشجعان.. هيّا.. واجهوه، لفّوا الأشرعة على صواريكم، وارفعوا مجاديفكم من ماء الرّبّ العاصف هذا.. ثم خذوا مناضحكم، وأعيدوا له الماء الذي يُلقيه في مراكبكم..

ـ هل أوجّه المركب نحو الشرق يا مولاتي، فننجو بقوة العاصفة ذاتها، ونعود إلى..

ـ لا يا فينيقيل.

قاطعتني بحدّة:

ـ لا تُثر احتقار النوء فيغلبك.. بل سرْ إلى مواجهته بشجاعة، فيحترمك.. هيا وجّه المركب إلى قلب العاصفة، لا تُدرْ لها ظهرك، كي لا تذروك كالقشّ، وتنثر روحك كالغبار.. هيا يا فينيفيل يا فارسي.. لتكن ندّاً للنّوء، ومبارزاً كفئاً للبحر..

....

أيقظني مُكبّر الصوت في سفينتنا مُعلناً وصولنا بيروت، خفق قلبي بشدّة، حتى كاد يثقب صدري، ويطير إليها.. حاولتُ دوزنته، فسمعتُه يُعاتبني:

(كيف تريدني أن أهدأ، وأنا في بيروت.. على مرمى شهقتين من الجنّة..؟!)

بحثتُ له عن سبعين عذراً، فكيف لقلبي الدّائخ عشقاً، ألّا يرتمي في حضنها، إذا كان (إيل) نفسه قد نزل يُبارك سحرها، ويشدّ على أيدي مَنْ احتشدوا تضامناً معنا..!

تلألأت الأعلام، والرايات، والعيون، وراحت الكاميرا تصوّر كلّ ما يقع تحت بصرها الشّغوف.. بينما قاطعت شفق انهماكي في العمل، لتسألني:

ـ ماذا حدث مع سيليا بعد العاصفة..؟

همستُ، وقد أشرق الرضى على ملامحي:

ـ هل اشتقتِ إليها..؟

ـ أنا قلقة عليها، فمنذ الأمس لم أسمع عنها خبراً، وقد كانت في خطر..!

ـ الآن أصبحتِ من أبطال الحكاية حقاً..

ضحكت، وهي تقول باحتفاليّة:

ـ لأني صدّقتها، أليس كذلك..؟

ـ وهل تظنين أنها قصة خياليّة..؟

ـ أحببتُها حتى لو كانت من أساطير الجنّ..

عانقتها بحب، وأنا أقول مغتبطاً:

أتعرفين حبيبتي.. كنت أظن أنّ سيليا وأنت وأنا نُشكّل رؤوس مُثلّث متساوي الأضلاع.. أما الآن فعندي يقينٌ أن رؤوس المُثلّث قد أكلت أضلاعه، والتقت جميعها لتُشكّل نقطة واحدة..

هزجتْ بإعجاب:

ـ الله.. الله..! ما كلّ هذا يا فينيقيل..؟! أظن أني سأحسد نفسي عليك بعد قليل..!

....

رمتنا العاصفة على أرضٍ بكر، لم تعرف أقدام البشر من قبل.. تلفّتت ملكتنا حولها مُستطلعة.. ثم تنهّدت بارتياح، وقالت:

ـ هيّا أيها الرجال، لنقرّب لإيل قرباناً، ونهرق تحت قدميه نبيذاً سورياً، ونرفع له صلوات الشكر لنجاتنا..

وفي لحظةٍ واحدة تحوّل المكان خليّة نحلٍ، تضجّ بالحياة، حيث انهمك كل فردٍ منّا بعملٍ يُشبهه.. بينما دنا منّا وعلٌ كبيرٌ، تشمّمنا واحداً، واحداً ثم هزّ قرنيه الجميلين، وغادر إلى إناثه، يقودهنّ بين الصخور والسنديان..

ـ هل أصطاده، لنتقرّب به إلى إيل..؟

سألها أحد البحّارة، فأجابته بحزم:

ـ لا.. لا.. ألا ترى كم هو جميل..؟!

ـ إذاً سأبحث عن تيسٍ جبليّ.

قال البحّار، ومضى مُختفياً في الدغل.

ـ تعال يا فينيقيل، اجلس إلى جواري.

هرعت إليها بعدما أحضرتُ الفاكهة والنّبيذ، كانت تتّكئ على جذع شجرةٍ شمّاء، تُعابثها نُسيماتٌ شفيفة، تمسح العرق عن وجهها، مُتسلّلةً إلى روحها ببرودةٍ لذيذة..

أشرتُ لأحد البحّارة أن يُحضر قيثارة الملكة، فالوقت الآن أثمن من أن يُبدّر ولو بكلمة..

....

أقلعت السفن من بيروت صافرةً بحبور، مُحتفلةً بمتضامنين جُددٍ باتوا الآن بيننا..

ـ تعال لنجلس يا فينيقيل، فقد تعبتُ من الوقوف..

ـ نعم حبيبتي.

أجبتها، وأنا أحاول إيقاف الكاميرا التي استمرّت بالتصوير رغماً عني، فغطّيتُ الشّاشة بكفّي، مخافة أن تراها.. فقد كانت تنزّ من دم هؤلاء المتضامنين..

ـ يا إلهي..! لماذا كلّ هذا الدم..؟ أنكون مُقبلين على موتٍ جماعيّ..؟ وهل ستتكرّر مجزرة (مرمرة)..؟ لا.. لا.. لابد أن كاميراي قد خرفتْ.. فالأشياء أيضاً تهرم، وتشيخ..!

ـ تعال حبيبي، واترك التصوير الآن، فهذا الفرنسي يودّ التعرف عليك.

ـ البرفسور ميشيل أستاذ التاريخ في السوربون.

ـ تشرفنا برفسور ميشيل.

ـ تشرّفنا مسيو..

أجبتُه بحنقٍ، حاولتُ كظمه بقدرِ ما أستطيع:

ـ لا تنادني (مسيو).. فأنا لا أحبّ هذا اللّقب، ولا أتداوله..

قال بنصف النَزق، ونصف الدبلوماسية:

ـ لكنك فرنسي على ما أعلم سيد فينيقيل..!

ـ لستُ فرنسياً سيدي إلا على الورق، أنا بقيّة بحار فينيقي نـ..

قاطعني مبتسماً:

ـ واسمك.. هل له علاقة بانتمائك..؟ فأنا لم أسمع به في بلادنا..

ـ لكلّ منّا اسم يختاره أبواه، لكنه وفي لحظةٍ خارجة عن قوانين الزمن، قد يكتشف أن اسمه لا يُشبهه، عندئذٍ يصبح من واجبه تجاه نفسه أن يختار اسماً، يُعمّد به روحه، لتبقى حيّةً.. وأنا اخترت ما يناسبني، لذلك أرجو احترام مشيئتي.

طقطقت الكاميرا مُستنكرةً نزقي.. وكأنها تقول:

ـ إنه فرنسيّ طيب، جاء متضامناً معكم.. فلمَ كل هذه الثورة ضدّه..؟

خلعتُها من عنقي، وتنفستُ بعمق، وأنا أقول بصوتٍ عالٍ، وكأنّما لأنشر بعض الحبور في عروقي:

ـ نحن الآن قبالة الساحل الفلسطيني..

استنشقتُ هواء فلسطين الرّخي، وأنا أستمع باهتمام إلى ما يقوله البرفسور بدبلوماسيته العالية:

ـ أفهمك سيدي.. وأنا مثلك أنتمي إلى هذا المكان، بناءً على ما قاله المستشرق (أندريه باروت): (لكلّ إنسان مُتحضّر وطنان، وطنه الحالي، وسوريا).

وتابع وهو يشير بيده إلى مساحة واسعة:

ـ أرأيت.. أنا أيضا أشعر أن سوريا وطني..

ـ شعورك جميل يا سيدي، لكنه مُجرّد شعور بالانتماء الثقافي..! أما أنا فأنتمي إلى هذه البلاد روحاً ودماً وثقافة، لذلك أغضب كلّما حاول أحدهم خدش جذوري دون أن يعلم مُحدّثي سبب فوراني.. فاعذرني يا سيدي..

أرسلتْ حبيبتي أصابعها الحانية في تلافيف شعري التي ملّحها البحر.. وقد تباطأت سفننا، بانتظار تدخل دوليّ مع إسرائيل للسّماح لنا بدخول مياهنا الإقليمية الفلسطينية.. وتابعت أصابعها رحلتها إلى لحيتي كنسيم المتوسط الطريّ، وهي تهمس، بعدما تركنا البرفسور لغزلنا، وذهب لينضمّ إلى مجموعةٍ أخرى:

ـ أنت مسكون بالتاريخ يا فينيقيل.. تحبّ، وتكره بوحيه فقط.. لقد ظلمتَ البرفسور.. فهو ليس عدواً.. هو شخص نبيل جاء يتضامن معنا.

....

عادت سيليا للتّو من حمّامها، وجلست أمام المتوسط الشرقيّ، بفستانٍ يلتصق على جسدها كالحنان العتيق.. يبدو أنها تتعمّد ألّا تُجفّف نفسها، وكأنّها تُدرك مساحة العذوبة التي تنشرها حولها الأنثى المُضمّخة بعطر الماء..! طرتُ إليها على أجنحة العشق، وهمست:

ـ من أوحى لك أن تُعرّي الأصيل في ساقيك..؟!

ـ اقترب يا فينيقيل..

نادتني بحب.. وهي تراني أقف على مرمى نظرةِ وَلهٍ منها..

هرعتُ إليها، وبادرتُها بلهفة:

ـ لو أن مولاتي تحافظ على نفسها قليلاً، فمازال جميع هؤلاء الفينيق بحاجتك..

ضحكتْ مهرجانَ وردٍ جوريّ، وانتبهت فجأةً إلى نفسها، فسترتْ بجسدها العاجيّ

ما انكشف من فتنة فستانها.. ضحك المتوسط، وهو يغمز للشمس كي تتبعه إلى مخدع المساء..!

....

ـ تقول السيدة: إنك بارع بالتصوير..

ـ هذه مهنتي مسيو ميشيل.

كنتُ أحاول أن تكون إجاباتي على البرفسور مُقتضبة، ولم أرغب بالعودة للحوار معه، لولا أنه عاد لدعوتنا إلى طاولته بإلحاح، وقبل أن أسأله عن السيدة التي تُشاطره المكان، قال مبتسماً:

ـ السيدة ماريانا، برفسورة في الهندسة الوراثية.

وضحك، وهو ينفخ صدره كبراً، وكأنه يقدّم لي هدية ثمينة.. نهضتُ لأرحّب بها، بينما سبقني، وعرّف بي:

ـ السيد فينيقيل.. فرنسي من مرسيليا، وهذه زوجه السيدة شفق من فلسطين.

ـ غريب مسيو.. فرنسي وليس أشقر..؟**!** أنت أسمر كزوجك تماماً..**!**

ـ نعم سيدة ماريانا.. فنحن ننتمي إلى جذرٍ واحد..

ـ كيف ذلك..؟

سألتني باستغراب، فسالت على لساني مُرافعة، لا أعرف كيف أكبحها:

ـ أنا حفيد ملّاح فينيقي، رافق الكاهنة سيليا التي نذرت نفسها لتعليم سكان الغرب كيف يأكلون، ويلبسون، ومنْ صُلبِ ذاك البحار ورفاقه جاء شعبنا..

قاطعتني السيدة بابتسامتها الواسعة:

ـ عفواً سيدي.. لكننا لو أعدنا الفرنسيين جميعاً إلى أصولهم القديمة، لما بقي هناك فرنسيّ واحد.. لكن.. أتقصد أن تقول أنكم (فايكنغ) الشرق الذين احتلوا فرنسا، مثلما فعل (فايكنغ) الشمال بإنكلترا..؟

ـ لا.. سيدة ماريانا.. نحن لا نشبه الفايكنغ أبداً..

ـ جميعهم متشابهون سيدي، فأجدادك الفينيقيون مثل أجدادي الفايكنغ شعوب تعرف كيف تقود المراكب، وكيف تغزو..**!**

ـ أجل سيدتي.. الفينيقيون، والفايكنغ بحّارة حاذقون.. أمّا أنهم متشابهون، فهذا ما لا أوافقك عليه، فأجدادي قدّموا للكون القيثارة، والقلم.. وأجدادك أهدوه الرمح والحربة.**!** أجدادي علّموا الشعوب التي خالطوها الفرح، وتساقي أنخاب النبيذ، وأجدادك الفايكنغ علّموهم الحزن، وتساقي أنخاب الدم..**!** وإذا كنتِ في شكٍّ ممّا أقول، اسألي صديقك البرفسور ميشيل..

هزّ البرفسور غليونه موافقاً، ثم جمد رأسه كفزّاعة، فاجأها الذئب في ثلج منتصف الليل..**!**

....

المساء السمح يتدفق على مراكب سيليا، كملاءةٍ رخيّةٍ موشّاة بأقراص شهد..

ـ أرأيتَ يا فينيقيل.. البحر يفتح لنا صدره بحبّ..

ـ نعم سيدتي.. إنه هادئ الآن كعاشقٍ مخمور، يشرع حضنه لحبيبه..

ولم أكمل عبارتي حتى عاد المطر الناعس يغسل مراكبنا.. حزيناً وبطيئاً كالغربة.. فأضفتُ لها همساً:

ـ دعينا نرجع يا مولاتي، لقد أوغلنا بعيداً في هذا اليمّ، وهؤلاء البحارة لابد أنهم اشتاقوا لأحضان زوجاتهم.

أسكتتني إشارة من أصابعها:

ـ انظر فينيقيل.. انظر إلى الأفق الغربيّ.

ـ لا أرى شيئاً مولاتي.

ـ إذاً اسمع بأذنيك.. إنها طيور القطرس، جاءت لتدلّنا على برٍّ آخر..

صمتُّ مُذعناً، دون أن أسمع، أو أرى شيئاً.. وفجأةً صرخ بحارٌ، لينتشلني من ذهولي:

ـ الصخور.. إنها تحت القارب يا مولاتي.

ـ ألم أقل لك..؟ إنه القطرس جاء ليأخذنا إلى برٍّ آخر..

قالت ذلك بهمس الواثق، قبل أن تأمر البحّارة:

ـ هيّا يا رجال، سنرسو على البرّ المقبل.

ورفّ سربٌ من القطرس فوق المركب، حتى أن أحد تلك الطيور صفّق بجناحيه قرب أذنيّ مباشرةً.. وزعق كأنه يسخر من قلّة خبرتي، زارقاً كل ما في أحشائه.. فتلوّثَ البحر الفينيقي بشماتةِ طير..

....

توقف النسيم فوق رؤوسنا تماماً، كأنه تجمّد..

ـ باردٌ هذا المساء، أليس كذلك حبيبي..؟

ـ نعم حبيبتي.. هل تريدين النزول إلى القمرة..؟

ـ لا.. لا أريد مغادرة هذا المساء الصاحي..!

ـ إذاً سأجلب لك دثاراً.

أجابتني، وهي تُكوّر نفسها في حضني، كجنينٍ عاشق:

ـ لا تفعل شيئاً، ولا تغادرني..

قاطعتها الإنكليزية، التي فوجئنا بها تقف وراءنا:

ـ هيه.. أنتما أيها الأسمران، تعالا لنسهر معاً، فالليل مازال في بدايته.

ونهضنا معاً، كأننا نستجيب لإرادة قلبٍ واحد..

وسطع صوت القبطان التركي، كدخول (الجاز) على صمت (الأوركسترا):

ـ أيها العربيان، تعالا، لنسهر، فقد توقفت السفن، وأمامنا ليلٌ طويل من الانتظار..

قال ذلك بلغته العربية التي لم يعدْ أحدٌ يتحدّث بها.. وضحكتُ في سرّي، بينما كانت شفق تجذبني من كمّي كعادتها، فتبعتها منصاعاً كالعادة، وأنا أقول بحبور:

ـ أمر عينيك يا الحبيبة..

....

الإسرائيليون يرفضون السّماح لأسطولنا بالدخول إلى المياه الفلسطينية، وزوارقهم الحربية تدور حولنا، وتدسّ قرون استشعارها تحت جلودنا..!

ـ أرجو ألّا تُخيفكم هذه الزوارق..

قال القبطان التركي ذلك، وهو يعتذر عن تناول النّبيذ الذي قدّمه البرفسور:

سألتُه مستنكراً:

ـ ما علاقتهم بنا.. ونحن مازلنا في المياه الدولية..؟!

أجاب (بوب) القاضي الأمريكي المتقاعد الذي لم يفارقنا مذ تعرّفنا عليه في بيروت:

ـ من حقّهم مراقبة مياههم الإقليمية..!

ابتلعت الإنكليزية شهقتها، ووافقته على الفور، وبعد هنيهةٍ استفاق الفرنسي من ذهوله، ووافق هو الآخر، على أن ذلك من أبسط حقوقهم..

أراد القبطان كسر حدّة الموقف، فقال مقهقهاً بسخرية:

ـ لقد وافق جميع أعضاء حلف شمال الأطلسي على الرأي الأمريكي كالعادة..!

لكنّ خفّة ظلّه السياسية لم تُفرح أحداً.. بل زادت الامتعاض على مختلف الوجوه.. حتى أنّ صديقة شفق اليابانية، أدارت لنا ظهر ابتسامتها الحائرة، وسألتها عمّا يحدث، فشرحت لها وجهة نظرها دون مواربة:

ـ أظنّ أن السيد بوب، ساهم في تمويل هذه الرّحلة، كدعاية لمصانع حليب الأطفال التي يُديرها..! ولا يعنيه إن وصلنا غزّة، أو لم نصل..!

ثم زفرت بألم، وأردفت، وهي تمسح وجوه الحاضرين بنظراتٍ مريرة:

ـ أما باقي أعضاء الجوقة، فلا أدري لماذا جاؤوا معنا، وما الهدف الخفيّ الذي حملهم لتجشّم عناء السفر، إن كانوا يعتقدون أن من حقّ الإسرائيليين أن يمنعونا من دخول غزة..؟!

تلعثمت أعين المُؤيّدين للرّأي الأمريكيّ، واحتاروا أين يذهبون بخزي نظراتهم.. لكنّ حالهم هذه لم تمنع شفق من متابعة نزفها في وجوههم:

ـ قل لي أيّها البرفسور، وأنتَ سيد بوب، وأنتِ سيدتي، لماذا أنتم هنا..؟ هل تظنون أننا في رحلة ترفيهيّة، أو سياحيّة..؟!

ـ عفواً سيدتي..

قال بوب مُبرّراً:

ـ يبدو أنك لم تفهمي قصدي، أو.. أو ربّما أنا لم أُحسن التّعبير..

سدّدت نظراتها إلى عينيه، وقالت بهدوء الواثق:

ـ أتدري سيد بوب..؟ لدينا مثلٌ شعبيّ يقول: (الكلمة الصّادقة ناطقة)، أتعرف معنى هذا الكلام...؟ معناه أنّ الكلمة العفويّة، التي ينطقها الإنسان دون تفكّر، تُعبّر بصدقٍ عمّا يعتقده.. لذلك فالمشكلة في قناعتك الضّعيفة بالهدف الذي جئنا من أجله..!

حاول الرجل أن يقول شيئاً، ينتشله من بؤرة الخزي التي غاص فيها، لكنه لم يستطع، وتعلّقت نظراته على البرفسور الفرنسي علّه يُنجده بكلمة.. لكنّ الأخير تشاغل عن الموضوع بمعابثة غليونه الفارغ.. أمّا القبطان الذي جرحه ماسمع، فقد أطلق ضحكةً مجّانيّة، راح ينثرها في أرجاء المكان، ليُخفّف لهيب التّوتر.. ثم اقترب منّي، وقال، وهو يضع يده على كتفي بودّ:

ـ سيد فينيقيل.. هؤلاء الشبّان يريدون التّعرف عليك..

وأشار بيده إلى مجموعة من الشباب والشابات الذين يقفون على مرمى بصرنا، فاقبلوا نحونا، تسبقهم بسماتهم الدّافئة.. وكان بينهم فتاة مُحجّبة، لم تستطع إخفاء استغرابها من سفور شفق، عندما عرفت أنها فلسطينية..!

حضنتها شفق مُرحّبةً، وهي تقول:

ـ أنا مسيحيّة يا أختي.

ـ مسيحيّة من فلسطين..؟

تساءلت الفتاة التركية برطانة.. فأجابتها شفق:

ـ نعم.. ولماذا تستغربين صديقتي..؟ فالمسيح نفسه فلسطينيّ..! بل إنه شهيدٌ فلسطينيّ، قتله أولئك الذين نذهب الآن لكسر حصارهم عن أحفاده.. أطفال غزة..!

ـ آآآآآ.. فهمت..

قالت التركية، وهي تشدّ على يدها، وتعانقها بقوة، بينما فتحت الإنكليزية فمها دهشةً، قبل أن تقول بغضب:

ـ لا.. المسيح ليس فلسطينياً.. بل هو يهوديّ.

ـ هل تعتقدين أيتها السيدة أن المسيح يهوديّ..؟! ألم يؤمن المسيح بمسيحيته إذاً..؟

قهقه غليون البرفسور، وهتف:

ـ فكرة جديدة، ورائعة..! المسيح ليس مسيحياً..!!

وازدادت قهقهته ضراوةً، حتى طار غليونه المرح من يده، وسقط في البحر.. نظر نحوه نظرةً أخيرة، كأنه يودّعه، ثم قال، وكأنه يُطمئننا:

ـ لا عليكم.. معي غيره.. ولكن أليست فكرةً رائعة لكتابٍ جديد..؟!

وتابع قهقهته، وترديد العبارة التي أثارته:

ـ المسيح ليس مسيحياً.. المسيح ليس مسيحياً..!!

....

دثّرنا الليل بألق عتمته، ونام..

والبحّارة كذلك ناموا، بعدما أخرجوا مجاديفهم من الماء، واحتضنوها كعشيقاتهم، تاركين لسيدهم المتوسط، أن يفعل بهم ما يشاء.. وحدي مع النوتيّ الذي أوكلته بالدّفة بقينا متيقظين مع النسيم الشرقي الحنون.. الذي مضى يدفعنا نحو الغرب، كما تريد سيليا، المركب يتمايل فوق الموج كأراجيح أولاد الفينيق، التي أكاد أسمع صوت اهتزازها، ونسيم الليل يئزّ بين حبالها المعلّقة على سنديان، وأرز بلادنا.. فجأةً سمعتُ صوتاً آخر غير الهواء، سمعتُ هسيس جسدٍ إلى جواري، يناديني:

ـ بابا.. بابا..

كانت هذه ابنتنا التي جلبناها معنا من أحد السواحل، مسحتُ الرطوبة عن وجهها، ضممتها بحنان.. ومضيتُ لآخذ مكان النوتيّ على الدقّة، وآمره بالذهاب إلى النوم.

وعند الضّحى بدأت عشرات الأقدام الفينيقية تطأ شاطئ جزيرةٍ جديدة، عذراء كسابقتها.. غير أنّها هفهافةٌ مغناج..! وكأنّ أصابع الآلهة قد هذّبت جنونها..!

....

أسطولنا مازال يرسو قبالة الشاطئ الفلسطينيي القريب البعيد.. بينما تُحوّم حولنا الزوارق الحربية الإسرائيلية، كقطيعٍ من الذئاب المسعورة.. مُخلّفةً وراءها آثلاماً عميقة على صفحة البحر الرّجراجة.. كخدوشٍ طويلةٍ مائلة على لوح زجاج..

وحبيبتي مُصرّةٌ على مُشاركة الجميع جلساتهم الحواريّة، التي لابدّ لي من الاعتراف، بأنها صارت ممتعة..

أضمّ جسدها الخافق بين ذراعيّ، لتنضوي تحت جناحي، وأتابع تبجّحات البرفسور الفرنسيّ بأمجادهم القومية.. لأنهم ـ كما يقول ـ أوّل أمّةٍ ابتدعت مفهوم الحرية، ومنحته للعالم.. قاطعه الأمريكي بتكشيرةٍ، لا تُشبه الابتسام، وهو يقول:

ـ لا يا سيد.. الحرية مفهومٌ أمريكيّ، أكّدهُ بيان الاستقلال كحقٍّ لكل البشر..

فتحت امرأتي عينيها استنكاراً، وسألتني:

ـ أليست الحرية جزءاً من الحبّ..؟!

ضحكتُ، وأنا أمسح رطوبة الملح عن التموّجات الخمريّة لشعرها، وهمستُ:

ـ ربما.. أعني: قد يكون العكس صحيحاً أيضاً..!

وبما أن القبطان التركي، لم يستطع سماع شيءٍ من همسنا ـ رغم اجتهاده ـ فقد اكتفى بابتسامةٍ دبلوماسيّةٍ طويلة، قبل أن يسألني:

ـ هل تريد السيدة نارجيلة..؟

وأرسل بعض الدخان في الفضاء، إثر قرقرةٍ عالية.. كأنّه يأمر نارجيلته العامرة أن تنطق بفخر، وتقول من خلال نقيقها:

(أنا ابتكارٌ تركيّ).

شكرته شفق بتلويحة يدها، بينما رسمت الإنكليزية على وجهها ابتسامةً من النمط الفيكتوري، وقالت:

ـ جميعكم تتقاسمون هذه الدّرّة التي نسميها: (الحرية)، ويدّعي كلّ منكم أنها صُنّعت في بلاده، مُتناسين أنها جوهرة التاج الملكي البريطانيّ.. فنحن أعرق مُصنّعي الديمقراطية في العالم..

أجابها القبطان الذي بات الآن لصيقاً بنا:

ـ نعم سيدتي.. لكن لابد لي من تذكيرك، بأن ديمقراطيتكم تُخرمش قليلاً..

وعلتْ نبرة صوته، بعدما تخلّص من لزوجة سخريته:

ـ أنتم ديمقراطيون فقط تحت قبّة برلمانكم.. فهل تستطيعين إحصاء ضحايا مدافعكم عبر العالم..؟!

وهنا تدخّلت اليابانيّة بكلّ تأدّبها، وركاكة إنكليزيتها، وكأنها تُتابع كلام القبطان:

ـ الإنكليز كانوا يُجنّدون شعوب مستعمراتهم ضد بعضهم، ولا يمكن لأحد أن ينسى شعارهم في جميع حروبهم:

(سنقاتل حتى آخر هنديّ..) فانتصاراتهم العظيمة ما هي إلا ثمار دماء الهنود..!

ضحك الجميع بمرارة، ماعدا الإنكليزية، التي لاذت بالأمريكي، وكأنها تحتمي به.. فنفخ صدره، وكأنه يستعدّ لدخول الحلبة.. ولم أميّز أن تلك إحدى عاداتهم القومية، إلا عندما ذكّرني ريشه المنفوش بالصقور آكلة الجيف، التي مازالوا يعتبرونها طيورهم الوطنية..! تنحنح، ثم أطلق نفثةً كثيفة من (سيكاره)، وقال:

ـ ألا تلاحظون أيها السادة أنكم جميعاً تنتمون إلى أممٍ تعشق الدم، وتغمس ورودها البلاستيكية في أنهاره المسفوكة، لتصبغها بالحمرة المُشتهاة في عيد (الفالنتاين)..؟

وأردف، مُشيراً بعينه صوب الفرنسيّ:

ـ والبعض منكم يقتل رغم رهافته.. لاحبّاً بالدماء.. لكنه يحتاج الدم الطازج ليُركّب العطور المُثيرة جنسيّاً.. إيماناً منه بأهمية الإثارة للتناسل.. وضرورة التناسل لاستمرار الحياة..! فهو يقتل إذاً من أجل الحياة..! ولا ينسى أن يعتذر للقتلى، ويتباكى عليهم..!

أصابت غمزاته اللاذعة عظام الفرنسيّ، فاستعر الغضب في نقيّه، وهدر:

ـ كفاك هزءاً بنا أيها المُستشعر الذي لا أحتاج دليلاً على سخفه أكثر من إعادة كلماته المُزوقة، السّاذجة.. ثم.. أنتم أيها الأمريكيون آخر من يحقّ له التنظير في الحرية.. ألم تعتبروا وجودكم مرهوناً بإبادة الملايين..؟ أم أنك تظنّ أيّها المُتبجّح أن العالم برمّته لا يحفظ شعاركم الوحشيّ: (الهنديّ الوحيد الجيّد، هو الهنديّ الميت)؟ يُقهقه الأمريكي بسخرية، وهو يقول:

ـ نعم.. معك حقّ بكل شيء، إلا بتسفيه خيالي، والغضّ من شأن بنات أفكاري التي كنتُ أنوي تزويجهنّ من فحولة أفكارك.. لكن يبدو أنه: (ما في نصيب) على رأي أصدقائنا العرب..!

ويلتفت نحوي، ويتابع:

ـ خفّف قليلاً من غلواء ثورتك أيها البرفسور، وتعلّم الصبر من صديقك الفرنسيّ الذي لم يغضب لعزّته القومية كما فعلتَ..!

اعتمل السخط في صدري، فضربتُ الطاولة الخشبية بقبضتي، وقبل أن أنبس بكلمة، عاجلني الأمريكي قائلاً، كأنما بضربةٍ استباقيّة:

ـ لا أُنكر أن الفرنسيين لهم فضلٌ علينا، فقد أهدونا تمثال الحرية العظيم.. لكنّ لإنسانيتهم رائحة مُميّزة.. تشمّمها كلّ مزكومٍ وقع بين أيدي بحّارتهم.. فقد كانوا يُعرّضون طرائدهم البشرية لبخار القار المغليّ، ثم يغرسون في جلودهم الناضجة ريش الإوزّ البريّ، ويقذفون بهم أحياءً في الأفران، وهم يقولون لهم: حان الآن وقت الطيران، أيها الإوزّ المهاجر..!

تتلوّى اليابانية استنكاراً، وتضع يدها على فمها، كأنّها ستتقيّأ.. فيقهقه الأمريكي المزهوّ بنصره، وهو يقول:

ـ لاتمتعضي كثيراً سيدتي.. فاليابانيون لم يكونوا أحنّ من الفرنسيين، فقد كانوا يسلخون البشر، ليصنعوا من جلودهم مفارش مُطرّزة لطاولاتهم، أرأيتِ فنّاً أرقى

من هذا..؟! تعالي، تعالي، لا تهربي قبل أن أُريكِ فصلاً آخر، يمكنكِ أن تُفاخري به بين الأمم.. فأجدادك كانوا فنّانين في الحب أيضاً، فأثناء احتلالهم للصين كانت أجمل هدية يرسلها ضابط يابانيّ لحبيبته، هي فروة رأس امرأة صينيّة، مصنوعة على شكل مروحة يد..!

سدّت اليابانية أذنيها بيديها، وراحت تعدو مُبتعدةً، وهي تُبربر باستنكار..! بينما تابع الأمريكي سخريته الحامضة:

ـ ويقولون إن اللغة اليابانية فقيرة بكلمات الحب..! وتحزن الفتيات بسبب هذا الشحّ.. ربما يكنّ على حقّ، لكنّ هدايا عشاقهنّ الثمينة تفي بالغرض، فما حاجتهنّ للكلام..؟!

اسودّت وجوه الجميع خزياً، وبدت على ملامحهم علائم الخجل من كلّ هذا التراث الإنساني..! فالفرنسيّ راح يهزّ فراغ غليونه بحركاتٍ لا إراديّة، وهو يشيح ببصره بعيداً، والإنكليزية أخفت وجهها بيديها.. نظرتُ إلى شفق فرأيتها تدخن النارجيلة التي وصلت إلى يدها في غفلةٍ مني وربما منها أيضاً.. كانت تسحب، وتنفخ بانفعالٍ حزين، فتملأ فضاءنا الرجيم بسحب الدخان الأبيض.. حدّقتْ فيّ بألم، وقالت بين سحبتين:

ـ فينيقيل.. أظنّك تعرف قصصاً أخرى عن فروات الرؤوس البشرية، مارأيك أن تُتحفنا بها، لعلّنا نزداد انتشاءً، ونتداوى من موتنا بموتٍ آخر..!

ابتلعت مرارة ريقي، وهمستُ لنفسي:

ـ يبدو أن شفق قد سكرت بأسوء خمرةٍ عتّقها البشر، وتودّ أن تصحو من سكرها بسكرٍ آخر، أكثر إيلاماً..! وكأني بها تقول: (وداوني بالتي كانت هي الدّاء).

حدّقتُ في عينيّ الأمريكي المزهو بانتصاره على اليابانية، وقلت:

ـ بمناسبة سلخ جلود البشر، وفروات رؤوسهم، أحيطك علماً يا سيدي أنّ هذا القبح اختراع أمريكي..! ولك أن تُضيفه إلى قائمة اختراعاتكم، وتفخر به..

فقد كان أحد جنرالاتكم يمنح جنوده مكافآتٍ كبيرة ثمناً لفروات رؤوس الهنود.. فتصوّر ماذا سيفعل هؤلاء الجنود، الذين لم يكتفوا بسلخ الرؤوس، بل أضافوا إلى فضائلهم مأثرةً لم يُسبقوا إليها، فقد كانوا يستأصلون فروج نساء الهنود الحمر، ويزيّنون سروج خيولهم بها.. ليستمروا باغتصابهنّ موتى، بعد أن اغتصبوهن أحياءً..!

كشّرت الإنكليزية، وابتعدت عن الأمريكي مُشمئزّة.. أما الفرنسي فراح يضحك مفتخراً، ويهزّ غليونه في وجه الأمريكي، وكأنه يقول له:

ـ ها قد جاء من يعرفكم..

والتفت إليّ مؤيّداً:

ـ أجل يا صديقي.. أيها الدّيك الفرنسي.. ذكّرهم بتاريخهم..

ابتسمتُ، متصنّعاً التواضع.. وحانت منّي التفاتة إلى القبطان، فرأيته يتناول

خرطوم النارجيلة من يد امرأتي، دون إذنٍ من (إتكيت) وعيه، وراح يأخذ أنفاساً متلاحقة، وهو يرتعد، كأنه يريد أن يستأثر بكل الهواء في رئتيه..

وبعد قليل بدأ السّاهرون بالانصراف، يحمل كلّ منهم إلى فراشه إرثاً ثقيلاً، سيقضّ مضجعه.. وبقيتُ أنا وشفق، والليل..

حضنتُ رأسها، وأنا أقهقه:

ـ أرأيتِ كيف انهزموا جميعاً..؟

ـ وكانوا يُخفون أيديهم خجلاً من الدماء القديمة العالقة عليها.. حتى اليابانية لم تجرؤ على مدّ يدها لتأخذ مروحتها..! لكنْ.. ألم تقسو عليهم..؟

ـ لا حبيبتي.. صدّقيني لم أعرض أمامهم إلا نُتفاً من أمجادهم العريقة..!

ـ هل أنت متعب..؟

ـ لا .. لكن إن كنتِ تريدين النوم فهيّا..

ـ ليس الآن حبيبي.. انظر، انظر.

وأشارت إلى القمر، وقد تكبّد السماء مُتشحاً بالشفق الفلسطيني..

ـ انظر يا فينيقيل كم يُشبه برتقال فلسطين.. ألم يُذكّرك بوجهك الآخر..؟

ضحكتُ جذلاً، وأدركتُ أنها تستدرجني لإكمال سرد حكاية سيليا والفينيقيل..

....

سيليا عاشقةٌ للموسيقى، وكأنها تؤمن أنها ناموس الطبيعة.. تعزف فتنثال النغمات من أناملها فراخَ نجوم..! والبحر يجثو أمامها مُنصتاً، بينما تطامنت أمواجه الرّضيّة، مُسلمةً ظهورها لمراكبنا..!

ـ كفى يا سيليا سحراً.. فالنجوم تتبع قيثارتك، وغناءك..

ـ كم مرّةً سافرتَ مع سيليا..؟!

ـ آ.. عشر مرات، أو مئة، أو.. أقصد كثيراً..

انتبهتُ من شرودي، واستدركتُ:

ـ لا.. لا.. إنها مجرّد حكاية عن الأسلاف..

ـ ماهذه الحكاية، التي سمعتُها منك ألف مرة..؟ وكلّ مرةٍ تُضيف عليها ما يجعلها أجمل، وأغرب، ويجعلني أغار من تلك السيليا، أتُراك تفعل مع حكايتها، كما تفعل كاميراك عند تصوير أي حدث..؟!

وانتبهتُ إلى نفسي، فهجستُ:(يبدو أنني أوغلتُ في قصة سيليا أكثر مما ينبغي).

....

هذه ليلتنا الثالثة قبالة المياه الفلسطينية، ومازلنا مُحاصرين بالزوارق الإسرائيلية، التي تدور حولنا، كأنها أسماك قرشٍ جائعة.. لكننا نستمرّ منتظرين أن يتدخّل أولو الأيدي البيضاء، وليس ثمة انتظارٍ دون قلق..

ـ هل سيأتي أصدقاؤنا هذا المساء..؟

سألتُها مُتمنيّاً حضورهم، فأجابتني:

ـ لستُ أدري..!

وصمتتْ قليلاً قبل أن تستدرك متسائلةً:

ـ لماذا كنتَ عنيفاً ليلة أمس..؟!

ـ ضحكتُ، وأنا أعابث شعرها، وأقول:

ـ أنسيتِ أنّكِ أنتِ مَنْ شجّعني..؟

ـ لا أنكر ذلك، فقد كان بي عطشٌ لتقشير سبع طبقاتٍ عن وجوههم، لأتأكّد أنهم جاؤوا مؤيدين لنا بالفعل.. أتدري يا فينيقيل..؟ لا أعرف لماذا لم أعد أثق بشيء.

ـ معكِ حقّ حبيبتي.. وأنا مثلك.. فمن يعرف التاريخ، وخفاياه، يخاف أن يختبئ له مصّاصُ دمٍ تحت كلّ موطئ قدم، وبين كل شهيقٍ وزفير..! وقد يضطرّ إلى طلب البطاقة الشخصية من ظلّه ذاته..!

ـ لكني أتمنّى أن يأتوا الآن..

ولم تكد تُنهي عبارتها، حتى ظهر الفرنسي، يهزّ غليونه أمامه كعنان حصان..! انحنى، ليُقبّل يدها، وهو يقول:

ـ مساء الخير..

وسألنا بتأدّبٍ إن كنّا نسمح له بمشاركتنا..

سألته شفق عن البرفسورة الإنكليزية، فأجابها:

ـ إنها تضع اللمسات الأخيرة على زينتها، وستأتي حالاً.

لكن القبطان سبقها، وفاجأني بإلقاء تحيّة المساء في أذني مباشرةً،

ثم التفتَ إلى شفق، ورشقها بابتسامته الودودة:

ـ لا شك أن السيدة تريد التدخين..

ثم انهمك دون أن ينتظر جوابها بتجهيز النارجيلة، وكأنما صار بينهما تواطؤ روحيّ بشأنها، أو كأنه خبيرٌ بذبذبات النفوس العاشقة لاختراع أجداده.. بعد لحظاتٍ جاءت اليابانية، ونثرتْ أمامنا باقةً من الانحناءات..

ثم حضر الأمريكي، والإنكليزية معاً.. بينما تأخر الصحفي الإسباني الذي انضمّ إلى مجموعتنا مؤخراً، فقلتُ في نفسي:

ـ يبدو أنه ورث الأنفة من أسلافه العرب..

لكنه حضر أخيراً، ومعه صبيّةٌ شقراء، عرّفنا عليها بفخر:

ـ صديقتي كريستين الألمانية، حدّثتها عنكم، فأحبّتْ الانضمام إليكم.

حيّتنا الألمانية، وصافحتنا واحداً، واحداً قبل أن تجلس.. كانت ترتدي فستاناً قصيراً، وساقين ممشوقتين، وتُسوّر عنقها (بفولارٍ أخضر).

حدّقتُ فيها لحظاتٍ، فاشتعلت بين جوانحي نيرانٌ عتيقة.. وإذ بالقلب يطير إليها، ويرتمي في حضنها هاتفاً:

(كريستين.. يا صديقتي الحبيبة..)

لكنّي حاولتُ الاختباء وراء سؤالٍ بليدٍ، ريثما أستعيد توازني، فتلعثمتُ:

- ألم نتقابل سابقاً آنسة كريستين..؟!

نظرتْ إليّ مليّاً، ثمّ نهضت فجأةً، وكأنّها تذكّرت في هذه اللحظة بالذات كلّ ما كان بيننا.. حضنتني بشراسة حنانها الأثير، وهي تهتف باحتفاليّة:

- فينيقيل.. حبيبي.. اشتقتُ إليك..

حاولتُ أن أقول لها شيئاً، لكنْ هيهات..! فالمراجل تغلي في داخلي، وتسلقُ عروقي.. كيف سأتحمّل كلّ هذا..؟! شفق عن يساري، وكريستين عن يميني.. الماضي يُمسك بيميني، والحاضر بيساري.. وكلٌّ يشدّني إليه.. وأنا.. أين أنا منهما.. الروح بين يديّ شفق، والقلب والدم.. والذاكرة مشغولةٌ بأنفاس كريستين التي تتعربش على عنقي الآن.. بي رغبةٌ، لا بل لهفةٌ حرّى لهصر أضلاعها، والاندماج بها.. لكن خوفي على مشاعر شفق يلجمني، فتتدلّى يدايَ مخزيتين..!

لا أدري كم من العمر مرّ قبل أن يُفكّ الاشتباك المؤلم اللذيذ بيني وبين كريستين..

سحبتُ الإسباني جانباً، هرباً من ذاتي، ومن عينيّ شفق، وكأني بتُّ فنّاناً في الهرب، ورميتُ في وجهه سؤالاً لم يخطر على باله، سؤالاً أردتُه حجراً، أحّكُّ به جلد الرّوح الذي تأكله الغيرة، وأختبئ وراءه من الفوضى التي تجتاحني:

- هل ضاجعتها..؟

- لا، فهي مازالت تتمنّع بحجّة أنّها عذراء..!

- ألم تُخبرك عن عمرها..؟

- إنها في الثلاثين.

قلتُ في نفسي، والفرح يُدغدغني:

- غبيّ.. كيف تُصدّق أن ألمانية تبقى عذراء حتى الثلاثين..؟!

ثم أمرتُه بنزق:

- اجلس.

فجلس مُرتبكاً إلى جوار كريستين، وقد وضعت فخذيها فوق بعضهما كأطباقٍ شهيّة، وكأنها تسأل:

ـ هل من جائعٍ، فأطعمه..؟

فقد سألتني نفس السؤال يوم التقيتُها أوّل مرّة في باريس.. ولا أدري لماذا تذكرتُ يوم ذاك ثورة مدن الصّفيح في الضواحي، وتخيّلتُ أنها آتيةٌ لدعم احتجاجات العاطلين عن الحياة هناك..! ربما (فولارها) الأخضر هو من أوحى لي بذلك..!

أجل.. دار بي الزمن راجعاً إلى الوراء بسرعةٍ مُذهلة عندما رأيتها، وتوقّف عند تلك الثورات القديمة، يوم كانت الضّواحي تحترق باحتجاجاتٍ عارمة، والشرطة الفرنسية تفتك بالثائرين، وقد شطّ بي الخيال لأرى نفسي أُجري معهم لقاءاتٍ مُصوّرة..

ـ هل تريد أن أرسمك يا سيّد..؟

أعادني السؤال إلى الحاضر، انتشلني من بئر الماضي مُبلّلاً بالرّهبة والاستنكار..! غير أني لم أجبها، فأعادت سؤالها بتصميم:

ـ هل ترغب أن أرسمك يا سيدي..؟

هزّني طلبها وإصرارها.. نفض عنّي دوراً أثيراً كنتُ أتمنّى أن ألعبه.. تأمّلتها حتى القهقهة، وفكّرتُ: كيف تحتمل هذا البرد..؟! فساقاها الطويلتان عاريتان، وتنورة الجينز القصيرة التي ترتديها كليلةٌ، وعاجزةٌ عن منحها الدفء، أو حتى بعض خفره.. شعرها ينسدل على كتفيها المُبرقشين بلون الصيف المنصرم..

ـ أنا ألمانية من حزب الخضر، واسمي كريستين..

قالت، وهي تُجهّز أدواتها، وكأنها اعتبرت ذهولي أمامها إشعاراً بالموافقة..

ـ كم تريدين ثمن الرسم..؟

ـ أيّ شيءٍ تدفعه، ولكن ليس أقلّ من فرنك.

وضحكتْ بشهيّة.. كأنّها أمّةٌ كاملةٌ من الفرح.. ثم أضافت:

ـ أريد أن أجمع كلفة سفري، وإقامتي من رسم الغرباء أمثالك.. فالفرنسيون مُتعجرفون، ولا يقبلون أن يرسمهم أحدٌ من غير جلدتهم.. فهم يعتقدون أنهم أكثر أهل الأرض فنّاً وذوقاً..

وأضافت الدّهشة إلى عينيها بحاراً أخرى، حين أكّدتُ لها أني فرنسيّ..!

ـ حقاً يا سيدي.. بهذا اللون..؟!

سألني استغرابها، وكأن الله حرّم اللون الأسمر على الأوربيين جميعاً..

ـ هل أريك تذكرتي..؟

ـ لا.. لا.. صدّقتُك.. ولكنْ.. من أين لك بهذا اللون..؟! وهل يوجد الكثير منكم في فرنسا..؟ هل أنت من سكّان الضواحي..؟

يا إلهي.. قلتُ في نفسي.. كم هي ثرثارة..؟ فهي ترشّ الأسئلة برشاقةٍ كأناملها التي تتراكض ببراعةٍ على ورق الرسم..!

ـ انظر، لقد انتهيت.

ومالت عليّ بنهديها وشعرها، لتُريني صورتي بقلم الفحم، وهي تقول:

ـ لك لحية جذّابة، وتجاعيد عريقة..!

ابتسمتُ برضا، ورجوتُها أن تجلس معي قليلاً، وأنا أمدحها بين جدٍّ وهزل:

ـ الألمان أمّة شقراء، وذكيّة..!

جلست بذات الطريقة ـ التي يبدو أنها لا تُغيّرها ـ واضعةً ساقيها العاريتين فوق بعضهما، كأقراص شهدٍ طازجة، تدعوك للأكل..

ـ أنا جائعة جداً، ألستَ جائعاً..؟

وتذكرتُ أني لم آكل منذ الصباح، فطلبت منها الانتظار، لأحضر وجبتين ساخنتين.

قالت:

ـ دون لحومات إذا سمحت. فأنا خضراء جداً..

هرعتُ إلى أوّل مطعم، وأحضرتُ البطاطا المقلية، والجبن الأصفر، والجعة التي فارت مع عذوبة ضحكتها، حين فتحتها:

ـ أنتم الفرنسيون تحبّون الشمبانيا أكثر، فلماذا أحضرت الجعة..؟

ـ لأجلكِ سأعشق الجعة، بل سأحبّ هتلر، إنْ كان يُرضيك هذا..!

ضحكت بسخاءٍ، وسألتني:

ـ ألديك مكان نبيتُ فيه، وسأحسم ثمن المبيت من أجرة الرّسم..؟!

ـ آ.. نسيت أن أعطيكِ، خذي، وناولتها عشر فرنكات.

ـ إنه مبلغ كبير، فهل بقي معك ما يكفيك..؟

ـ لا عليكِ.

وعدتُ لأنهمك في طعامي الأخضر، كما أرادته هذه الألمانية التي بدأت تُلقي على مسامعي أبلغ خطابٍ سياسيّ في هجاء العجرفة الفرنسية، حتى أنها جعلتني عاجزاً عن كبح جماح غضبي، فقاطعتها:

ـ هل ذهبتِ إلى شاطئ النورماندي..؟

ـ ولماذا عليّ أن أفعل، ولديكم أجمل السواحل على المتوسط في الجنوب..؟!

ـ نعم.. ولكن على شاطئ النورماندي، توجد بعض التّحف التي تركها أسلافك، وإذا أردتِ أريك إياها.

ـ أرغب بذلك، ولكن..

ـ لا تتهرّبي، فالأوقات دائماً مناسبة.. عندما نريد..

ووجدتُني أجلس قبالتها داخل مقطورةٍ من الدرجة الثانية، في قطار الصّباح التّالي، الذاهب إلى الشمال، بعد أن قضينا ليلةً خضراء في غرفتي الباريسية.

ـ أنت خطيرٌ يا فينيقيل، لقد أغويتني بالأمس، وها أنا أتبعك اليوم إلى هنا..!

قالت ممازحةً، وهي تُخاصرني بقوة، وكأنها تودّ أن تدسّ نفسها تحت ذراعي طلباً للدفء.. ورغم أني ألبستها كنزةً صوفية، فقد شعرتُ أنها باردة كالأطلسيّ الهائج، الذي استقبلنا بهوائه الثلجيّ، فخلعتُ معطفي، ولففتها بحنانٍ، أستغرب أن أشعر به نحو امرأةٍ ألمانية.. فنحن أمتان عدوتان..

ـ أليس كذلك يا كريستين..؟

سألتها، فأجابتني باستغراب:

ـ ماذا..؟!

ظننتُ أنها سمعت أفكاري، فأكملتُ:

ـ بالتأكيد نحن من أمّتين عدوتين تماماً.. انظري يا سيدتي كم من الحديد والإسمنت تركتم لنا..!

وأشرتُ إلى التحصينات الحربية، والحواجز الحديدية التي تركها النازيون هنا.

ـ أتعرفين كم من الدّماء أُريقت على هذا الشاطئ..؟!

كان الساحل فارغاً إلا من هدير الأطلسي، وأصوات النوارس الحادّة، التي جعلتني بالكاد أسمع صرخة كريستين، وهي تكاد تهوي مُتألّمةً:

ـ لقد جُرح إبهامي.

قالت، وهي تلوي شفتها من الألم.

لكنّي ضحكتُ منها، حين نبشتُ الخوذة التي تعثّرتْ بها:

ـ إنها ألمانية يا عزيزتي.. فدمكِ في رقبة جدّك..

ورحتُ أمسح دماءها بمنديلٍ ورقيّ، وأنا أحمل ساقها البضّة، التي حوّلها بردُ المحيط باقة ورد جوريّ..!

ـ أنت تُؤلمني، أصابعك قويّة مثل كمّاشة..

وانتبهتُ إلى أنني شردتُ، وأنا أفكّر أننا لو نبشنا في الرمل قليلاً، فقد نجد جثة صاحب الخوذة مدفونةً هناك..!

ـ هل هو ألماني حقاً..؟

ـ من..؟

ـ صاحب الخوذة..؟

ـ ما الفرق إن كان ألمانياً أو إنكليزياً، أو حتى أمريكياً..؟ فجميعهم مرّوا من هنا، وتركوا وراءهم الكثير من الجثث..؟!!

وكأنها اقتنعت بأنّ ثمّة جثّةٍ من عرقها النّقيّ في الرّمل، فرفضت مرافقتي قبل أن تمنح ابن جلدتها صلاةً غير مُتوقعة..!

ـ لا تنسي أن تطلبي منه شيئاً لراحة نفسك.. فلا شكّ أنه كان قدّيساً مثلك، قبل أن يقتل العشرات من الفرنسيين..!

ـ كم أنت بغيض..

قالت، بعدما عصرتْ صلواتها على تربته الغرّاء..!

ـ هيّا تعالي، ولن تُصلّي كلّما وجدتِ أثراً لأحد أجدادك، وإلّا سنُمضي عمرنا هنا.

ـ أنا بردانة، فهل تستطيع أن تُشعل ناراً..؟!

أجبتُها مُحتاراً:

ـ هل أشعل لكِ الماء والرّمل..؟!

لكنّي أشفقت عليها، عندما رأيتها ترتعد غضباً وبرداً.. فقلت:

مارأيك أن نأوي إلى بعض خنادقكم، فربما وجدنا هناك شيئاً نُشعله..؟

كانت التّحصينات الألمانية تُدير ظهرها السّميكة للمحيط، ومداخلها فاغرة، ومظلمة، تصفر فيها الرّياح..

ـ لا أريد فربما وجدنا فيها أحداً..!

ـ أتخافين الأشباح..؟

ـ لا.. ولكن ربما مايزال بعضهم مختبئاً فيها..!

ضحكتُ منها، بل أشفقتُ على هشاشتها..!

ـ لا تخافي فلن نجد أحداً، اللهمّ إلا بعض الهياكل العظمية، التي قد ترغبين برسمها، أو أخذ بعضها للذكرى..!

وانتبهتُ إلى أنها كانت ترتعد فزعاً، وحين أفلتُّ ساعدها، لأمسح دموعها، انهارت جالسة على الرمل، وهي تصرخ:

ـ أنت تُخيفني أيّها الفرنسيّ..!

فرحتُ أمسح دموعَ فزعها، وأتملّى عينيها باتساع زرقتهما، وزبدهما الذي يغلي بين الأهداب الشقر.. فلم أتمالك نفسي، وما عدتُ قادراً على مقاومة كلّ هذا السّحر الباكي.. احتضنتُها بحنوّ، فاسترسلت تنشج على صدري، عاصفةً تلو الأخرى.. وأنفاسها الحارّة تلفح عنقي.. وحين هدأتْ، قلتُ لها:

ـ حسناً عزيزتي.. انتظري هنا، سأذهب أنا، فقد أجد ما يمكن إشعاله.

تركتها تجلس القرفصاء، ودخلتُ واحداً من تلك التحصينات على ضوء ولّاعتي، لكني لم أجد شيئاً، دخلتُ النّفق الثاني، فتعثرتُ ببقايا صندوق ذخيرةٍ مهترئ، حملته

بغبطة، ورميته أمامها، ثم بدأتُ بتكسيره، وإشعاله.. وبعد لحظاتٍ بدأت النار تبعث مويجاتٍ لذيذة من الدّفء في جسدها الذي رأيته يتلألأ ورداً مُشتهى، فرحتُ ألثم عبقه السّخيّ.. وأحسستُ به يذوب في قلبي منّاً وسلوى.. فهمست في أذن رغبتها:

ـ تعالي نفترش هذا المعطف في الداخل..

ـ بل تعال نصعد سطح هذا البناء، ونفعلها هناك في وجه المحيط ..!

ـ ستبردين..

ـ أنا لا أبرد في الحبّ..!

وفعلناها..! كانت أمّتانا العدوتان تُمارسان الحبّ بكلّ شغفه، وبشماتةٍ عظيمة بهشاشة الصمود النّازيّ تحت عجيزة كريستين المُندّاة..! ثم وقفنا مزهوّين ومنتصرين معاً.. جذبتني من يدي، وهي تهتف:

ـ تعال حبيبي فقد انتهت الحرب..!

ركضنا معاً، ارتمينا بين يدي المحيط، وراحت تتقلّب عاريةً في الزّبد، عارضةً براعتها في السّباحة، وحين خرجتْ، مدّت يدها نحوي بقارورة مُحكمة الإغلاق، وهي تقول:

ـ انظر ماذا وجدت..

تفحّصتُها، فوجدتُ فيها ورقةً ملفوفةً بعناية، قلتُ، وأنا أفتحها:

ـ لابد أن غريباً قهرته الوحشة، فبعث بها، لعلّ أحداً يلتقطها، ويُجيبه، فيستأنس.

رمقتني باسمةً، وهي تُحاول لملمة أواخر الدفء عن الجمرات الذابلات..!

سحبتُ الورقة من قمقمها، فتحتها، وقرأتُ:

(من أطفال فرنسا إلى الأطفال الألمان:

قولوا لآبائكم أن يكفّوا عن قتلنا، فنحن نريد أن نكبر مثلكم بسلام.

(١٩٤٤)

نظرتُ إليها، فرأيت الدموع تتأرجح على أهدابها، تنهّدتْ بأسى، وقالتْ:

ـ وصلت الرّسالة أخيراً يا عزيزي..

ـ وصلت، ولكن بعد فوات الأوان..

قلتُ، وأنا أضمّ رأسها مُواسياً، وأُلقي بالزّجاجة جانباً.

ـ لا.. دعها يا فينيقيل.. سأحتفظ بها.

والتقطتْ الرّسالة، لتُعيدها إلى مكانها، وهي تقول:

ـ أشكرك، لأنك جئت بي إلى هنا..

وأغلقتْ المشهد التراجيدي بقبلةٍ مديدةٍ خضراء.

....

اكتمل نصاب جلستنا، واضطررنا لضمّ طاولةٍ أخرى إلى طاولتنا، التي راح الجميع يُغدق عليها بعض ما حمله من خيرات بلاده القوميّة.. وكانت كريستين تُوزّع ابتساماتها على الجميع، لكنها تخصّني بحصّة إضافية من سحر نظراتها، مما أثار غيرة شفق، فابتعدت عني، وراحت ترمقني بعبوس..

ـ هل هذه زوجك يا فينيقيل..؟

ـ أجلْ.. هذه حبيبتي شفق، أبرع من كتب القصة القصيرة جداً.. والأهم من كلّ ذلك، أنّها مناضلة من صميم فلسطين..

بدأت ضبابة العبوس بالتّلاشي عن مُحيّاها، وتلونت قسماتها ببسمة رضا، وهي تصافح الألمانية:

ـ تشرّفتُ بمعرفتك.

ـ مرحباً.. أنا أيضاً سعيدة بمعرفتك.. تليقينَ به.. ولكن لا تنسي أننا شريكتان فيه..!

عاد الغيظ إلى قسمات شفق، لكنها استطاعت كظم غيرتها، وربما إخفاءها وراء سحب الدخان المتصاعدة من نارجيلتها..

ـ حقاً أنت كاتبة سيدة شفق..؟ لماذا لا تقرئين علينا بعض قصصك..؟

قالت الإنكليزية مبتسمةً.. فحاولت شفق الاعتذار، لكن الأمريكي أكّد على ضرورة سماع بعض القصص، ليتعرّف على الأدب العربي، الذي قلّما وصلهم.. حتى القبطان التركي، أصرّ بين رشفتين من عصيره على السّماع، وأضاف تمسيدةً أخرى لشاربيه العريقين..

لم تعد تستطيع التملّص، نظرتُ إليها مشجعاً، وقلت:

ـ اقرئي حبيبتي، هيّا.

والتفتُّ إلى الحاضرين، وأنا أقول:

ـ أعتقد أن الجميع يعرفون الإنكليزية.

أومأ الحضور بالموافقة، وبدأت تقرأ بهدوءٍ، كي أستطيع اللحاق بها في الترجمة:

(توقفت الحرب بهدنةٍ غير مُعلنة.. ولم يبق في القرية إلا بقايا جثثٍ محترقةٍ، ودخانٍ ورماد، وصبيّةٍ ثكلى، انتهت لتوّها من دفن لعبتها السمراء، تحت جذع شجرةٍ جرحتها الشّظايا..!

سوّت الصبيّة القبر.. مسّدته مُستعينةً بدموع الشجرة الجريحة.. كي لا يهتدي الأعداء إليه، فينبشوه.. نفضتْ يديها، مسحتْهما بلون ثوبها المخطوف.. وراحت تبحث عن شيءٍ تأكله، فهي تعلم أن البيت يموت فيه الفأر جوعاً بعد الحصار الطويل..! دخلت قدمها الصغيرة في خوذةٍ مُسودّة.. نفضتها عنها، وتابعت السّير بين الأشلاء.. تتعثر بشلوِ ساقٍ هنا، وبساعدٍ هناك..! يُطالعها رأسٌ بشعرٍ مُنتصبٍ مُحنّى بالنّجيع.. وعينين هلعتين تنظران بتساؤلٍ مُرٍّ صوب السماء..! تتوقّف أمامه خاشعةً..! وأقدامها الحيرى ترقص تحت جسدها الهزيل:

ـ إنه مصطفى ابن جيراننا.. نعم.. إنه هو..! فهذه الأشلاء حقيقية إذاً..! وليست صوراً كتلك التي تعودّتُ رؤيتها على التلفاز..!!

اجتاحتها رعدةٌ، تُشبه الزلزال الذي ضرب القرى المجاورة قبل أيام، ومحا معالمها.. وتتالت الهزّات عنيفةً، حارّةً، وغريبة..! وجسدها يختلج، وينتفض كطيرٍ يتجرّع سكرات الموت بعد ذبحه..! تلمّست جسمها بفزعٍ، لتكتشف أنها كبرت كثيراً.. أكثر مما تحتمل..! وتتخيّل..! انحنتْ على الأرض المزدحمة بالموت، تناولت خوذةً مرميّةً قرب رأسٍ بلا معالم.. رفعتها أمام عينيها كمرآةٍ.. راعها أن

ترى فيها ملامح عجوزٍ، ابيضّ شعرها، واسودّت أسنانها..! مشت أصابعها المعروقة على وجهها مستطلعةً.. فصرخت مفزوعةً:

ـ أهذه أنا..؟ وهل هذا وجهي الذي كان طفلاً منذ لحظات..؟! يا ويلي.. لقد شخثُ أكثر من جدتي التي عاصرت عشرات الحروب..!

انحنت على الرأس المقطوع، ذرفت الكثير من روحها، فوق الشعر المنتصب أعمدةً ترفع سقف الخراب..!! وبدأت تُلملم الخوذ المتناثرة، لتحملها إلى بقايا بيتها.. نظّفت الخوذ من اللحم، والشعر، وبعض أعينٍ مازالت عالقةً بها.. ثم رتّبتها بعنايةٍ، كما كانت والدتها تفعل بأثاث عرسها..! تأملت الخوذة الأولى، طبطبت على حوافها، وهمست:

ـ أنتِ تصلحين للورد.. فأنا أشمّ منكِ رائحة القرنفل.. وأظنّ أنكِ كنتِ لرأس عاشق.. يحلم بانتهاء الحرب ليعود إلى حبيبته بوردة..!

ملأت الخوذة بالتراب المُندّى بالدم، ونثرت فيها بذور القرنفل الأحمر.. وفي الثانية نسجت عشّاً لعصافير تراها قادمةً من بعيد..! أما الثالثة، فقد جمعت فيها شظايا القمر، لتتحوّل شمعداناً ملتهباً، يُبدّد وحشة ما تبقى من عمرها.. تأملت الخوذة الرابعة، وهي تُفكّر لها بوظيفةٍ مُجدية.. تذكّرت لعبتها التي وأدتها خوفاً من الموت.. هرعت إليها، نبشت قبرها، وحملتها بين يديها بحنوّ الأمهات، وعادت لتوسّدها سريرها الجديد، وهي تُغنّي لها:

ـ (نامي نامي يا زغيري.. تا نغفا عَ الحصيري..)

غير أنها قطعت أغنيتها، لترفعها من سريرها، وهي تُخاطبها:

ـ تعالي يا طفلتي، أريحي نفسكِ، كي لا تبولي على سريرك..

أجلستها على إحدى الخوذ لحظاتٍ، ثم نظّفتها، ألبستها منامتها، وأعادتها لتغفو في مهدها الفولاذيّ..! غفتْ، وهي تهزّ الخوذة (المهد) لدميتها.. وتُهدهدها بصوتٍ رخيم:

- (بكرا بيّك جايي.. حامل سلّة التفاح..)

وحين جاء الصبح، طرّزت الغارة جسدها بالرصاص..! فغفتْ..

غفتْ تماماً..! ومازالت إحدى يديها على المهد، والأخرى تُمسك المقلاع..!

استيقظت الدمية من رقادها، غادرت سريرها، أخذت مقلاع أمها المُخضّب بدمها، قبّلته، ثم ألقمته حجراً، لوّحته بكلّ قوة المفجوع.. ورمته بعيداً صوب السّماء..!)

صفق الجميع إعجاباً.. واغرورقت أعين البعض بالدموع..

- إنها قصة من واقعنا..

قالت شفق، وأردفت:

- لكن زوجي أضاف عليها لمساته الشاعرية أثناء الترجمة..

- واقعية حقاً..؟

سألها الفرنسي بإعجاب، وهو ينحني، ويُقبّل يدها مُهنّئاً:

- لو كان بلزاك حياً، لشعر بالغيرة منك سيدتي..!

ضحكت كريستين كعادتها، وغمزتني بخبث، ففهمتُ أنها تريد أن تقول:

- أرأيت شقيقك الفرنسي كم هو متعصّب.. كأنه يرى بلزاك أعظم كاتب في الكون، لمجرّد أنه فرنسي..

ضحكتُ في سرّي، وأنا أدير بصري صوب الأمريكي المُحدّق في العتم البعيد من فوق رأس شفق مباشرةً، وكأنه نسي عادة التسلّط الأمريكية.. كما نسي سيكاره ليترمّد بين أصابعه الفاخرة..!

- مارأيك سيدي..؟

سألتُه، فأفاق من شروده، واقترب من شفق، ليسألها:

ـ هل تسمحين لي..؟

وقبّلها، قبل أن يسمح لها بالرّفض، أو القبول..

ـ أنت رائعة سيدتي..!

نظرتْ نحوي بحياءٍ شرقيّ كريم، وكأنها تعتذر عن قُبلةٍ لم تكن تُريدها..! قاطعتُ خفرها اللذيذ، ونهضتُ معتذراً من الجميع، بعد أن أكّدتُ لهم أن جذر القصة أقسى ممّا سمعوه، لكنّ شفق تعتمد التّكثيف، وتكتب بالممحاة ـ كما يقول لها النّقاد ـ ومضيتُ إلى مؤخرة الباخرة، لكمتُ الهواء بقبضتي، وبدأتُ أركض..

ـ توقفْ قليلاً..

ـ كريستين..؟!

هتفتُ، وارتميتُ على صدرها، وأنا أبكي كطفل..!

ـ لا عليك فينيقيل.. إنها مجرّد قصة..!

ابتلعتُ نصال دموعي، وفكّرتُ:(قصة..؟! هكذا تظنين.. فمن أين لك أن تعلمي أن بطلة القصة، هي ابنتي التي رأت القمر يتشظى، فهرمت حزناً.. لأنه كان رفيقها.. آهٍ يا طفلتي.. كيف أنسى يوم جئتني ملهوفةً، تشهقين بأسى:

ـ أين ذهب القمر يا أبي.. فهو لم يمش معي اليوم..؟! قل له أن يعود، فأنا أحبه..

ضحكت دموعي يومئذٍ، فالطفلة تظنّ والدها على كلّ شيءٍ قدير..!

أعدك يا صغيرتي أنني سأعيد إنجاب القمر الذي لملمتِ شظاياه العالقة بالأشلاء، وحاولتِ رتق أوصاله بعروق الضحايا..!)

وفي هذه اللحظة مرق زورقٌ إسرائيلي كالسهم عند حافّة السفينة، فأعادني إلى كريستين التي مازالت تحضنني مُستمتعةً.. دون أن يخطر في بال شوقها، أني كنت بعيداً عنها مسافة أعمار.. بلّلنا رذاذ الماء، فقلت، وأنا أنفض الماء عنها:

ـ اللعنة عليهم.. إنهم سبب كل هذا الخراب..

ـ اهدأ، اهدأ يا فينيقيل.. فبالنهاية تبقى فرنسياً، حتى لو تزوجتَ عشر فلسطينيات، ونحن جئنا للتضامن معهم وحسب.. لكننا لسنا منهم.. نحن أوربيون يا رجل

ما بك..؟! وهم..

ـ شرقيون.. متخلفون.. هيّا قوليها، ولا تفكّري فيَّ..

دنتْ منّي، حتى كاد جسدها يلتصق بجسدي، ومدّت أصابعها تمسح العرق والرّذاذ عن وجهي، أبعدتُ يدها بنزقٍ، وأنا أنزف:

ـ ما يحدث في العالم فظيع.. فأنتم الألمان مازلتم تدفعون تعويضات الهولوكست المزعومة لإسرائيل.. تخيّلي كم تقتل مساعداتكم هذه من أطفال فلسطين..!

تركتها، ومشيتُ أجرجر جراحي، فتبعتني كالظل.. وتأرجح الليل، والملح عندما مرّ زورقٌ إسرائيلي آخر، أقرب من سابقه، وبلّل السفينة بالماء، وبضجيج محرّكه المسعور.. فالتفتُّ إليها، رافعاً قبضتي في وجهها:

ـ أرأيتِ..؟ هذا نتاجكم.. أنتم من فعل كل هذا.. أنتم الألمان، والفرنسيون، الإنكليز، والأميركان.. و.. و.. من جميع دعاة الحرية، وحقوق الإنسان..

وتابعتُ نزفي المرير، غير عابئ بما أسبّبهُ لها من جراح:

ـ قد يكون هذا الزورق الإسرائيلي من صناعتكم الألمانية الفاخرة.. وربما كتبتم على مدافعه: (هديّة من الأطفال الألمان إلى أطفال غزة)..!

أمسكتْ قبضتي بقسوة، وقالت:

ـ اهدأ يا مجنون.. اهدأ.. فأنا لستُ مسؤولةً عن سياسة ألمانيا، أم أنك نسيت أنّ حزب الخضر الذي أنتمي له معارضٌ للمؤسسة السياسية الألمانية، ويرفض بشدة سباق التسلّح..؟ ما بك يا صديقي.. هل فقدت صوابك..؟! ألسنا هنا من أجل السّلام..؟!

حدقتُ في وجهها.. ورغم العتمة رأيتُ زرقة عينيها الواسعتين كمحيطين

يغتسلان بالدمع قرب صدري.. فلم أتمالك نفسي، ضممتها بشراسة، لكنها

تملّصتْ من بين ذراعيّ، فهمستُ لها، وأنا أتمسّك بيدها:

ـ لا تتركيني الآن كريستين..

ـ لا عليك حبيبي.. اذهب إلى أصدقائك، وسألحق بك بعد قليل.

ـ ماذا قلتِ..؟!

سألتُها بلهفة..

ـ قلتُ سآتي بعد قليل.

ـ قبل ذلك كريستين.. هل قلتِ حبيبي..؟ أم أنني أستمع إلى قرقرات أوهامي..؟!

ـ ليست أوهاماً.. فأنت تسكنني، مذ ذهبنا إلى النورماندي.. أتذكر..؟!

ـ أيعقل أن ينسى مثلي أنثى مثلكِ..؟! ولكنك الآن مرتبطة بالإسباني أليس كذلك..؟!

ضحكتْ، فغطّت ضحكتها هدير الأسى:

ـ إنه مجردُ رفيقِ سفر.. وأنا أحاول أن أجعله أخضر مثلي..!

ـ وتنامين معه في قمرةٍ واحدة.. دون أن تسمحي له بمضاجعتك..؟

ـ ألم يخبرك أنني مازات عذراء..! ألستُ عذراء يافينيقيل..؟!

ـ نعم.. وسيدة العذراوات جميعاً..! لكنك تلعبين بالفتى..

ـ وهل تريدني أن أضاجع إسبانياً..؟ لو كانوا يستحقون النوم مع ألمانية، لما سمحوا للعرب باحتلال بلادهم ثمانية قرون..! ولكن لا تقلق.. فلن أمنحه نفسي إلا إذا استطاع أن يصبح أخضر تماماً..

هززتُ رأسي أسفاً، وقلتُ، وأنا أُفلتُ يدها:

ـ لن تبرؤوا أبداً من عجرفتكم.. سواء كانت ألوانكم خضراء أو حمراء.. فالتعصّب، والتعالي مازالا يحكمانكم..!

حين عدتُ إلى الطاولة، لم أجد القبطان التركي، قالوا: إنهم طلبوه في قمرة القيادة، ورأيتُ الجميع يغمرون شفق بالإعجاب.. ويطلبون إليها أن تقرأ لهم شيئاً لآخر..

ـ أسمعتَ حبيبي..؟ السيد (بوب) يريد أن يُوقع معي معي عقداً لترجمة قصصي، وطباعتها في أمريكا..

قالت شفق، وهي تضغط على يدي بحبور..

وقبل أن أجيبها فاجأني البروفسور بقوله:

ـ أخبرتنا السيدة بقناعتك المطلقة بأنك سوريّ سيدي، فهل هذا صحيح..؟!

ـ كم مرّةً عليّ أن أؤكد ذلك لتقتنع سيادتك..؟ أم أنك تظنّ أني أمزح..؟

تدخّلت الإنكليزية، كأنما لتحلّ القضية العالقة:

ـ قد تكون هذه حالة نفسيّة.. وربما يكون الموضوع أخطر..! فأنا أعرف أشخاصاً يزعمون أن أرواحهم جاءت من ماضٍ سحيق، وأمكنةٍ أخرى غير البلاد التي ينتمون لها.. ألم تسمع بمثل ذلك سيد بوب..؟!

قهقه الأمريكي الذي خمّن أنها تطلب نجدته، وقال:

ـ إنها حالة من الـ.. الهلوسة.. أو أنه مرضٌ شرقيّ..!

أجابته اليابانية بكل دماثتها:

ـ لا.. يا سيدي.. هذا الشعور ليس مرضاً.. إنه حقيقي تماماً، فالروح تنتقل من جسدٍ إلى آخر، مهما تباعدت المسافات بينهما..! ولا علاقة لها بموت الجسد الذي يحملها..! ألم تسمعوا بالتقمّص..؟!

قاطعتهم جميعاً، قبل أن يُوغلوا في نقاشٍ إشكاليّ، لا طائل منه:

ـ المسألة ليست كذلك أيها السادة.. المسألة أني..

قاطعني الإسباني بحماسٍ، كأنما لينتشلني من ورطتي:

ـ أنا أيضاً أحلم، وتنتابني حالاتٌ أشعر خلالها أن جدّي ليس هو جدّي..!!

ضحك البعض ساخراً من رواية الإسباني، وشرد آخرون يفكرون في حلّ لهذه الإشكالية، بينما هزّ الأمريكي رأسه أسفاً، وفكّر:

ـ هلوسات.. الشرقُ مسكونٌ بهلوساتٍ، وجنونٍ مُعدٍ أيضاً..!

ـ دعونا من ذلك.

قالت كريستين، وهي تفتح لفافةً من الورق، كانت قد أحضرتها من قمرتها، وأردفت باحتفاليّة مُحبّبة:

ـ ماريأيكم لو عرضتُ عليكم بعض الرسومات التي قد تدهشكم..؟

وفجأةً ارتجّتْ السفينة بشدةٍ أوقعت الأوراق من يدها، وتناثرت على سطح السفينة، فسارع بعض الفتية لالتقاطها، تبادلنا نظرات الاستغراب متسائلين: إن كان الإسرائيليون قد سمحوا لنا بالإبحار إلى غزة..؟!

جاءنا القبطان راكضاً، كأنه التقط حيرتنا، فجاء يُخلّصنا منها:

ـ الإسرائيليون يطلبون منا الذهاب أكثر في عرض البحر..

ـ ولكننا في المياه الدولية، ولا يحقّ لهم..

قال البرفسور، وهو ينقر بغليونه على الطاولة..

فأمسكتُ يده، لأوقف النّقر الذي صرتُ أتحسس منه، وهمستُ لنفسي بغضب:

ـ لم يكن هذا رأيك، ورأي زملائك في البداية..

ثم رفعتُ صوتي في وجهه:

ـ تقول: لا يحقّ لهم أن يأمرونا بشيء.. أنت واهم.. فهؤلاء يرون أنفسهم فوق الحق..! وإن شاؤوا يمدّون مياههم الإقليمية، وسوف توافق أمريكا على ذلك، وتتبعها دولكم جميعاً..

ورسمتُ بإشارتي دائرةً واسعة، لتشمل الجميع دون استثناء..

ـ أنت تُبالغ يا سيد..؟!

قالت الإنكليزية، قبل أن تُغيّر الحديث متوجهةً إلى كريستين:

ـ ولكن دعونا من هذا الآن.. فهل من فرقٍ إنْ وقفنا هنا، أو على مسافة أربعة كيلو متراتٍ أخرى..؟! لقد أرادت السيدة أن تُرينا شيئاً.. أليس كذلك سيدتي..؟

ـ نعم..

أجابتها كريستين، وهي تفتح أوراقها..

ـ ما بالك آنسة كريستين..؟

سألتها شفق، وقد لاحظت الحزن يرتسم على وجهها..

ـ وجدتُ بين الأوراق رسالة، كنتُ قد نسيتها.. سأريكم إياها.. ولكن بعد أن تستمتعوا برسومات السيد فينيقيل.. وسأعرضها عليكم حسب تسلسلها الزمني: وهذه الرسمة الأولى..

ناولتْ أولى الرسومات لشفق، وهي تروي قصة تعارفنا:

ـ لم أنتبه الى الكاميرا المتدلية على صدره، حتى عرضتُ عليه أن أرسمه.. ولم أكن أتوقع منه أكثر من فرنكٍ واحد، لكنه نقدني مبلغاً محترماً، وعشاءً فاخراً.. بل ورسمني دون أن يأخذ مني شيئاً.. وبعد العشاء ذهبنا..

قاطعتُها بارتباك، بعد أن قرصتُها من ساعدها، لتصمت إكراماً لشفق:

ـ في ذلك المساء، كانت مدن الصفيح تشتعل بالثورة، وكانت الحكومة الفرنسية تمارس آخر ابتكارات الديمقراطية على المتظاهرين العُزّل، رأيتُ ذلك بأمّ عيني.. بل وصوّرتُه أيضاً.. وقد توفي الكثيرون جرّاء العنف المفرط..

هزّ البرفسور الفرنسي رأسه مستنكراً، بينما أردفتُ ساهماً:

ـ كانت حرباً عنصرية، وكدتُ أكون أحد ضحاياها بسبب لوني..!

قاطعني البرفسور متضاحكاً بسخريةٍ مالحة:

ـ يبدو أنك عابرٌ للعصور، والقارات أيضاً يا سيدي..!

ثم أمسك لحظاتٍ قبل أن يتوجّه بخطابه للجميع:

ـ انتبهوا أيها السادة: نحن نعيش الآن لحظاتٍ تاريخيّة، ليس لأننا ذاهبون لفكّ الحصار عن غزة، بل لأن بيننا رجلاً طائراً.. معجزة، يعيش في كل زمانٍ ومكان.. فليحرص كلّ منكم على نفسه وتاريخه، وليتشبث إن استطاع بأيّ شيءٍ، يضمن بقاءه على هذه السفينة.. فقد يحمله على جناحيه الخارقين، ويطير به إلى عصرٍ آخر.. وربما يُبتلى بمصيبةٍ، أو يُتهم بالقيام بأعمال لم تخطر في أوهامه..!

غرس الجميع أعينهم فيّ، كأنهم يُفتشون عن إثباتٍ لما قاله البرفسور، ثم ارتدّت نظراتهم إليه طالبةً تفسيراً مقنعاً لآرائه التي لم يعرفوا دوافعها حتى الآن..! تركهم يسبحون في حيرتهم، وسدّد نظراته إلى عينيّ مباشرةً، وهدر غاضباً:

ـ مابك يا سيّد، لماذا لا تجيب..؟ في البداية خلعتَ جلدك الفرنسيّ، ولبستَ جلداً فينيقياً، أردتَ إقناعنا أنه جلدك الحقيقيّ، آمنّا وصدّقنا ـ رغم مرور زمنٍ مديد على رحلات الفينيقيين، ورغم أنه لا يوجد أيّ إثباتٍ على أنك حفيد هؤلاء ـ أمّا أنْ تطلع علينا بقصةٍ جديدة، وتقول إنك شهدتَ ثورة مدن الصفيح في فرنسا، فهذا كثير.. كثير جداً.. ثم تدّعي أنك كتبتَ عنها، وصوّرتها..! متجاهلاً أنها حدثت منذ زمن بعيد.. ماهذا يا سيد..؟ ألا تعتقد أننا أكبر من أن تسخر منّا بهذه الطريقة..؟!

ابتسمتُ بثقة، وقلت:

ـ إنه الخيال يا سيدي.. فعتبك عليه وحده في القصة الثانية.. فأنا لا أعلم لماذا استحضرتُ تلك الثورات عندما التقيتُ كريستين، ونصبتُ نفسي مدافعاً عنها، بل مراسلاً صحفياً يغطي أخبارها، وكأنه يعيشها بالفعل..! ربما أردتُ استمالة الصبيّة، فتخيّلتُ نفسي بطلاً، و(سُقتُ فيها) كنوعٍ من الاستعراض الذي اعتاده الذكور أمام

الإناث..! أما عن قصة انتمائي، فلا أسمح أبداً بالتشكيك فيها، ولا يعنيني إن صدّقتَ أو لم تصدّق.. فقد مللتُ الحديث في هذا الموضوع.

قالت الإنكليزية بنزق:

ـ دعونا من هذه الموضوع الإشكاليّ، ولنعدْ إلى الرسومات.

وتناولت الأوراق من يد شفق، تمعّنت فيها، وقالت بإعجاب:

ـ إنك فنّان حقيقيّ سيد فينيقيل..!

ـ انظري إلى الوجه سيدتي.. إنها أنا..

قالت كريستين بزهو.. وسرى على الوجوه شيءٌ من المرح بتأثير اللوحات،

وما دار حولها من تعليقات.. بينما أقلعت السفينة مبتعدةً بنا في عرض البحر..

ـ مارأيكم بصورة جماعية..؟

سألتنا كريستين بحماس، فوافق الجميع، وضحك الأمريكي، وهو يقول:

ـ سأكون مُمتناً إذا ظهرتُ بجانب السيدة شفق في الرسم..!

ـ غداً.. فعندي ما أحبّ أن ترونه الآن.. إنها رسالة أمضتْ أكثر من نصف قرنٍ في عرض البحر.. وجدتُها أنا والسيد فينيقيل على شاطئ النورماندي..!

قرّبت الورقة، فتحتْها أمامي، وسألتني:

ـ أتذكرها يا فينيقيل..؟

هززتُ رأسي بأسى، بينما قالت مخاطبةً الفرنسي، وهي تُناوله الورقة:

ـ إنها بالفرنسية، وأنت خير من يقرؤها علينا..

تناول الورقة من يدها، نظر فيها، فتبدّلت سحنته فجاةً، وناولها للإنكليزية قائلاً:

ـ أنت أيضاً تعرفين الفرنسية سيدتي..

أخذت الإنكليزية الرسالة، تمعّنت فيها لحظاتٍ، فتغيرت ملامحها هي الأخرى، وناولتها للأمريكي معتذرةً عن قراءتها:

ـ تفضّل سيدي، أنت تعرف الفرنسية أيضاً.. أنا لا أستطيع قراءتها.. فحنجرتي.. أقصد أني سأختنق..

ومسحت عن عينيها آثار الدموع..!

أخذ بوب الرسالة، وبدأ يقرؤها بصوته الأجشّ، الذي راح يرتعش شيئاً فشيئاً:

(من أطفال فرنسا إلى الأطفال الألمان:

قولوا لآبائكم أن يكفّوا عن قتلنا، فنحن نريد أن نكبر مثلكم بسلام..)
ولست أدري كيف نهض الجميع، بأيدٍ متشابكة، ورفعوا الرسالة معاً فوق رؤوسهم.. دون أن يستطيع أحدٌ منهم قول أيّ شيء.. فالغصّة كانت أبلغ من أيّ كلام..!

ـ فلنوقف قتل الأطفال.

قال الأمريكي متحمّساً بعد دقائق من الصمت الجليل..! وأمّنتْ الإنكليزية على قوله:

ـ نعم.. فلنفعل ذلك..

التفتُّ إلى شفق، فرأيتها تُمعن النظر في الرسالة، ثم تتناول قلماً، وتكتب بالعربية:

(من أطفال فلسطين إلى أطفال إسرائيل:

قولوا لآبائكم أن يتوقفوا عن قتلنا، فنحن نحبّ الحياة.. ونريد أن نعيش بسلام.

نيسان ٢٠١٢)

وأجهشتْ في بكاءٍ مرير.. تحوّل مع دموع الجميع رافداً جديداً للمتوسط..!

شرب الجميع نخب الرسالة التي تعهّد الأمريكي بإيصالها إلى أطفال إسرائيل، حتى القبطان التركي الذي لم يشرب من قبل، رفع كأسه عالياً، وشربه دفعةً واحدة.. فأحسستُ لأول مرة أن الدمع والسلام لغتان عالميتان..!

ومرق زورقٌ إسرائيليّ آخر، يجأر معلناً بوقاحة:

(مازلنا هنا، لنمنعكم من الوصول..)

....

رغم موجة الحزن التي أثارتها الرسالة ليلة أمس، فقد عاد الجميع إلى طبائعهم القومية.. حتى أن القبطان لم ينسَ حرصه على تشميع شاربيه بعناية، بعد أن أرسى السفينة على المسافة التي طلبتها إسرائيل..

ـ إنهم يماطلون..

قال، وهو يضع النارجيلة أمام شفق:

ـ تفضلي سيدتي..

وأضاف، دون أن يترك لها وقتاً لتشكره:

ـ أقدّم لك بعض الصديقات، كلّهنّ تركيات، أحببنَ التعرّف إليك: ميرفت، نصرت، شكرت..

وتابع ذكر الأسماء، وهي منهمكة بمصافحتهنّ.. وعندما جاء دور الشباب، لم يكن ثمة فرق لدى القبطان، الذي تابع تعداده:

ـ حكمت، عزت..

واستمرّ يُعدّد الأسماء، بينما تضاحك الفرنسيّ والإنكليزية، وهما يحاولان اللحاق بسيل الأسماء الرنّانة المختومة غالباً بالتاء الساكنة.. لكنها (مبسوطة) على كل حال.. رغم إقامتها الجبريّة في خانة السكون..! الأسماء تتراكض في فضاء السفينة بحثاً عن شخصياتٍ تلبسها.. لأنها صارتْ ضعفَ الأشخاص، أو أكثر..

كتمتْ شفق ضحكتها.. بينما سألته الألمانية بجذلٍ:

ـ هل تعدّد أسماء شبّان مدينتكم جميعاً يا سيدي..؟

فغرق الإسباني بموجة سعالٍ جرّاء الضحك، الذي ظلّ يكتمه، حتى شرق به..

وفجأةً صفر زورقٌ إسرائيليّ صفيراً حادّاً، وجاء أحد معاوني القبطان مسرعاً، ليخبره أن هناك رسالة هامة، وعليه أن يتسلّمها بنفسه، فنهض بوقار القادة، وهو يقول:

ـ سأعود قريباً.

في هذه الأثناء لاحظتُ فولاراً أخضر يُسوّر عنق الإسباني، فاقتربتُ من كريستين، وسألتها، وأنا أشير إليه غامزاً:

ـ هل..؟

فضحكتْ، ولكزتني:

ـ لقد صار أخضر فجر هذا اليوم..

ـ وهل..؟!

ـ لا.. فمازلتُ عذراء..!

ـ مسكين..!

واقتربتُ منه بنيّة المشاكسة، فقاطعتني هرولة القبطان الذي جاءنا راقصاً..

رمقه الأمريكي، وغمغم دون أن يوجّه كلامه لأحد:

ـ لاشكّ أن قبطاننا مايزال سكراناً من تلك الرّشفة التي شربها معنا بالأمس..!

ـ أبشروا يا سادة..

رماها في وجوهنا قنبلةً مضيئة، ابتلعت عتمة الليل، وأردف بمرح:

ـ لقد نجحت وساطة المجتمع الدولي، وسمحت لنا إسرائيل بدخول غزة.. لكن..

قاطعته صيحات التهليل، وعناق الرفاق لبعضهم مُهنّئين بالفرج، وبفكّ إقامتهم الجبريّة.. ولما صاح الجميع، في ختام مهرجان السعادة:

ـ إلى غزة أيها القبطان..

قال بغبطةٍ كابية:

ـ أجل.. سنبحر إلى غزة، لكن.. بعد أن نذهب أولاً إلى ميناء العريش المصريّ للتفتيش.. فهذا هو شرط الإسرائيليين..!

همدت قلوبهم المتحفزة، وانخفض منسوب الفرح إلى درجة مخيفة.. جعلتني أشفق على نفسي وعليهم، فقلتُ محاولاً إدارة الدّفة صوب النصف المليء من الكأس:

ـ لاتبتئسوا يا شباب..! فنحن لم نُمنع تماماً من الوصول إلى غزة، بل تأجّل الموضوع قليلاً.. وعلى كل حال فالرحلة إلى العريش ليست سيئة..!

أيّدني الشبان والشابات ببسماتهم، وعبّر أحدهم باسم أترابه:

ـ نعم سيدي.. وهي فرصة لإطالة عمر صحبتنا الجميلة..!

فردّ عليه النّاطق باسم الكهول، بلهجةٍ مُؤنّبة:

ـ أتظنّ أيّها الشاب أننا في رحلة استجمام..؟!

همستُ لنفسي:

ـ قد يصل الأمر إلى شفير جرفٍ هارٍ.. وربما نسقط في هاوية المشاحنات.. لابدّ إذاً من تحويل المسار بسرعةٍ إسعافية.. فقلت موجهاً كلامي لليابانية:

ـ أرى أن الآنسة تراقب السيد بوب بدهشة، وهو يتفنّن بتقشير سيكاره، أهو الإعجاب آنستي..؟؟

انتبه الجميع، وكأنهم جفلوا من هبوطٍ اضطراريّ مفاجئ.. بينما قالت اليابانية، التي كانت بالفعل تُلاحق ما يفعله الأمريكي بنظراتها الغامضة:

ـ عفواً.. ماذا قلتَ ياسيدي..؟ هل كلّمتني..؟!

ضحكت الجوقة باستغراب.. فقد تأكّد الجميع أن المرأة لم تكن معنا مطلقاً..! وهي بالفعل مأخوذةٌ بما يفعله الرجل..! وقد وقّعتْ على قناعتهم بسؤالها المفاجئ له، وكأنها لم تره يدخن من قبل:

ـ ماهذا يا سيدي..؟!

قهقه، وهو ينظر إلينا واحداً واحداً، وقال:

ـ معقول.. أيوجد أحدٌ في العالم لا يعرف السيكار..؟!

قاطعتُ استغرابه قائلاً:

ـ أظنك تعرف يا سيدي، أن السيكار من اختراع الهنود الحمر.. ولذلك تدخّنه باعتزازٍ قوميٍّ.. أليس كذلك..؟!

سألني الفرنسي:

ـ هل أنت جادّ سيدي..؟

ـ أجل.. فالهنود لم يكونوا يعرفون الورق، لذلك كانوا يلفّون التّبغ المفروك بورقة تبغٍ كاملة، ويتلذذون بتدخينها.. كما أنهم اخترعوا غليونك أيضاً..

انتفض البرفسور بتقزّز، ورمى الغليون من فمه مستنكراً..!

ـ حقاً..؟!

شهقت الإنكليزية، وهي تنقل نظراتها بيني وبين الإسباني، الذي بدا فخوراً لأن سيدةً إنكليزية انجذبت إليه، فقال منتشياً:

ـ نعم.. سيدتي.. ويروي أسلافنا أن كريستوف كولومبس، عندما عاد من رحلته الأولى إلى أمريكا، جلب معه ثلاثة من الهنود الحمر، في أقفاصٍ حديدية مُقفلة، وهم عراةٌ تماماً، ويصرخون كالنمور الجائعة.. ولم يفهم أحدٌ بأنهم كانوا يطلبون بعض التبغ لغلايينهم الفخارية، التي لم يستطع أيٌّ من المراقبين لهم أن يعرف ماهية تلكم الأدوات التي يتمسّكون بها بقوة..!

ـ ربما ظنوها أشياء تخصّ ديانتهم..

قالت الألمانية، قبل أن تُضيف بخبثها المعهود:

ـ لاشك أنّ ملكتكم كانت مُستثارة جداً، وهي تُراقب أجسادهم العارية القوية..!

وضعت الإنكليزية يدها على فمها مُتأوّهةً، وسألت الإسباني:

ـ هل كانوا عراةً تماماً.. يا سيد روبيرتو..؟

ـ أومأ روبيرتو مؤكداً، واسترسل في روايته، دون أن ينتبه للإثارة الأنثوية حوله:

ـ وقد أمرتْ الملكة بوضعهم في حديقة الحيوان..!

قهقهت كريستين حتى تندّتْ عيناها، وقالت:

ـ لا شك أن الملكة الحنونة.. صارت تحرص على زيارة حديقة الحيوان كل يوم، للاطمئنان على صحة هنودها..!

ـ حاولت الإنكليزية أن تتماسك، فداعبت شعر الإسباني المربوط بإحكامٍ على هيئة ذيل حصان، وهي تقول:

ـ لا.. يا سيد روبيرتو.. أعتقد أنه لم يحدث شيءٌ من هذا.. فلا بدّ أن ملكتكم قد فعلت فعلَ ملك فرنسا (شارلمان)، عندما وصلته ساعة هارون الرشيد..

ضحك البرفسور، والتقط غليونه من جديد مُلوّحاً به:

ـ خيالك واسعٌ سيد روبيرتو..! لكننا على كلّ حال اعتدنا قصصك الخرافيّة التي تخلط فيها الحابل بالنّابل، وتنسب الفأر إلى الحصان، وقد تنسب الحصان إلى الإنسان.. فالمهم عندك أن تربط أيّة قصة فيها شيء من المجد، والغرابة ببلدك.. لكني أشكرك فقد ذكّرتنا بقصة هروب شارلمان من الساعة.

ضحكت شفق، وسألته غامزةً:

ـ هل قلتَ إنّ شارلمان فرّ هارباً من ساعة الرشيد يا سيدي..؟!

ـ نعم سيدتي، فهو لم يعتدْ رؤية آلاتٍ تتحرّك من تلقاء نفسها.. لذلك ظن أن الشياطين تلعب داخل الساعة..!

فنادتني بزهو المنتصر، وبين كلماتها تمطّت رائحة الشماتة:

ـ فينيقيل.. احكِ للبرفسور قصة الفرار الأخرى للملك شارلمان.

ـ إنه يعرفها، فهو بروفسور في التاريخ..

أجبتها بهدوء، فالتفتتْ إلى الفرنسي، تسأله:

ـ هل تعرف حكاية ممرّ (رولان) يا سيدي..؟!

أجابها، وقد تبدّلت سحنته:

ـ أجل..

شرد الإسبانيّ لحظةً، قبل أن يقول:

ـ ممرّ رولان.. أنا أعرفه جيداً، وكل من يريد عبور الحدود بين بلدنا وفرنسا يعرفه..

ـ وهل تسمعون هناك شيئاً..؟

ـ أجل سيدتي.. أشياء كثيرة.. لكن ماذا تقصدين بالضبط..؟

انتبهت كريستين إلى سخف سؤاله، فاقتربت مني، وسألتني همساً:

ـ هل تريدني أن أفقد عذريتي مع شخصٍ كهذا..؟!

ـ ضحكتُ، وأنا أطبطب على كتفها، ثم قلت للإسباني:

ـ أرادت السيدة أن تسألك: إن كنتم تسمعون بالفعل صوتَ بوق (رولان)، كما تقول الأسطورة الفرنسية..؟!

تدخّلت إحدى الفتيات التركيات:

ـ يبدو أنها قصة مُثيرة يا سيدي.. فهلا رويتها لنا..

ـ أجل آنستي..

وبدأتُ أروي القصة، كأنما بشماتة:

يذكر التاريخ أن الملك شارلمان فرّ أمام جيش المسلمين، تاركاً قيادة جيشه لفارس يُدعى (رولان)، صمدَ الرجل نهاراً كاملاً، وعند الغروب بقي وحيداً، بعدما قُتل جميع من معه.. فاعتلى إحدى القمم، وراح ينفخ في بوقه منادياً:

ـ عد يا شارلمان.. عُد لنصدّهم..

لكنه لم يعدْ، فنزل الشاب، وقاتل وحيداً حتى قُتل.. ومازالت الجبال تردّد صدى صوته.. حتى أن الفرنسيين الذين صار (رولان) رمزاً مقدّساً لهم، يحجّون إلى ذلك الممر، ليسمعوا بوقه، وكأنه يحقنهم بجينات شجاعةٍ، يجب ألا تموت في دمائهم، حتى يورثوها لأبنائهم..

دمعت عينا اليابانية، وتوجهت إلى البرفسور، بكل دماثتها القومية، وقالت له:

ـ إن ملككم جبانٌ جداً يا سيدي..!

امتقع الغليون في يده، وتدلّى حاسراً بخزيّ..!

وهنا تدخلت الإنكليزية، لتحمي صديقها الفرنسي؟

ـ لكنّ الجيش العربي هُزم بعد ذلك بأيام في معركة بلاط الشهداء التي قُتل فيها الغافقي نفسه..!

ـ لكنه مات شجاعاً..

قالت شفق بعصبية، وأردفت:

ـ ولم يهربْ، كما فعل ملك الفرار..

تدخّل القبطان التركي الذي كنت أظنه مشغولاً عنّا بالنارجيلة:

ـ أتعرفون أيها السادة.. لو انتصر المسلمون في تلك المعركة، لكانت أوربّا كلها مسلمة الآن..؟!

انتبهت كريستين إلى الأمريكي الذي كان ينظر في الفراغ بشرودٍ، وقد ترمّد سيكاره بين أصابعه حتى كاد يحرقها، وسألته:

ـ ما رأيك سيدي بما سمعت..؟

أجابها بذهول:

ـ ماذا كنتِ تقولين يا بنتي..؟

ـ بماذا تفكرون سيادتكم..؟

ـ هل قلتِ بالأمس: إنكم ستذهبون أنت والسيد فينيقيل وزوجه إلى ألمانيا، عند عودتنا من رحلتنا..؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ هل تسمحون لي بمرافقتكم، كي نطلب من أطفال ألمانيا أن يوقّعوا على رسالتنا الموجهة إلى أطفال إسرائيل..؟

وصمتَ مختنقاً بغصّته..

نظرتُ إلى كريستين، فرأيتها هي الأخرى، وقد غامت عيناها بالدموع، قبل أن تستفيق من دهشتها، وتقول:

ـ يُشرّفنا أن تكون معنا يا سيدي..

وفكّرتُ: كم تغيّر الأمريكي، مذ سمع قصة شفق..! فماذا لو وصل أدبنا إلى الشعب الأمريكي كلّه..؟!

....

سفن الحرية تتهادى رخيّة، يرشقها المتوسط بمويجاته الحانية إشفاقاً على ركابها الذين سهروا حتى ساعةٍ متأخرة ليلة أمس..!

أمّا أنا فلم أستطع النوم، خرجتُ إلى السطح، الذي كان فارغاً إلا من النسيم، وقفتُ على مقدمة السفينة المزيّنة بالأعلام، وشعارات السلام..

ـ تغمرك الرطوبة تماماً يا فينيقيل..

التفتُ، لأرى كريستين واقفةً ورائي.

ـ ستبردين عزيزتي..

ـ تعوّدتُ على عذوبة البرد مذْ اصطحبتني إلى النورماندي..

ومسحتْ برهافة أصابعها قطرات الماء عن لحيتي، فأمسكتُ يدها، ونظرت في كفها الطرية، كانت صقيلةً كمرآةٍ جديدة.. حتى كدتُ أرى وجهي الفجريّ الشاحب على صفحتها، قرّبتها من فمي مُتمهّلاً، ولثمتها، وأنا أقول:

ـ ألم تنسي شيئاً يا كريستين..؟

وكانت رغبتي باحتضانها تعضّ بلذةِ قضم الرّضيع لحلمة أمه..! لكنها تُخاتلني مُتمنّعةً رغم أن حالها يُشبه حالي:

ـ نعم.. نسيت أن أطلب منك فنجاناً من القهوة، إن كنت تستطيع..

ابتسمتُ رغم خيبتي، وقلت في نفسي:

ـ كلّهنّ حوّاء مهما تبدّلت الجلود..!

ولمّا قصدتُ السّلم، فاجأني بحارٌ تركيّ، يبتسم من تحت شاربيه الرقيقين:

ـ صباح الخير سيدي.. هذا من القبطان، تفضل.

وناولني (ترمس) قهوة، وكأسين من البلاستك، وحين عدتُ إلى كريستين، رأيت عينيها تتسعان رغبةً.. ناولتها كأساً:

ـ تفضلي عزيزتي.. إنها قهوة تركية، مُبهّرة بتحيات القبطان..

وابتسم الشفق من فوق فلسطين، أرجوانياً كوشاحٍ فينيقيّ..

ـ هل لديك سيكارة..؟

أخرجتُ علبة تبغ من جيب قميصي، ناولتها سيكارة، وأشعلتها بصعوبة بولّاعتي الرطبة..

ـ ما بالك تتصرّف هكذا يا فينيقيل، ألست مضطرباً بعض الشيء..؟!

ـ أخاف أن تستيقظ شفق، وتضبطنا..

ـ تضبطنا بماذا..؟ وماذا نفعل..؟

ـ أنت لا تعرفينها.. إنها تغار عليّ كثيراً..

و.. وكأني سمعتُ بأذني الثالثة، أذن الحدس حفيفَ أقدامٍ ورائي، فالتفتُّ، لأرى شفق، وأسمعها:

ـ صباح الخير.

كان صوتها مبلولاً بندى البحر..!

ـ صباح الخير حبيبتي.. هل استيقظتِ..؟

كان سؤالاً نافلاً، طرحته المفاجأة..

حيّتها كريستين بابتسامةٍ واسعة، وسألتها، وهي تقدّم لها كأسها:

ـ هل تريدين القهوة..؟

ـ نعم.. أشكرك..

فبادرتُ بتقديم كأسي لها، وقلت:

ـ لا عليك كريستين، سأشارك حبيبتي بقهوتي، فنحن معتادان على ذلك..

ـ إلى أين نبحر حبيبي..؟

سألتني شفق، فأجبتها، وقد زادني كتمانها لغيرتها اضطراباً:

ـ إلى العريش حبيبتي.. ألم تسمعي كلام القبطان بالأمس..؟

ـ ما هذا (الأريش)..؟!

سألتني كريستين بلكنتها الألمانية، فسبقتني شفق للإجابة:

ـ إنه ميناء سيناء المصري، هل تعرفين سيناء يا عزيزتي..؟ فيها جبل الطور الذي كلّم موسى ربّه عليه.. وهناك استلم منه ألواح الوصايا، التي ابتدأها بقوله:

(لا تقتل). وأظنّ أنه ختمها بتحذيره من الخيانة..!

اختلجتُ بقوةٍ، فقد لدغتني عبارتها الأخيرة، التي أخمّن أنها موجهةٌ لي.. فتوجهتُ إليها محاولاً تبرير وجودي الصباحيّ مع كريستين.. لكنها كانت تنظر صوب سيناء ذاهلةً عني، والألمانية تحدّقُ في ذات الاتجاه، وقد كسا الخشوع وجهها..

وعمّا قليل أشرقت الشمس الفلسطينية، لتُذيب الضباب حولنا، وتنثره شذرات زبد.. بينما ارتمى ظلّ سفينتنا على الماء، وهي تتأرجح مُمعنةً في إبحارها صوب العريش..

....

تبدو السعادة على وجه القبطان وهو يقدم النارجيلة لشفق:

ـ إنه (تنباك) مُخمّر سيدتي، وهو تركي أصليّ، تفضلي.

قالت كريستين ساخرةً:

ـ بديعٌ هذا الاختراع يا سيدي.. ألديكم الكثير منه..؟

يُجيبها بفخرٍ، وهو يعيد ترتيب الجمرات:

ـ النارجيلة من فلكلورنا، ولابد من وجود أكثر من واحدةٍ في كل بيت من بيوت أمتنا..

ـ لكنها مؤذية سيدي القبطان..

قالت اليابانية برصانة، وأضافت:

ـ فهذا الاختراع الذي تفخر به، يضيّع نصف وقت أمتكم العريقة..

ضحك الأمريكي، وقال:

ـ وهذا هو سبب تخلّف الأتراك.. تخيلوا أيها السادة أن أمةً تعدادها ثمانين مليوناً، وكل شخص فيها يضيّع ساعتين من يومه على التدخين، ألا يعني هذا أن مئة وستين مليون ساعة عملٍ ضائعة يومياً..؟!

امتقع وجه القبطان لهذا الهجوم المزدوج، فانبرت شفق لنجدته قائلةً:

ـ النارجيلة لا تُضيّع الوقت، بل تُنشّط الخيال، فهي رفيقتي أثناء الكتابة..

تدخّل الإسباني مبتسماً:

ـ أنا لا أستغرب هذا سيدتي، فللمبدعين طقوسهم وخصوصيتهم.. أتعلمون أن سرفانتس كتب رائعته (دون كيشوت) وهو في السجن..؟ وقد صرّح فيما بعد أنه لو كان خارجه لما استطاع كتابتها بهذه الطريقة..!

ـ ولهذا جاءت مليئة بالتّرهات والجنون..!

قال الأمريكيّ، الذي يبدو أن شهيّته الهجومية مفتوحة هذا الصباح..

قهقهت الإنكليزية مزهوّةً قبل أن تقول:

أتعلمون أنّ شكسبير كان يقتني جرساً، يقرعه كلما استعصت عليه الأفكار، وكأنه يستدعي شيطانه المُلهم..؟!

ـ شكسبير صديق اليهود.. أنا أكرهه..!

قالت كريستين بحدّة، قبل أن تبلع جرعةً كبيرة من البيرة..

أجبتها، وقد أفقتُ من دهشتي لحدّتها:

ـ ولماذا تكرهين شكسبير..؟

ـ لأنه صديق اليهود، ثم إن أعماله مليئة بالدم.. وكأنه عدوٌّ للحياة..!

قاطعها البرفسور الفرنسي، منحازاً إلى صديقته الإنكليزية:

ـ اسمعي سيدتي.. أنا أوافقك على أن كتابات شكسبير مليئة بالدماء، لكنّ أبطاله المأساويين يمضي كلّ واحدٍ منهم إلى حتفه كما لو أنه يعيش ليلة زفافه..

تهلّل وجه الإنكليزية، وقالت مخاطبةً كريستين:

ـ جميع الإنكليز أصدقاء اليهود، وليس شكسبير فقط.. لأنهم غير متعصبين..! أما أنتم..

وراحت تكررها، وكأنها تخجل من تتمتها.. فسارع الأمريكي لنجدتها قائلاً:

ـ أنتم الألمان متعصبون جداً، ألم يقتل جدكم هتلر ملايين اليهود المساكين..؟!

قالت كريستن بهدوء مَنْ يهمّه تصحيح معلومة، أو وجهة نظر خاطئة:

ـ ليس صحيحاً.. فهتلر لم يقتل أحداً بسبب انتمائه الديني، فقتلاه فيما يُعرف بالمحرقة كانوا من جميع الأديان، وحتى من اللادينيين.. والسبب هو مخافتهم رأيه وسياسته في الحرب، فالهيلوكست كذبةٌ كبرى اخترعها اليهود، واستغلوها ببراعة..

تطاير شرر الغضب من عينيّ الإنكليزية، وقالت مستنكرةً:

ـ لاااااا.. أنت بالفعل مجنونة.. فكيف تُنكرين ما أجمع العالم عليه..؟!

قفزتْ كريستين واقفةً كالنّمرة، وقد احمرّت عيناها، وارتجفت شفتاها.. فخفتُ أن تنشب الحرب العالمية الثالثة على ظهر سفينة الحرية، وقدّرتُ أنه لابدّ من قوات فصلٍ دولية.. فقلتُ، وأنا أطبب على كتفها:

ـ اهدئي صديقتي.. فالجميع هنا لا يعرفون التّعصب، وإلا لما تجشّموا عناء السفر معنا.. ولو كان شكسبير يعرف أنه سيثير حنق ألمانيةٍ رائعة الجمال مثلك، لما كتب (تاجر البندقية)..!

ضحك الجميع، وعاد الارتياح تدريجياً إلى مجلسنا، لولا أن اليابانية عادت لتُثير مشكلة شكسبير:

ـ أتعرفون لماذا دارت أحداث تاجر البندقية خارج بريطانيا..؟

سارع الإسباني للإجابة، وكأنه وجد في السؤال سانحةً، عليه اقتناصها كعادته:

ـ لأن بريطانيا كانت خاليةً تماماً من اليهود في عصره، بل وقبل ذلك بكثير.. فقد تم طردهم منها بقرارات حازمة، أسماها البعض (قرارات الكنس).. لتنظيف البيت الإنكليزي من القذاره اليهودية..!

تغيّر وجه الإنكليزية من جديد، وراحت تنقر الطاولة بأظافرها المقلّمة، وكأنها تُهدّد بالانقضاض.

ـ مارأيك سيدي بعلاقة شكسبير باليهود..؟

سألني الفرنسيّ، كأنّما ليُشتّت الموضوع:

ـ في الواقع كلّ ما أعرفه أنّ الرجل لا علاقة له باليهود، فهو على ما أظن لم يرَ يهودياً واحداً في حياته، وقد كتب تاجر البندقية بناءً على أمر الملك (جيمس القذر)..

ـ مهلاً.. مهلا..

قال القبطان مندهشاً، وطلب مني تفسير ما قلته، فتدخلت اليابانية ربما لإنقاذي من شرحٍ قد يطول:

ـ تعلّمنا في الجامعة.. وأنا ـ كما تعرف صديقتي شفق ـ درستُ في الإكسفورد..

قاطعها الأمريكي بفجاجة:

ـ جميعنا يعرف ذلك سيدتي، فمنذ تعارفنا، وأنت تكرّرين لازمةً من ثلاثة بنود: أوّلها أنك تخرّجت من الإكسفورد، والثانية أن الإنكليز جميعاً يحبون شكسبير، ويدرّسونه لكل من يتعلّم في بلادهم، حتى لطلاب الجيولوجيا.. وثالثها أن اليابانيين أبناء الشمس المشرقة..

ـ عفواً سيدي..

أجابته بتأدبها العريق، وقد نجحت في امتصاص إهانته:

ـ أنا أعني ما أقول، فقد علّمونا في الجامعة أن شكسبير كتب تلك المسرحية، كي يُبرّر للملك جيمس ـ الملقب بالقذر ـ إعادة إدخال اليهود إلى مملكته.. لاحبّاً بهم.. بل بأموالهم، ليملأ بها خزينته، التي أفرغتها الحروب الدينية في إنكلترا، وهكذا استحقّ هذا الملك لقب القذر مرّتين: الأولى لأنه لم يستحمّ طيلة حياته، والثانية لأنه أعاد توسيخ بلاده باليهود، بعد أن نظّفها أسلافه منهم..!

بدت الإنكليزيّة وكأنّ أحدهم دلق على رأسها صفيحةً من الدّهان الأصفر.. وهمّت بالانصراف، فضغط البرفسور الفرنسي على يدها، لتبقى جالسةً، وقال مبتسماً بلباقة:

ـ ما قالته السّيدة يُشير إلى تأثير الأدب في الحياة، فما رأيكم أن نتابع النّقاش في هذا المجال..

تنحنح الأمريكي، وقال بزهو:

ـ نعم.. نعم.. إنه موضوع غنيّ.. وسأفتتحه بإخباركم أنّ نجل (جورج واشنطن) مؤسّس بلادنا العظيمة، قد تطوّع مع ثوار اليونان ضد السلطنة العثمانية بتأثير أشعار اللورد بايرون الحماسية..!

هزّ الفرنسي غليونه بتبجّح، فأدركتُ أنه يريد أن يعرض علينا إحدى تُحفه، وهنا لم أجدْ بدّاً من التّدخل، لأقطع عليه الطريق، وأخبرهم أن فاتحاً عربياً تخلّى عن حصاره لإحدى المدن، بتأثير قصيدةٍ وصلته من إحدى نسائها..! تطلب فيها أن يأخذ مدينتها برحمته.. فما كان منه إلا أن أمر جيشه بالانسحاب، بعدما طلب المرأة الشاعرة للزواج، لفرط إعجابه بقصيدتها..!

هتف الجميع، مدهوشين:

ـ قصيدة تُحرّر رقبة مدينة دون إراقة قطرة دم..؟! يا سلام..!

أشرقت عينا شفق بمئات النجوم قبل أن تقول:

ـ وللأدب أثره البالغ على الاختراعات أيضاً..

ـ على الاختراعات..؟!

سألتها البرفسورة باستنكارٍ، لا يخلو من سخرية..

ـ أجل.. قالت بثقة، وأردفت:

ـ إن مخترع الطائرة اعترف شخصيّاً، أن قراءته لروايةٍ يتخيّل مبدعها آلةً تطير في الفضاء، وتؤدّي الدّور الذي رسمه لها، ألهبت خياله، ودفعته للعمل في هذا الاتجاه.. ولولا تلك الرواية لما رأينا طائرة تسبح في الفضاء..!

توزّعت على وجوه الحاضرين علامات الدهشة، والاستغراب، والإنكار.. لكنهم عبّروا جميعاً عن رغبتهم بمعرفة كاتب الرواية، لتتويجه ملك التكنولوجيا..

ضحكت شفق بفخر، وأينعت روحها، كأنها هي صاحبة الرواية، وقالت: الاسم ليس مهماً.. المهم في الأمر أن الطائرات اليوم تحلّق في السماء محمولةً على أجنحة الأدب..!

ضحك الأمريكي الذي كان أوّل المُصدّقين لرواية شفق، وقال موجّهاً خطابه لها:

ـ لم يقف الأمر عند هذا الحدّ سيدتي، فللروايات بصمة جليّة حتى على طعامنا..

قهقه البعض، وتلمّس آخرون معداتهم الخاوية، فقد نسيت الجوقة الطعام بتأثير الدّسم الكامل لحوارٍ ساخن.. تجاهل السيد بوب رائحة التكذيب لنظريته، وتابع كلامه ببرود الواثق مؤكّداً أن الرئيس (روزفلت) أمر بتشديد الرقابة على معامل التّعليب، بعدما قرأ رواية (الغاب) التي تصف طرائق حفظ اللحوم.

تأرجح رأس شفق أسفاً، وهي تقول:

ـ معك حقّ سيدي، فالأمريكيون خير من يعرف تأثير الأدب على الحياة، لذلك أصدروا قراراً بسجن أيّ عبدٍ يقرأ رواية (كوخ العم توم)، لأنها أثارت ثورة في المجتمع الأمريكي..!

قهقهت كريستين بسخاء، وهدرت ساخرة:

ـ السيد بوب يريد فقط أن يُخبرنا أن رئيسهم (روزفلت) كان قارئاً للأدب، أليس هذا ما قصدتَه يا سيدي..؟

وأضافت دون أن تُعطيه فرصةً للجواب:

ـ مع أني سمعتُ أن أحد رؤساء أمريكا كان أميّاً تماماً..

وافقها الفرنسي قائلاً:

ـ ومعروف عن هذا الرئيس أنه لم يدخل مدرسةً قط، وقد تعهدت زوجه بتعليمه القراءة والكتابة..!

أراد الأمريكي الذي بدا عليه الامتعاض أن يقول شيئاً، فقاطعه البرفسور قائلاً، وكأنه يُكمل عبارته السابقة:

ـ أتدري يا سيدي أن هذه الشعوب الشرقية التي مازلتم تتهمونها بالجهل، كانت مولعةً بالمعرفة، وأن أحد وزرائهم كان يُحمّل مكتبته على أربعمئة جمل، لتكون رفيقته أينما حلّ.. بينما يُباهي بعضنا بقراءة كتاب.. وأشار إلى الأمريكي غامزاً..

ـ أف.. أف.. أف.. أربعمئة جمل..؟!

قال بوب محاولاً إخفاء امتعاضه بضحكةٍ هازئة.. بينما تعالت أصوات الآخرين، وتلوّنت بين مُصدّق ومُكذّب.

ـ نعم.. أربعمئة جمل..

قال البرفسور بحماس، وتابع:

ـ فمكتبته مُكوّنة من مئة وسبعة عشر ألف مجلّد، وقد درّب تلك الجمال على المشي في نظامٍ، يُناسب التّرتيب الأبجديّ للكتب في هذه القافلة الأدبية..!!

بدا الإعجاب والاستغراب على الملامح، والحركات..! بينما قال أحد الشباب مُتندّراً:

ـ لابد أن جمالهم تعرف القراءة والكتابة، لتصطفّ بهذا الترتيب، وتحافظ عليه..!

قهقه الجميع جذلين.. قبل أن ينفضّوا، ليقضوا آواخر الليل داخل قمراتهم.

....

وحدها شفق لم تكن تشعر بالصدمة أمام التصرفات المصرية، وإجراءات التّفتيش الحادّة التي قاموا بها، حتى أن الإنكليزية بكت، وهي تُعيد ترتيب أشيائها الخاصة التي تمّ نبشها، وتفحّصها بطريقةٍ تنتهك حقوق الإنسان، كما وصفتها، وهي تكرر:

ـ هذه وقاحة..!

وقد رفضت عرض الفرنسي بمساعدتها، فعاد إلى جلسته المعتادة، ينقر طرف الطاولة بفراغ غليونه، وكأنه يحاول ضبط إيقاع التفتيش لأشيائه الشخصية.. وأظنه كان يزفر بعض الشتائم بلغته الأمّ..

أما الأمريكي فقد ترك لهم قمرته، يفعلون بها ما يشاؤون، واكتفى بإخراج بعض علب السيكار معه، وراح يُفتّتها واحداً واحداً، ويرميها في البحر، وهو يُبربر بكلماتٍ غامضة.. ورغم الحرّ دسّت شفق ذراعها تحت إبطي، وهي تهمس:

ـ أشم رائحةً كريهة يا فينيقيل..

فسارع الأمريكي للقول، وكأنه يكمل عبارتها:

ـ نعم يا سيدي.. وكأنها مصيدة، وقعنا فيها جميعنا..!

ـ هل لاحظتم أن ثمّة إسرائيليين بين المُفتّشين..؟!

ـ وهل يسمح المصريون بذلك..؟! لا.. هذا غير معقول..

ـ لماذا تستغرب.. ألم يكن المصريون أكثر تشدّداً في حصارهم لغزة من الإسرائيليين أنفسهم..؟!

وفجأةً بدأت اليابانية بالصراخ:

ـ هذا غير معقول.. غير معقول..!

واستمرت تصرخ، إنما بلغتها القومية.. فالانفعال الشديد، كالحب تماماً يعبّر عنه الإنسان بلغته الفطرية الأولى.. ولا أعتقد أنها كانت تشتم أحداً.. لأن اليابانيين يمتازون على ما أعلم بالتهذيب الشديد.. وخاصةً النساء منهم.. ثم عادت لتُكرّر:

ـ غير معقول.. غير معقول..!

وكأن هذه العبارة هي جملة الاستنكار الوحيدة التي تحفظها من لغتنا.. والتي أعطى تكرارها للجميع انطباعاً عن خصوصية العلاقة بين اليابانيات وبين ثيابهنّ الداخلية، التي يحرصن على حمل الكثير منها أنّى حللن، وارتحلن..

ولستُ أدري من أين طلعت كريستين لتجذبها من ذراعها، وهي تقول:

ـ لن تستفيدي شيئاً، مهما انفعلت يا كوكو..

ـ اسمي: فو كو شي..

ـ أعتذر سيدة فو كو شي.. دعيهم يفتشون على هواهم.. فلن تُجدي معهم أيّة احتجاجات، فها أنا قد تركتُ لهم قمرتي، وصديقي روبيرتو أيضاً، إنهم ينفضونه نفضاً.. بعد أن اتهمه أحدهم بنقل ما لستُ أدري من أفكار.. لمجرّد أنهم وجدوا بين أغراضه كرّاساً من أشعار لوركا.. تعالي.. تعالي سيدة فو كو شي.

وحين وصلتْ بها إلى حاجز السفينة، ضربت بيدها على ساعدي، وهي تقول:

ـ صوّر ما يحدث يا فينيقيل، ألستَ معنيّاً بإرسال التقارير حول رحلتنا، أم أنك فقدت شهيتك الإعلامية، وأنت ترى أصدقاءك المصريين ينتهكون كل عرف..؟!

ـ هؤلاء ليسوا أصدقائي.. ولكنْ إن شئتِ أن تري من يستحقون صداقتي، فانظري:

وأشرتُ إلى الميناء، حيث كان مئات المصريين يرفعون اللافتات المطالبة بفكّ الحصار عن غزة..

ـ أعطني الكاميرا.. فأنا أريد تصوير الفريقين.. هؤلاء الذين يعيثون في السفن، كأنهم يريدون أن يُثبتوا للعالم تخاذلهم، وأولئك الواقفين في الحرّ، يُلوّحون لنا، لننقل تضامنهم مع شعب غزة، غير عابئين بقمع الشرطة لهم..

وكأن الأمريكي استفاق أخيراً، عندما انتهى من تحطيم آخر سيكارٍ معه، ليسألني:

ـ هل نستطيع النزول إلى الميناء قليلاً..؟

ـ لستُ أدري يا سيدي..

ـ بلى.. تعال.. أنت بحصانتك الصحفية، وأنا سأحمل الكاميرا، وأعمل معاوناً لك..

ـ ولماذا نفعل ذلك..؟!

ـ لآخذ تواقيع الأطفال المصريين على (الرسالة).

وتوجّهنا مباشرةً إلى قمرة القبطان، لنرى ممن سنطلب إذن النزول.

وهناك وجدناه يرتعد تأثراً، بينما كان ضابطان مصريان يقلبان كل شيء في قمرته، حتى الهواء..!

تسمّر الأمريكي عند الباب، وتراجع خطوةً بما يُشبه الصدمة.. قبل أن يقرّر إعادة الكاميرا، ولبسَ شخصيته الحقيقية:

ـ أنا قاضٍ متقاعد، وأريد النزول إلى البرّ، فمن المسؤول عن ذلك..؟

ـ لا أحد يستطيع أن يقدّم لك شيئاً، ولكن يمكنك الاتصال بسفارتكم عندنا يا سيدي..

قال أحد الضابطين المصريين، وأشار إلى جهاز الراديو في قمرة القبطان..

ـ لا فائدة يا سيدي.. فقد قطعوا الاتصالات..

هدر القبطان مرتجفاً من الغيظ..

أجاب المصري نافياً، وهو يقف باحترام أمام الأمريكي، ويقدّم له هاتفه الجوّال:

ـ نحن لم نُعطّل شيئاً.. تفضل سيدي يمكنك إجراء المكالمة التي تريد..

ـ لستُ مضطراً للهاتف، أنا أريد النزول إلى البرّ فقط..

ـ نعم.. يا سيدي يمكننا أن نحلّ هذه المشكلة مع مدير أمن المرفأ.. هل تسمحون بالاسم يا سيدي..؟

ـ لن أكون وحدي، سينزل معي أصدقائي..

قال الأمريكي بلهجةٍ حازمة، فأجابه المصري مسرعاً:

ـ نعم يا سيدي، سأطلب منه ذلك.. ولكن الأسماء.. لابد من ذكر الأسماء، والجنسيات يا سيدي..

وضحكتُ في سرّي:

ـ ألا ما أضعف هؤلاء المصريين أمام كلمة (أمريكي)..!

كان وجه الإنكليزية يطفح خشوعاً.. لأن قدميها قد وطئتا أخيراً أرض سيناء المقدسة.. أحسستُ أنها تُقبّل أرض الميناء بعينيها..! وهي تُتمتم بعض الصلوات، وتمشي على رؤوس أصابعها، وكأنها تُحاذر أن تلمس تلك الأرض الطاهرة.. كما أسمتها.. غمزني البرفسور قائلاً:

ـ انظر إلى الليدي الإنكليزية، لقد نسيتْ كلّ إهانات التفتيش..!

ضحكتُ بمرارة.. خاصّةً بعدما اكتشفتُ أنّ نزولنا من السفينة، لم يكن تلبيةً لطلب الأمريكي فحسب، بل لأن المصريين أرادوا ذلك.. فقد وجدنا رفاقنا من ركّاب السفن الأخرى في أسطول الحرية قد سبقونا، وتم حشرنا جميعاً في قاعة استقبالٍ، ضاقت بنا رغم اتساعها، كما ضاقت باحتجاجاتنا التي لم يكن ثمّة من يصغي إليها..! صفر روبيرتو قرب أذني شتيمةً مُقذعة، وفي ذات اللحظة برز بوب من بين الحشد المهتاج، وناداني، وهو يجذب كريستين وراءه:

ـ تعال يا سيدي، أنت وزوجك، فقد حصلتُ على ترخيص..

وضاعت بقية عبارته في الضجيج..

كان ترخيصه موافقة السلطات المصرية على أخذ تواقيع الأطفال على رسالتنا إلى أطفال إسرائيل.. رأيتُه يحملها جذلاً، ويركض بها أمامنا، نحو حشد المتضامنين المصريين، الذين كانت الشرطة تمنعهم من الاقتراب.. ولستُ أدري كيف استطعنا اختراق حاجز الجنود، لنجد أنفسنا وسط زحامٍ من البشر، والرايات، والهتافات..

بعد لحظاتٍ فاجأني ضابط مصري، وأمرني بالعودة، لأن وقت التّرخيص قد انتهى.. فوجدنا أنفسنا وراء صفّ الجنود ثانيةً، وتوجّهنا نحو بقية المتضامنين في القاعة التي مازالت تضجّ بالصراخ:

ـ أنزلونا من السفن، ليأخذوا راحتهم في التفتيش..

ـ هذا شيء لا أخلاقي..

كان اللغط يدور، ويعلو صاخباً أكثر فأكثر، كأنه ينمو بتزايد الحرّ..

ـ فينيقيل تعال، سأعرّفك على ثلاثة شبّان ألمان، بينهم اثنان من أعضاء (البوندستاغ)، أحدهما أخضر مثلي..

قالت كريستين ذلك، وهي تضحك، وقبل أن أسألها، أين هم، قاطعنا مُكبّر صوتٍ، يتحدّث بإنكليزيةٍ ركيكة، وفهمنا أنهم يريدوننا أن نبقى هادئين، لأننا قد نبقى في هذه القاعة فترة أخرى.

أطبق صمت الاستغراب على القاعة عدة دقائق، قبل أن تسري همهمات الاحتجاج، قال بعضهم:

ـ إنّ الشبّان المصريين استطاعوا اختراق الحواجز الأمنية، ووصلوا إلى الأرصفة، وهم يطالبون بالسّماح لهم بالذهاب إلى غزة..

شققنا طريقنا بين الضّجيج الذي عاد ليملأ القاعة من جديد، أفلتتْ شفق ذراعي، واعتذرت لتذهب إلى الحمّام.

أنا أيضاً كنتُ أريد الذهاب إلى الحمّام، لكنّي خجلتُ أن أذهب في تلك اللحظة، كي لا تظنّ كريستين أنّ بيني وبين شفق تخاطراً حتى على مستوى الأجساد، والحاجات..! فأجّلتُ المشروع، وتبعتُها، لتُعرّفني على أصدقائها الألمان.

رمقني الأخضر الذي تفخر به بتعالٍ عندما عرف أني فرنسيّ، وبدأ يتبجّح مُباهياً بانتصارات هتلر، وسحقه للفرنسيين الهُلاميين ـ كما وصفهم ـ خلال ساعات..

ـ ماذا تقصد بالهلاميين أيّها الأحمق..؟

أجابته كرستين، التي أدركت من برودي أنّي لا أرغب بالرّد..

قهقه الرجل بمجون، وهو يقول:

ـ تعرفين قصدي أيتها الألمانيّة التي أنستْها علاقتها بهذا الفرنسيّ نقاء عرقها..!

التفتُ إليها، بنظرة عتاب، وكأني أسألها:

ـ إلى مثل هذا دعوتني..؟!

تضرّج وجهها خجلاً منّي، وغضباً عليه، وصرخت في وجهه:

ـ اخرس أيّها الأخضر المُزيّف، وانصرف من وجهي فوراً.

شعرت لحظتها بالكاميرا تخفق على صدري، وتمتزج خلجاتها برجع النفس الغاضب بين جوانحي.. فبدأتُ أرتعد، وأنا أقول:

ـ لن أردّ على شتيمتك، لأني أترفّع عن منازلة أمثالك، لكنّي أودّ أن أعلّمك أنّ في ألمانيا قاماتٍ يُمكنك أن تفاخر بها أكثر من هتلرك هذا.. مثل هيغل أو ماركس مثلاً..

قال الألماني الذي انتفخ كبطن ناقةٍ حُبلى:

ـ (كارل ماركس) المُلحد..؟! هه..هه..هه.. هل أفخر به، وأترك هتلر الذي يرتع الآن مع الملائكة في الجنّة..!

نظرتُ في عينيه الزرقاوين بحدّة، وهدرت:

ـ إن تعصّبك سيودي بك إلى نفس الجنّة، التي تقول إن صاحبك هتلر يمرح فيها.. وأنا على ثقةٍ أنها ليست أقل حرّاً من هذه القاعة..!

ـ وليست أكثر نظافة، أو إضاءة..!

هتفت كريستين، وهي تحضنني من الخلف، ممسكةً ذراعي بقوة، وكأنها تخشى أن أضرب الألماني، وأفكّ عنقه الأخرق.. ولم تنسَ أن تمدّ يدها إلى عنقه لتسحب الفولار، وهي تصرخ في وجهه:

ـ أنت لست منّا أبداً، وسوف..

وكانت تضع سبّابتها الغاضبة في عينيه تقريباً، وهي تُكرّر وعيدها.

بينما اندست ذراع شفق تحت إبطي، وهي تقول دون أن تُعير كريستين بالاً:

ـ هيّا فينيقيل، فقد بدأ الناس يعودون إلى السفينة..

فسارعت تلك لمخاصرتي، وقالت:

ـ دعيه يا شفق، فأنا أعرفه قبلك..

ـ أنت تعرفينه قبلي أيتها الألمانية..؟!

صرخت شفق، وهي تجذبني خارج الصفوف، ولما توقفنا على رصيف العريش، تابعتْ صراخها المقهور، تحت أنظار الحرس المصري المندهش:

ـ أنتِ يا كريستين تعرفينه قبلي..؟ أنت لا تُدركين أنّي حبلتُ به دهوراً..!

وغصّتْ بدمعتها، ثم أردفت مُصحّحةً ما تعتقد أن الألمانية لن تفهمه:

ـ حلمتُ به، وعرفته قبل أن..

وراحت مماحكات العاشقتين تتلاطم في فراغ دهشتي.. وحين استطعتُ تفريقهما قليلاً، قلتُ لهما ضاحكاً:

ـ عندما تنتهيان اتبعاني..

وركضتُ، لألحق بأحد الزوارق.

لم أنظر ورائي، وأنا أصعد سلّم السفينة، أعني لم أكن بحاجة للنظر ورائي، كي أعرف أن شفق وكريستين تحاولان اللّحاق بي مُتناسيتين خلافهما..! فكلّ منهما تعرف مكانتها عندي، وتُدرك ربما بحدسها الأنثويّ أنّ محاولة امتلاكي تقتلني..!

ـ أريد نارجيلةً.

قالت شفق، قبل أن تجلس إلى جواري، بينما رشقتني كريستين بنظرة عتبٍ، مغلّفة ببسمةٍ خضراء..

نهضتُ قاصداً قمرة القبطان، لأستعير نارجيلته، وكدتُ أصطدم بالبرفسورة، التي كانت تهرول باتجاهنا، وهي تهتف:

ـ انظروا، لقد حصلتُ على رطلٍ من تراب سيناء المقدّس بسبعة جنيهاتٍ فقط..!

ضحكتُ في سرّي، وفكّرت: لو يعرف المصريون أنّ في العالم الكثير من أمثالك، لافتتحوا مصنعاً لتعليب التراب..!

أصرّ القبطان على مشاركتنا جلستنا، فساعدتُه في حمل لوازم النارجيلة، والموقد،

بينما نادى أحد بحّارته، ليأمره بتجهيز الشاي على طريقتهم القومية، ومضيت برفقة القبطان إلى حيث تجلس شفق، فوجدنا مجموعتنا شبه مُكتملة، وكان بوب يضحك بصوتٍ عالٍ، وهو يقول:

ـ هؤلاء المصريون ظرفاء حقاً.. لقد رتّبوا لي قمرتي بعد التفتيش، وكأنني الفرعون رمسيس الثالث، فاضطررتُ (للخبطتها)، مخافة أن أتحوّل إلى مومياء إذا نمتُ فيها، وهي على تلك الحالة..

كان المساء يحبو ممسكاً قلبي بأصابعه الرّماديّة، نظرتُ إلى السماء، وهمستُ بخفوت:

ـ يا الله.. لماذا أنا من بين كلّ الناس، ينقبض قلبي، كلّما اقترب المساء..؟!

وحانت منّي التفاتة إلى الإنكليزية، فرأيتها تحضن كيس التراب كرضيع أثير..! وتخيلتُها حين ستعود إلى بلادها، تحاول صناعة تمثالٍ لسيدنا موسى، وهو يتلقى وصايا الربّ على جبل الطور..

وضحكتُ في سرّي، وأنا أفكر، بأنه سيكون تمثالاً فاشلاً، لأن رمل سيناء

لا يصلح للتماثيل كصلصال الشام..

....

يجلس فينيقيل والصّبيّة الصغيرة بجانبه، ترمقهما سيليا بحبّ، وهي تقول:

ـ علّمها الكتابة يا فينيقيل..

يأخذ لوح فخّارٍ، ويحزّ عليه بصوّانةٍ مبريّة بعض الحروف، وهو يُمسك يد البنت:

ـ هذا هو اسمك: أنت عين الطيب.

تلفظها البنت، وتجتهد في كتابتها.

ـ عين الطيب.. قوليها كما ألفظها..

تحاول أن تلفظها كما يريد، فتفشل:

ـ (آن تيب)..

ـ حسناً.. أنتِ (آن تيب) وأنا فينيقيل.

ـ فينيكيل..؟

ـ لا بأس يا بنتي (فينيكيل).. كما تشائين.. وهذه أمك سيليا..

تهزّ الطفلة رأسها الأشقر، وتُكرّر:

ـ ماما سيليا.. ماما سيليا.

ويحدف المتوسط موجةً أخرى، تغسل المركب من الجؤجؤ إلى الكوثل، مُبلّلاً الجميع، وماحياً آخر ما كتبته الطفلة، التي تحاول الآن تجفيف ثوبها الأرجواني المبلول بزرقة البحر كعينيها الواسعتين..

ـ لم تتعلّم الخجل بعد.. إنها..

ـ ماذا تريد أن تقول يا فينيقيل..؟ البنت ماتزال صغيرة..

ـ إنها تكبر بسرعة..!

ـ اسمع يا فينيقيل.. طلبتُ منك أن تعلمها الكلام، وليس الخجل.. وتذكّرْ جيداً أنّ الخجل للخطأة الذين يُحوّلهم خطؤهم إلى عبيد.. أما الأنقياء فهم أحرارٌ دائماً، وليس لديهم ما يخجلون منه..!

وجاءت عين الطيب بلوحها الفخّاري، وثوبها الذي مازال مُشبعاً بالماء، وقد برزت منه حلمتاها كمناقير القطا البريّ، أو بلابل الفينيق، وبدأت تُهجّئ الأسماء لأمّها:

ـ بابا (فينيكيل)..

ضحكت الأم، وضمّت فتاتها التي غرقت هي الآخرى في ضحكٍ لا تعرف سببه..

ـ أرأيت كم هي بريئة يا فينيقيل..؟

قالت الملكة بإعجاب، وأردفت:

ـ إياك أن تُعلّمها الخجل، فالخطأة وحدهم من يجب أن يخجلوا.. هل فهمتني..؟

....

ـ اسمع يا فينيقيل.. أنا اليوم منشرحة، فلا تُفسد عليّ نهاري..

قالت شفق، وهي ترشف شايها، وأضافت:

ـ كلّ قصصك دم، وجميع تقاريرك الإخبارية كذلك.. لماذا لا تحاول التّخفيف من مأساويتها، ومرارتها..؟!

ـ كيف..؟ أرشديني.. أتريدين أن أغيّر الواقع، ومولانا التاريخ وُلد من أبوين دمويين، وتسلّم تاجاً وصولجاناً مُعمّدين بالدم.. ثم اعتلى عرشاً، يسبح على بحرٍ لزجٍ من الدماء..؟! أعطني يوماً واحداً مرّ على البشرية، مُذ فضّ (التلمود) و(التوراة المزيّف) بكارة التاريخ..! لم يكن فيه قتل..!

قاطعتني بحدّة:

ـ كفى.. أرجوك.. قلتُ لك لا تُفسد عليّ نهاري، ألا ترى كيف يستمتع الجميع، ونحن وإيّاهم نقتسم نفس المكان، والهواء، والهدف، وربما الثقافة.. وأنت تصرّ على فتح صنابير الدم بحكاياتك عن الماضي، أو تقاريرك عن الحاضر..؟!

ـ لا يا شفق.. الأمر ليس كذلك، فأنا أريد فقط فضح التزوير في الماضي والحاضر.. أتعرفين.. بالأمس تحدثتُ مع مدير الوكالة في باريس، وقدمتُ له تقريري عن سفن الحرية، فوبّخني بشدّة:

ـ أنت تكذب، فوسائل الإعلام تقول إنكم مُجرّد إرهابيين، مُعادين للسّاميّة، تحاولون التسلل إلى غزة، وأنتم مُدجّجون بالأسلحة..

ـ معقول..؟؟!

وانتفضت غاضبةً مُستنكرةً، فاصدمت بنارجيلتها التي انقلبت، وتفككت إلى أشلاء، مما اضطرني للانشغال بلملمتها، وهي تُكرّر سؤالها المرير..

ـ معقول.. معقول..؟!

أجبتُها، وأنا أعيد إعمار النارجيلة:

ـ نعم سيدتي، هذا ما أخبرني به السيد المدير، بل وأضاف أن هناك الآن في باريس مظاهرات تهتف ضدّنا..

ـ لا.. لا.. أنت تهذي، أو تتنبأ مثل كاميراك المشؤومة..!

تقطّع صوتها المرتعب لحظاتٍ، ثم تهاوت ذاويةً كما نيّة الخير في قلب مذنبٍ بائس.. لم ألحق أن أتلقفها قبل الأمريكي، حتى كريستين سبقتني، ورشّت الماء على وجهها المخطوف.. فتحت شفتيها قليلاً، لتلتقط قطرة ماء، وبالكاد سمعتها تهذي:

ـ هذا فظيع.. فظيع.

....

بدأت سفننا تغادر ميناء العريش، واحتشد المصريون على أرصفته، يلوّحون لنا بالأعلام الفلسطينية، فقلت لكريستين دون أن أتوقف عن التلويح لهم:

ـ أرأيت عزيزتي..؟ هذه هي مصر.. فما ترينه الآن هو القاعدة، أمّا ما حصل أثناء التفتيش فهو استثناء طارئ..

ـ نعم.. نعم.. ولكن لمَ لمْ تصوّر هذه المشاهد..؟!

كانت نفسي عازفةً عن كل شيء، وكأن حجراً ألقي على سطح الروح، واخترق أعماقها، تاركاً وراءه دوائر تتلاشى، ثم تتجدّد، وتتلاشى بلا نهاية..!

ـ تعال لنجلس حبيبي، فقد تعبت من الوقوف.

قالت شفق، وهي تشدّني من كمّي، وتمسك ذراع الألمانية بلا تكلّف..

ـ قلتِ بالأمس إنك تكرهين اليهود أيتها الآنسة، ولستُ أدري كيف يستطيع المرء أن يكره عرقاً بكامله..!

كانت البرفسورة الإنكليزية مُربدّة تماماً، وهي تخاطب كريستين، التي ردّت عليها دون أن تخسر مرحها:

ـ أنا قلتُ إنني أكره شكسبير لأنه صديق اليهود.. لكنني أعترف الآن أنني أكره اليهود جميعاً.. لأنهم ينشرون الخراب، والموت أنّى حلّوا..!

زمّت البرفسورة شفتيها الرّقيقتين، كأنها تدفن بينهما خيبتها: وقالت بتردّد:

ـ أنا.. أنا.. يهودية..

تغيّرت ملامح أكثر الحاضرين، وتجمّدت بعض الكلمات على الأفواه الفاغرة.. فسارعت كريستين بنسج شبكةٍ من فلسفتها الخضراء، لتتلقف البرفسورة، وتُنقذها من بئر الغربة الذي كادت ترميها في قعره:

ـ ليست مشكلة عزيزتي.. لا أحد منا يختار دينه، فالإنسان يولد على الفطرة، وأبواه يُهوّدانه، أو يُنصّرانه..

وأردفت مبتسمةً بحياء:

لا أعرف أين ومتى سمعت هذه العبارة.. لكني أظنها تُعبّر عما أردتُ قوله.. ثم.. ليس كل اليهود عنصريين..

ونظرت إليّ كأنها تطلب مساندتي، لتصحيح خطأ أوقعها فيه تسرّعها، وانفعالها، فرفعتُ صوتي، علّه يغطي على تعليقات الحضور:

ـ أجل سيدتي.. كريستين لم تكن تقصد ما قالته بحرفيته.. وجميعنا هنا لا نرجّح الأحكام المُطلقة، ولا نعرف التّعصب، وخاصةً كريستين.. ثم هي خضراء، وأظنك تعرفين معنى ذلك..

تنهّدتْ كريستين بشيء من الارتياح، وهي تقول:

ـ نعم صديقتي.. فنحن (الخضر) ندافع عن البيئة كلّها، من الأعشاب حتى الإنسان، ولانستثني أيّ نوعٍ، أو كائنٍ من حقه في الحياة، بل من ضرورة وجوده للحياة كلها..!

نهضت شفق بحماسٍ، قطع على البرفسورة الإنكليزية التعبير عن رضاها، اقتربت من كريستين، وحضنتها بقوة، وهي تنشج:

ـ ابنتي.. حبيبتي..!

اجتاحتني رعدةٌ، زلزلت كياني، وتهشّمت تلك القشرة الرقيقة التي تُغلّف روحي، فانفلتتْ كعصفورٍ طال حبسه: (ربّاه.. لقد رأيت هذه اللقطة بالذات في مكانٍ ما.. لكن متى..؟ لم أعد أتذكّر.. لكني رأيتها، وشممتُ هذا العبق في ظهورٍ سابق..) شفق تحضن كريستين بأمومة، وتناديها ابنتي أيضاً.. رغم إحساسها، وربما يقينها بأنها منافستها القوية على قلبي وحياتي..! والمرأة لا تغفر أمراً كهذا أبداً.. قد تُناور، تُتكتك، تُماطل لكسب المعركة، لكنها لا تصفح.. ولا تسمح لنفسها أن تتمادى، وتُعجب بفكر شريكتها مهما تسامى..

أيكون الهدف الذي يجمعنا، قد ذوّب كلّ خلاف، فتماهى أحدنا في الآخر..؟!

ربّما.. لكني واثقٌ أنّي رأيت هذه اللقطة من قبل..!

....

ـ ألا تضجرين سيدتي من كثرة الزرقة فوقنا، وتحتنا..؟!

فتضحك مثل برتقالة:

ـ أنت لجوجٌ يا فينيقيل.. وجّهْ مراكبنا إلى الشمال قليلاً، سنقترب الآن من الشاطئ.

ودارت المراكب نصف دورة، فوصلنا قبالة شاطئٍ، بدا شريطاً أخضر يفصل زرقة السماء عن زرقة البحر..!

ـ سننزل هنا.

ـ أمرك مولاتي..

كنتُ أراقب الماء تحت مُقدّمة المركب، خوفاً من الصخور، وأشرتُ على كبير البحّارة أن يُخفّف سرعته، وحين صار القاع الرملي ظاهراً، أمرتهم بالتّوقف عن التجديف، وإنزال المراسي.

وحين وصلنا البرّ، وأنزلنا بضاعتنا، جلست الملكة على بقعةٍ معشبة، وطلبت مني أن أشعل ناراً طازجةً، لنحتفل بوصولنا..

وبعدما أخذنا حاجتنا من الراحة، والفرح، من الطعام والشراب، رتّبنا بضاعتنا على دكّةٍ مُتقدّمةٍ قليلاً في البرّ، بطريقةٍ جذابة.. وكانت الصغيرة عين الطيب تلاحق

ما أحضرناه معنا بعينيها، وتسألني، لتتعلم الأسماء، فتردّد ورائي:

ـ هذا زيت، وهذا نبيذ، هذا قماش، وهذا بخور..

نادتها الملكة:

ـ تعالي يا بنتي، اجلسي إلى جواري، ودعي الرجال يتابعون عملهم.

قفزت البنت راكضةً، وهي تُردّد كأنها تغني:

ـ زيت.. بخور..

فتضحك الملكة بجذلٍ، وهي تضمّها إلى صدرها الرحب.. وقبل أن ينقضي الأصيل، أمرتنا الملكة، بامتطاء المراكب، والعودة بها بعيداً عن الشاطئ..

ولما تلاشى الحزام الأخضر مبتعداً عن أنظارنا، ألقينا المراسي، وأطبق ليل المتوسط على مراكبنا.

صباحاً.. عدنا إلى حيث تركنا بضاعتنا، فوجدنا إلى جوارها الثمن الذي قدّمه أهل تلك البلاد..

نادتني الملكة:

ـ تعال يا فينيقيل، هاتِ ميزانك، ومكيالك، واتبعني.

وحين أتممنا عملية الكيل، قالت مُتذمّرةً:

ـ إن هذا أقلّ من السعر الذي أخذناه العام الماضي.. هيا دعوا كل شيءٍ في مكانه، ولنعد إلى المراكب.

وفي اليوم التالي رجعنا، فوجدنا زبائننا قد زادوا الثمن قليلاً، لكن الملكة لم ترضَ.. قال لها أحد البحارة:

ـ لماذا لا نطلب رؤيتهم، لنتفاهم معهم..

أجابته ضاحكةً:

ـ ألا تعلم أنهم لايعرفون الكلام، وأنهم عراة..؟ لذلك ربما ينظرون إلى ملابسنا بعين الرّيبة، وعدم الارتياح..! سنعود في الغد لنرى ردّة فعلهم.

وحين عدنا في اليوم الثالث، وجدنا أنهم لم يزيدوا السعر، بل أزاحوا بعض بضائعنا جانباً، وكأنهم يقولون لا نستطيع أن ندفع أكثر من هذا.. فقالت الملكة:

ـ يبدو أن مناجمهم لم تُنتج الكثير من النّحاس، والقصدير هذا العام، لذلك خذوا

ما قدّموه، واتركوا لهم كلّ بضاعتنا، وهيّا لنرحل.

قال أحد البحّارة:

ـ لكنك يا سيدتي تبخسين بضاعتنا حقها، بقبولك ما قدّموا..

تأمّلته لحظةً، ثم سألته:

ـ ألستَ البحّار الذي أراد قتل الوعل الجميل..؟!

ـ نعم مولاتي..

أجابها البحّار، وهو يُطأطئ رأسه أمامها..

ـ اسمع يا بنيّ.. هؤلاء زبائننا، ونحن نبيع لهم، ونشتري منهم كلّ عام.. فإن لم يجدوا المزيد من القصدير، هل نمنع عنهم خيراتنا..؟

ركع البحّار أمامها طالباً العفو، فمدّت يدها إلى رأسه، ومسحت عليه مُباركةً..

....

أينع الصبح، وفتحت مراكبنا أعينها على ساحلٍ جديد.. تنهّدتُ بحبورٍ، وسألتُ الملكة:

ـ هل تريدين أن ننزل هنا مولاتي..؟

ـ أجل يا فينيقيل، هذا هو المكان..

وبدأ الرجال بإنزال الزوارق الصغيرة، ونقل البضائع إليها، بينما يراقبنا أهل المكان من بعيد، وهم يعتلون صخوراً تُشرف علينا.. كانوا عراةً إلا مما يستر عوراتهم..! اقتربوا منا بشيءٍ من الحذر، فطلبت إلينا الملكة أن نُقدّم لهم بعض الخبز، واللحم المشوي الذي كنا نلتهمه بشهيّة.. لكنهم رفضوا بتأفف، وأشار بعضهم إلى ما تبقى من لحم التيس النييء، وقبل أن ندفعه إليهم، كانوا قد اختطفوه، وبدؤوا بنهشه..!

ـ انظر يا فينيقيل كيف يتلمسون ملابسنا باستنكار..؟!

ـ أظنك تعرفين ذلك مولاتي.. ألا يشبهون زبائننا، زبائن الزيت والبخور..؟

ـ لكني اعتدتُ التعامل مع هؤلاء، وقد بدؤوا يتعلمون منا الكثير، ألم تلاحظ ذلك..؟

ـ أجل سيدتي.. فإن شئت نعود إلى مراكبنا، ونتابع رحلتنا.

ـ لا.. لا.. أنا أشعر بالإشفاق عليهم، وأودّ البقاء هنا لمساعدتهم.. أتدري

يا فينيقيل..؟ تنتابني في هذه اللحظة مشاعر غريبة.. أحسّ أن بيني وبين هذا المكان، وأهله نوعٌ من القربى.. ويجب أن.. أن..

ـ فهمتك مولاتي.. ونحن سنفعل ما تشائين.. انظري.. انظري كيف يُراقبوننا بدهشة..!

ـ إنهم يروننا أعجوبةً، أو معجزةً هبطت عليهم من السماء.. يبدو لي أنهم لم يروا من قبل إنساناً يأكل خبزاً.. وهم لا يعرفون النار.. أرأيتَ كيف مدّ أحدهم يده إلى نارنا، ولمسها ليتعرّف إليها..؟

قلتُ ضاحكاً:

ـ وقفز في الجوّ يُولول، وينفخ على أصابعه، ثم ركض مسرعاً ليختبئ بين الأشجار، وكأنه يظنّ أن النّار ستُطارده، وتُفتّش عنه..!

تبسّمتْ بأسى، وهي تهزّ رأسها الجميل، فقلت لها بتصميم:

ـ لكنْ ما شأننا بهم سيدتي..؟ نحن مُجرّد تجّار، ويهمّنا أن نبيع، ونشتري.. فماذا سيعطينا هؤلاء القوم مقابل كنوزنا..؟ أرى أن..

قاطعتني بشيء من الحدّة:

ـ لا يا فينيقيل.. سنبقى هنا.. قلتُ لك إن صوتاً يصرخ بي من داخلي، يأمرني ألّا أغادر هذا المكان..! سنبقى، وسنعطيهم قدر ما يتحمّلون..!

عقدت الدهشة لساني، ولم أعرف، إن كنتُ قد صرخت:

ـ ألا ترين أنهم متوحّشون مولاتي..؟!

ـ ولهذا بالضبط سنبقى هنا..

ـ مولاتي..!!

ـ لننتظر الغد، ولنفكّر في الأمر مليّاً.. دعوا البضائع هنا، ولنعد إلى مراكبنا.. وسنرى ما سيفعلون..

لم يُحرّك هؤلاء القوم ساكناً في تلك الليلة، ولا في الليلة التالية، فلم يضعوا ثمناً لبضائعنا كعادة سابقيهم، ولم يمسّوها أيضاً.. لكنهم كانوا ينتظرون عودتنا على

ما يبدو.. فهاهم يتلمّسون ملابسنا باستغراب، وحتى ذلك الذي أحرق يده، وداويتُه بالزيت وبعض الأعشاب، صار يتمسّح بي مُمتناً..!

ـ أرأيت يا فينيقيل..؟ علينا أن نُعلّم هؤلاء المتوحّشين ـ كما تسميهم ـ كيف يعيشون..

ـ لكنّ هذا يتطلّب زمناً طويلاً..

ـ نستطيع أن نمكث هنا عاماً، وبعض العام، لنعلّم أهل هذه البلاد الحياة..

ـ وبلادنا سيدتي..؟ فينيقيا..؟!

ـ تعود إليها أنت، ومن يريد الذهاب من البحّارة، وتأخذ معك ابنتنا (عين الطيب)، لتتعرّف على بلاد أبيها وأمّها.. يجب أن تعرف البنت مدننا، معابدنا، زجاجنا، وكتابتنا.. وأنا أبقى هنا مع من يرضى من الرجال.. لننذرْ من أعمارنا عاماً من أجل هؤلاء يا فينيقيل.. وحين تعود في العام المقبل، ستجدني بانتظارك..

ـ لا يا مولاتي.. يكفيهم أن نقضي معهم عدّة أيامٍ، نعلّمهم فيها ما نستطيع، ثم نعود إلى بلادنا، وإن عدنا إليهم في العام المقبل، نُعلّمهم أشياء جديدة..

ـ لن أرحل، فأنا سأعلّمهم الزراعة، إنه عامٌ واحدٌ.. وعليك التّحمّل.. أم أنك نسيت أنّي كاهنة الربّ، وعليّ إيصال كلمته، وحكمته إلى من أستطيع من خلقه..؟!

لم أستطع إقناعها، فرجوتُها أن أبقى معها، لكنها رفضت بشدّة:

ـ عليك أن تعود بما جنيناه إلى بلادنا، وفي الموسم المقبل، تُحمّل المراكب ببضائع جديدة، وتعود إليّ.. وهناك أمرٌ آخر يا بحّاري العظيم..

ـ ما هو مولاتي..؟

سألتها، والحزن والخوف ينزّان من أوصالي، وثيابي.. فأجابني تصميمها الدّامع:

ـ فينيقيا.. بلادنا.. لانستطيع أن نتركها معاً.. لذلك يجب أن تعود.

عدتُ مرغماً إلى المراكب، بطفحٍ من الأسى، يلوّن وجه المتوسط..! وأقسم إنّي مُذ أدرتُ لها ظهري، اشتقتُ إليها..! ورأيت بعض البحّارة يبكون لفراق سيدتهم، وقد تجمّدت أذرعهم على المجاديف..! مراكبنا وحدها تسعى طروبةً إلى الشرق.. إلى فينيقيا.. أو هكذا ظننت عندما سمعتُ عزيفها، وهي تركب الماء والريح.. لكن غناءها كان مواويلَ أمّ ضيّعت وحيدها..! كانت تبكي غناءً موجعاً، ظننتُه من غفلتي طرباً..!

....

شفق تقاوم النوم، وأنا أحكي لها حكاية سيليا، مُتقمّصاً، أو متوهماً أنني فينيقيل، وأنها هي القدّيسة سيليا..! وأتحيّر للحظاتٍ كيف أنها معي هنا على السفينة، ومازالت هناك تبني لأجدادنا مكاناً للحب، والحرية، والكتابة..!! وأنا مذ عدتُ بالمراكب، لم أستطع النظر غرباً، مخافة أن أخالف أوامر الملكة، ولا أعود إلى فينيقيا..!

خُيّل إليّ أن امرأتي قد غفت، فأمسكتُ عن الكلام، كيلا أخدش هشاشة نومها.. لكنّ صوتها الأسمر فاجأني متسائلاً:

ـ وماذا جرى بعد ذلك، هل عدتَ فعلاً إلى الشرق..؟

ـ أمعنتُ في الإبحار شرقاً رغم أنف الريح، والبحر، والمراكب، كي لا أعصي أمر سيدتي.. وبدأت (عين الطيب) تذبل كزنبقةٍ زرقاء مقطوفة من حضن أمّها..! حاولتُ أن أطعمها بعض التين المُجفّف الذي كانت تحبه، لكنها ترفضه، وتُغمض عينيها الزرقاوين عنه، كما يُغلق الله ستائر السماء مساءً..!

أحسستُ أنها غفت الآن بالفعل، فأزحتُ رأسها، ووضعته برفقٍ على الوسادة، كي لا أوقظها..

ـ فينيقيل.. حبيبي.. لماذا تركتني..؟ تعال، وأكمل لي حكايتنا..!

ـ حسناً سيدتي.. استمرّ إبحارنا شرقاً أكثر من شهر، لكن الريح توقفت فجأةً، وصار البحر صقيلاً كالسيف، بلا موجةٍ واحدة.. والمجاديف بدأتْ تتأبّى على سواعد

الرجال.. لأوّل مرّةٍ أحسّ أن البحر يعصي إرادتي، والدّفة لا تريد الانصياع لي.. أغالبها، لنتابع طريقنا شرقاً، لكنها تدور، لتُبحر غرباً، نحو سيليا..!

أتعرفين يا شفق أنّ للسّفن أشواقَ قلوب بحّارتها..؟

لم أعد أستطيع كبح جماحها، رغم أن معصميّ تخدّرا لكثرةِ ما بذلتُ من جهد.. لكن..

ـ والله العظيم ـ يا مولاتي المراكب نفسها هي منْ حرنتْ، وتمرّدت عليّ، أكرهتني على إطلاق أعنّتها لتتجه نحوك..!

ـ ما بك فينيقيل..؟ أتخاطبني، أم تخاطبها..؟ أتدري..؟ أشعر بالفعل أنني الآن هناك، وأنت تقود المراكب إليّ.. وأن سفينتنا في تلك الرحلة، كان اسمها سفينة الحرية، ألم يكن اسمها كذلك..؟

ضحكتُ انتشاءً بتماهينا، وأنا أمسح على أفواف شعرها:

ـ أجل يا شفقي.. وعادت مراكبنا تشقّ عباب المتوسط إلى سيليا، عادت راقصةً على ذؤابات الموج، الذي تواطأ معها، حتى أن رحلة عودتنا لم تستغرق سوى نصف الوقت الذي تحتاجه..! ولما ظهرت طلائعنا، ورأتها سيليا، طارت صوبنا، ركضت في الماء مسافة شوق.. لكن أحد سكان المنطقة، أرعبه مارأى منها، وظن أنها ستتركهم، وتسافر على المراكب التي عادت ـ كما توهّم ـ لاصطحابها، فتناول رمحه الغاضب، ووجّهه إلى ظهرها..! وسارع يخوض الماء إليها، بينما قفزتُ أنا من المركب، ظناً مني أنّ للهفتي وخوفي جناحين أقوى، وأسرع من جميع المراكب ومجاديفها.. وصلنا إليها معاً.. كانت تحاول التماسك، كي لا تسقط في الماء.. حملتُها بين ذراعيّ شلال ضياءٍ يدمى.. وخرجت بها من الماء، وذاك القاتل يلحق بي.. وضعتها بهدوء على الشاطئ، سحبت الرمح الغادر من ظهرها، ففار الدم نافورة شفقٍ وأنين..! نظّفتُ الجرح، وضمّدتُه بأوراق الشجر، والأعشاب.. ثم غسلتُ وجهها، فأفاقت، وتبسمت لي، وهي تهمس:

ـ عدتَ حبيبي..؟

نعم حبيبتي.. هل أنت بخير، أما زال الجرح يؤلمك..؟!

وقبل أن تُجيبني، هجمتُ على طاعنها الذي كان يعوي قرب قدميها معتذراً.. أريد تمزيقه.. فرجتني ألّا أفعل:

ـ لا يا فينيقيل.. لا تؤذه.. فقد كان يحاول منعي من مغادرتهم.. إنه يحبّني، وهو من أنشط العمال الذين بنوا معي هذا الحصن.. انظر ما أجمله..!

ـ لكنه كاد يقتلك مولاتي..

ـ لا يا فينيقيل لا.. لن يستطيع قتلي، ولو أراد.. فرسالتي لم تكتمل بعد.. ثم إنهم بدائيون، وهذه طريقتهم في التّمسك بمن يحبونهم.. فإمّا أن تبقي لنا، أو تموتي..!
أرأيت أعنف من هذا الحب..؟!

وضحكنا أنا وسيليا، وعاشقها ذو الرمح الأسمر.. وملأت ضحكاتنا أرجاء المكان..

ـ وماذا بعد..؟

قالت شفق المُتلهّفة لمعرفة نهاية الحكاية:

ـ ماذا حدث بعد ذلك..؟ هل عدتما معاً..؟

وقبل أن أجيبها، اجتاحتني رغبة غامضة، لأرفع قميصها عن ظهرها، وأعاين بقعةً خمريةً، لفتت انتباهي من قبل.. لا أعرف لماذا تذكّرتها في هذه اللحظة بالذات..!!
وخُيّل إليّ أني رأيت الدائرة الخمرية تتوهّج، كأن الدماء ستنفر منها عما قريب..!
قبّلتها بحنين مُبهم، وأظنّ أني بكيت..!

ـ ما بك حبيبي.. أهذا وقته..؟! أكملْ لي قصة سيليا.. هل عُدتما ذلك العام..؟

كفكفتُ نداوة حيرتي، وقلت:

ـ عشنا في تلك البلاد ردحاً من الزمن، وبنينا بيوتاً ومعابد..

ـ وما مصير عاشق سيليا..؟

ـ زوّجته لفتاة جميلة من شعبهم، كما زوّجتْ بحّارتها أيضاً من بنات تلك المنطقة..

ـ ومن صُلب هؤلاء جاء أجدادك.. أليس كذلك..؟

ـ أجل حبيبتي.. ها قد وصلكِ كلّ شيء.. نامي الآن فقد تعبت..

....

عادت كلاب الماء الإسرائيلية لتُضيّق البحر علينا، ونحن مازلنا في المياه الدولية، وصارت تنبح مقتربةً أكثر فأكثر، كأنها ستُطبق على السفن بين لحظةٍ وأخرى..

اتصل القبطان التركي ببلاده، وعاد ليُخبرنا أن السيد رئيس أركان جيشهم يُجري الآن اتصالاته بالقادة الإسرائيليين..

ـ حول ماذا يا سيدي..؟

سألته كريستين هازئةً، وأردفت بمرارة:

ـ أشعر أن قيادتكم يا قبطان النراجيل القوميّة، تسخر منا..! ألم يكتفوا بالمصيدة التي دبّروها لأسطول الحرية السابق..؟!

قالت شفق، وكأنها تُكمل ما قالته كريستين:

ـ يبدو أن الدماء التي سالت على متن (مرمرة) لم تكن كافية لإنضاج الصفقة..!

اصفرّ وجه القبطان، وقال مُتلعثماً:

ـ أنا لا أفهم عمّ تتحدّثان.. ما أعرفه هو أن بلادي خسرت عدداً من الضحايا في تلك الرحلة، ونحن لسنا نادمين، والدّليل أني معكم الآن..

ومرّت صليةُ رصاصٍ فوق رؤوسنا، فصرخ الإسباني غاضباً:

ـ ليست مشكلتنا إن كنت لا تفهم ما يدور حولك.. خبّئ سذاجتك في جيب سروالك، فهي لا تنفعنا، ما يفيدنا الآن هو أن تتصل بقيادتكم، ليتفاهموا مع شركائهم، ويمنعوا تكرار مجزرة (مرمرة)..

ابتعد الإسرائيليون قليلاً، وكأنما ليفسحوا لي المجال، كي أقتنع بأن هذا الشاب ندٌّ حقيقيّ.. بل غريمٌ قويّ في عشق كريستين..!

وأسفتُ لأنه لم ينل إعجابي إلا في الوقت المُستقطع..!

....

توقفتْ سفن السلام العزلاء، مكبّلةً بحصارٍ فرضته عليها الزوارق الإسرائيلية.. وتكرمشت معها نشوة البرفسورة برطل الرمل الذي ظفرت به من سيناء، وسقط من يدها السيكار الذي قدّمه لها الأمريكي الجذل، وقد أحصى إلى الآن مئتين وسبعين توقيعاً من المصريين على رسالته التي يصفها بالعالمية..! وضحك كطفلٍ وجد عصفوراً، حين تذكّر أن يُضيف اسمي ولديه إلى الرسالة، ورجانا إنْ كان لدى أيٍّ منّا ولد، أن يوقع عنه، فلا شك عنده أن كلّ أطفال العالم يحبّون السلام..

هتفت البرفسورة:

ـ نعم.. نعم.. أحفادي.. سأوقع عنهم، وسأتصل بهم الآن ليباركوا الأمر..!

ضحك الفرنسيّ، وهو يحاول مغازلتها:

ـ أحفاد..؟! لا أصدّق أن شابّةً مثلك لديها أحفاد..!

ـ شكراً .. شكراً (مسيو)..

ولم يدعها تُكمل التعبير عن فرحتها بإطرائه الدّسم، فقد أردف غامزاً:

ـ وهل سيوافق أحفادك (اليهود) على هكذا رسالة..؟!

ـ أوه.. نعم (مسيو)، وسأدعك تسمع رأيهم بأذنك..!

وسارعت بوضع الرّمل المقدّس على الطاولة، وأخرجت جوّالها، لتحاول الاتصال بأحفادها، فقاطعها القبطان بما يشبه الاعتذار:

ـ لن تستطيعي الاتصال بأحدٍ سيدتي.. فالإسرائيليون وضعونا خارج التغطية..!

سأله الأمريكي مستنكراً، وهو يُعيد ترتيب أوراق رسالته:

ـ وهل يجرؤون..؟ لا يحقّ لهم..!

تعالت الهمهمات، وحاول الجميع الاتصال بذويهم دون جدوى..

ـ لا تبتئسوا كثيراً أيها السادة.. لا تُبدّروا حزنكم، فالآتي أعظم.. فهم يُشوّشون على رادارات السفينة أيضاً..!

قال القبطان بحرقة.. بينما ألقتْ البرفسورة جوّالها يائسةً، وهي تقول بأسى:

ـ يبدو أننا مُحاصرون تماماً..

واتجهتْ إلى الأمريكي مُعتذرةً.. فهي لن تُوقع عن أحفادها دون إذنهم.

ـ أما أنا فأستطيع الاتصال بأولادي متى شئت.. وأعرف أنهم موافقون، لذلك سأوقع عنهم بأسمائهم..!

قالت شفق ذلك، وطلبت من بوب أن يسجّل أسماء أولادها على الرسالة: الشهيد سامر، الشهيد فادي، الشهيد نوّار، أمّا ضحى فلا أعرف إن كان لديها الوقت للتّوقيع، فهي مازالت في المخيم، تقاوم الطائرات بمقلاعها الصغير..!

نظرتُ إلى الأمريكي المشغول بتسجيل الأسماء، وسمعته يستفهم من شفق مستغرباً أسماء أولادها المُركّبة التي تبدأ جميعها بنفس المقطع: (الشهيد).. ضحك الأسف، والأسى في عروقي، عندما استوعبتُ أن الرجل ظنّ كلمة الشهيد جزءاً من الاسم.. أو لازمةً لابدّ منها في مطلع جميع أسماء الفلسطينيين..! حاولتُ أن أشرح له، لكنّ القبطان تكفّل بذلك، لمّا أحسّ بأسلاك الدّمع تُطوّق مخارج حروفي، وأنفاسي:

- السيدة تعني أن أبناءها قتلى في سبيل الوطن..

ولفّ طاولتنا ومساءَ البحر حزنٌ وغموض..! وفجأةً التحمتْ كريستين وغريمتها اليهودية في عناقٍ دامعٍ، بعد حديثٍ طويل هامس بينهما:

- نعم عزيزتي.. أنتِ لستِ جدّك النازي هتلر الذي..

وغصّت البرفسورة بباقي عبارتها وتسامحها، فأجابتها كريستين:

- وأنت أيضاً صديقتي، لا علاقة لك بالمجرمين من اليهود..

ابتسمتُ مُستبشراً بانتهاء العداء بينهما، وأنا أمسح على خصلات شعر شفق مواسياً.. بينما كانت عيناها الشتويتان مرفوعتين إلى السماء، كأنها تراقب أولادها وهم يطوفون في فردوس الله بأجنحةٍ نورانية..!

استفاق بوب أخيراً، ليسألها مُستنكراً:

- أتوقعين بأسماء الموتى سيدتي..؟!

- إنهم ليسوا موتى، إنهم شهداء.. أحياء..!

أجابته بحدّة، ولعلعتْ فوق رؤوسنا أصوات الرّصاص من جديد..

- الإسرائيليون يُذكّروننا بوجودهم حولنا..

قال القبطان، وهو يُقدّم النارجيلة لشفق، ليُخفّف قهرها، أو يُعزّيها قليلاً..

- صدّقيني سيدتي أن أبناءك هم أبناؤنا جميعاً..

قالت البرفسورة بصوتٍ دافئ حانٍ، فأومأ الجميع برؤوسهم مُؤكّدين.

وكأنّي لمحتُ طيف دمعةٍ في عينيّ الأمريكي الذي دنا من شفق، وراح يُطبطب على كتفها مُواسياً..

فجأةً.. قال روبيرتو بتأثّر كمن ينزف كبده:

ـ أتعرفون أيها السّادة، أنّي في هذه اللحظة حاقدٌ على أجدادي إلى أبعد الحدود..؟

ظهرت علامات الاستغراب على وجوه الجميع.. وتداخلت التّعليقات اللّاذعة، حتى صارت تحتاج إلى إشارة مرورٍ لتنظيم سيرها:

ـ معقول.. أنتَ تحقد على أجدادك الذين فتحوا للعالم أبواب المجد..؟

ـ لاااا..أجدادك.. أليسوا هم أعظم البحّارة..؟

ـ يا رجل.. ثقبتَ مسامعنا بهم، فلم تترك فضيلةً إلا وألصقتها بهم.. والآن تقول إنك.. هه.. هه.. هه..

امتقع لونه، وقست قسماته، لكنه استطاع بروحه المطّاطة أن يمتصّ سخريتهم، ويقف بينهم رافعاً رأسه، ويقول:

ـ نعم حاقدٌ عليهم، فقد لطّخوا مآثرهم العظيمة بتساهلهم، وتسامحهم الكبير مع اليهود..

لاح رأس البرفسور الفرنسي يميناً وشمالاً، وهو يبتسم مُتهكّماً، وقال:

ـ أجدادك.. أجدادك..؟!

ـ أجل ياسيدي، ألم تسمع، أو تقرأ عنهم أيها المؤرّخ العظيم..؟!

أجابه البرفسور، وهو يحكّ مؤخرة رأسه:

ـ أنسيتَ محاكم التّفتيش التي أقامها أجدادك لليهود، والمسلمين على حدٍّ سواء.. بينما كان العرب المسلمون يتعايشون معكم، ومع اليهود دون أيّ تمييز..؟ بل إن محاكم التفتيش تلك، كانت تحكم بالإعدام حتى على المسيحيين من غير الكاثوليك..!

ـ اهدأ يا سيدي..

قالت له شفق راجيةً، وأردفت:

ـ لقد انتهى زمن المفاخرات القومية، والمماحكات السياسية والفكرية، فنحن الآن في ورطةٍ.. ولا نعرف إن كنا سننجح في مهمةٍ، جمعتنا هنا جميعاً، أم أننا سنكون مشكلةً جديدة تُضاف إلى عالمٍ من الورطات، والمشاكل..!

ـ ألا تسمعين قاتل الثيران هذا سيدتي..؟ إنه يريد أن يُلصق كلّ أمجاد العالم بأمته الإسبانية من علوم البحار، إلى التسامح الديني..؟!

زفر الأمريكي باستياء، وقال مخاطباً الجميع:

ـ نحن فعلاً في ورطة أيها السادة، ولا مجال الآن لأيّ نقاشٍ إلا في كيفيّة الخروج منها.. ألا تلاحظون أنّ معظمنا ينتمي إلى دولٍ تربطها علاقات جيدة بإسرائيل، ومع ذلك هي لا تقيم وزناً لذلك، علينا جميعاً أن ننقل هذا الأمر لدولنا عندما نعود..

تدخّل القبطان التركي بعصبية:

ـ أخشى إن طال توقيفهم لنا، أن تنفد مؤونتنا..

علّقت الإنكليزية بمرارة:

ـ نستطيع أن نشرب الحليب الذي جلبناه معنا لأطفال غزة..!

أومأ الفرنسي بغليونه الفارغ، وقال:

ـ الصبر أيها السادة.. فالتاريخ لا يُصنع بين عشيةٍ وضحاها.. ولاشك أن حكوماتنا ستفعل شيئاً..!

واستمرّت الزوارق الحربية تدور حول الأسطول وكأنها تسمع ما نقول، وتردّ علينا بأعلى درجةٍ من الاستهتار..! وهنا تدخّلت اليابانية، لتقول بانفعال:

ـ ستكون ليلتنا من أطول الليالي التي عشناها على هذه السفينة..

تنهّد الإسباني، وقال، وهو يرمق كريستين:

ـ إنهم يحاولون إخافتنا فقط.. فيجب ألّا نفقد شجاعتنا، ولنحاول أن نجعل سهرتنا هذه أفضل من سابقاتها..

ردّ القبطان التركي بشيء من المرح:

ـ أجل.. معك حقّ.. وأنا سأجدّد رأس النارجيلة، وأرجو أن تكون السيدة اليابانية قد اقتنعت بأن النارجيلة التركية اختراعٌ مهمّ.. يُخفّف من ضغوطات المواقف..

قاطعه الأمريكي:

ـ أرجو ألّا تعودوا إلى مُناكفاتكم القومية، فلنتّفق جميعاً على أننا ننتمي لقوميةٍ واحدة هي قومية السلام..!

مدّت الإنكليزية يدها لكريستين، وهي تقول:

ـ لا أعتقد أنّ أحداً منّا تنقصه الشجاعة، ليُعلن انتماءه لهذه القومية.

وصافحتْ يدها الممدودة يد صديقتها اللدودة، فصارت يداهما نواة تلٍّ من الأيدي التي رُصفت فوق بعضها في عناقٍ طويل، كأنها تُوقّع على ميثاق هيئة أممٍ متحدةٍ جديد، وفريد..!

ويبدو أن حرارة الموقف قد أثارت الفرنسي، فاقترح أن نكتب خطاباً مشتركاً، نقدّمه إلى دولنا فور عودتنا، نسجّل فيه احتجاجنا على همجية الإسرائيليين.. لم يعترضْ أحدٌ على ما قاله البرفسور، بل رحّبوا جميعاً بالفكرة، حتى أن الإسباني ذهب إلى قمرته ليحضر النبيذ، وهو يقول:

ـ اتفاقنا يستحق أن نشرب نخبه..

وحين عاد، كان القبطان قد جهز النارجيلة، وراح يدخنها بالتناوب مع شفق، بينما بدأ الفرنسي بصياغة خطابه الأمميّ الجديد.. وشرب الجميع نخب مشروع الخطاب، قبل أن يكتمل.. فجأةً شغّل زورق إسرائيلي كشّافه، ووجّههُ نحونا مطلقاً صفرةً قوية، فغطّت الإنكليزية عينيها من شدة الضوء، وهي تقول:

ـ لابد أن هؤلاء الأوغاد قد اشتمّوا رائحة شيء، فأرادوا أن يقولوا لنا:

(أنتم تحت أعيننا.. ولن تستطيعوا فعل شيء..!)

وحين استدار الزورق مبتعداً بكشّافه، كان الأمريكي مُنهمكاً مع الفرنسيّ بتدقيق بعض العبارات.. بينما استمرت رشقات الرصاص، تُقلق سكون الليل واتفاقنا..

ـ إنها ليلةٌ قمراء جميلة..!

قالت كريستين، وكأنها تودّ لفتَ انتباهنا إلى شيءٍ، كدنا ننساه في غمرة ما نحن فيه.. نظرنا جميعاً إلى السماء التي تتحدّى بصفائها غلّ ما يُحاك لنا.. وفي هذه الأثناء تنهّد الفرنسي، معلناً انتهاءه من كتابة البيان، ثم وقف بيننا كخطيبٍ عريق، وقرأه بنبرته الخطابية، متحدّياً الجنود المتربصين بنا في زوارقهم.. وافقنا جميعاً على ماسمعناه، ووقعنا عليه آملين أن يصل قريباً إلى كلّ أنحاء العالم..

ـ والآن مارأيكم بالإستماع إلى شيءٍ من الموسيقى، فصديقنا روبيرتو عازف (غيتارٍ) بارع..؟!

قالت كريستين، وطلبت منه أن يُحضر (غيتاره)، قبل أن تسمع رأي أحد منّا.. فهتفت اليابانية :

ـ أوه.. وأنا أريد أن أسمعكم أغنيةً، إن كان لايزعجكم ذلك..

جنّ جنون الإسرائيليين، وهم يسمعون الأنغام العذبة، والأغاني المُتحدّية، تنطلق من السفينة المُحاصرة، فراحوا يطلقون في الفضاء شتائمهم الغاضبة، مشفوعةً بالرصاص، الذي لم يستطع صوته أن يُخرس أصوات الجوقة الأمميّة..!

وقبل ختام السهرة، طلبت مني كريستين أن أُسمع رفاقنا أغنيةً، بعدما أخبرتهم أنني أملك صوتاً شجيّاً، سمعته على شاطئ النورماندي.. فلم أستطع الاعتذار، وبدأتُ الغناء محاولاً الانسجام مع عزف الإسبانيّ..

وحين كررتُ القفلة، وقف الجميع، وراحوا يُردّدونها، وعيونهم تطفح بالدموع، والصدق..! حتى أحسستُ أن الأغنية صارت جزءاً حقيقياً من كل واحدٍ منهم..! وتعالى صوتُ الرصاص الإسرائيلي، وتعالت أكثر صيحات الجوقة..

فتأكدتُ الآن أننا بتنا رعايا وطنٍ واحد..!

....

فاجأتني هواجس شفق فور نزولنا إلى قمرتنا، وانقبض قلبي عندما قالت بما يشبه النجوى:

ـ مازلتُ أخافك يا فينيقيل..!

ـ تخافينني..؟! لماذا..؟

ـ لأنك لا تؤمن..

ـ لا يا شفق.. الموضوع ليس كما تتوهّمين.. أنا فقط لا أعترف بإلهٍ يأمر بالقتل..

ـ لاتنزعج مني حبيبي.. فأنا أريد أن أطمئن عليك.. أريدك مؤمناً بالخالق العظيم، لتشعر بالأمان، والسلام الروحيّ..

ـ لا تخافي حبيبتي.. أنا مؤمن بربّ الجمال والمحبة.. الربّ الذي خلقنا على صورته الرحمانية.. أتعرفين عزيزتي أنّ لكلّ إنسانٍ إلهاً يشبهه..؟!

وقاطعتُ نفسي حين تذكرتُ أن الفجر سيبزغ بعد أقلّ من ساعة، وأننا نزلنا إلى هنا لنرتاح قليلاً بعد تلك الأمسية الصاخبة التي هدر فيها الإسرائيليون الكثير من أمشاط الرصاص، بينما استعرضنا شجاعتنا أمامهم بالموسيقى والغناء..!

كانت ليلةً فريدة..! أذهلتني فيها أشياء كثيرة، أهمّها بوح الأمريكي الذي قال هامساً، وكأنه يُحدّث نفسه:

ـ أتعرفون أيّها الأصدقاء أن هذه الرحلة قد غيّرت فيّ أشياء كثيرة..؟!

فقالت البرفسورة الإنكليزية بتصميم وثقة، وكأنها تكمل ما قاله:

ـ وأنا أيضاً..! حتى إن إيماني اليهودي لم يعدُ كما كان..! فليس معقولاً أن يكون الله الذي كانت أولى وصاياه (لا تقتل).. هو نفسه (يهوه) الذي يُكرّسه الإسرائيليون كإلهٍ لهم، يعطيهم الحقّ بالقتل..!

تدخّلت الألمانية موجّهةً كلامها للإنكليزية:

ـ أما أنا فلم يتغيّر عندي شيء، وما زلتُ مؤمنةً بذات الربّ الذي قال:

(أحبّوا مبغضيكم، وباركوا لاعنيكم..) ومازلتُ خضراء رغم إيماني بميثاق

(قومية السلام) الذي يجمعنا هنا..

ـ تعال حبيبي نعود إلى السطح، إلا إذا كنتَ تريد النوم..

قالت شفق برجاء، فأمسكتُ ذراعها دون كلام، وصعدنا معاً..

كان المكان خالياً إلا من الهدوء اللزج الذي يقطعه حفيف الرايات كالهمس الخجول.. جلسنا كعادتنا المغرقة في القدم، أنا مُتكئ على الصّاري، وهي تضع رأسها في حجري، وحين نظرت نحو السماء، رأيت فلول النجوم تُجدّف في فضاءٍ دمويّ.. دسستُ أصابعي في شعر امرأتي، ونظرت في عينيها، كانتا مُعلّقتين في السماء، وفي نقاء وسعهما رأيتُ صور الرحمة.. وبدأتْ رطوبة الصباح والحبّ، تتكاثف فوق رأسينا كقبةٍ من زجاج..!

ـ المسها حبيبي..

ـ ماهي ياشفق..؟

ـ السماء البلّورية فوقنا.. إنها شفّافة، وقريبة جداً، هي فوق رأسك تماماً..

مددتُ يدي ضاحكاً، وأنا أقول:

ـ ها أنا أتحسّسها. أتعرفين يا حبيبة أنّ لها طعم أثداء..؟!

ـ تتذوّق بأصابعك..؟!

ورفعتْ رأسها جذلةً بعبير النّسيم الفلسطيني، في هذه اللحظة لعلع الحقد والرصاص، وتكسّرتْ سماء الله فوق رأسينا.. صرخت فزعةً، وشدّت قبضتها على

ذراعي بقوة، وحين رأيت جرحها، أيقنت أن الحياة نفسها فقاعة صابون، كلما حاولنا إمساكها هربت ساخرةً، وذابت في الهواء..

ـ إنه مُجرّد خدش حبيبي لا عليك.. ولكن.. قل لي هل رأيت مثل هذا في كاميراك..؟!

ابتلعتُ اختناقي المرير.. كانت الرصاصة قد مزقت ساعدها الأيسر، وفجأة رأيت جميع الأصدقاء حولنا، والقبطان يحمل علبة الإسعاف، وينادي الطبيب ليُضمّد لها جرحها.. ارتفعت الشمس موشاةً بعصير دم.. ومازالت عيناي معلّقتين بشفق، وهي تحاول أن تكتم ألمها، مبتسمةً لي ذات الابتسامة المقصوصة من ذكريات الحب مع أنّ شفتيها دخلتا طور الشحوب..

ـ ما بكِ حبيبتي..؟ جرحك طفيف، لا تخافي..

ـ لست أدري.. أشعر أن الهواء أصبح حاراً..

فجأةً صار الرصاص يُزمجر في كلّ اتجاهٍ كزوبعةٍ مجنونة، وركاب السفينة يتراكضون مذعورين، ثم يتساقطون واحداً تلو الآخر.. اصطدمتْ بعض الطلقات بالصاري المعدني فوق رأسينا، فقدح شرراً كالزناد، ضممتُ شفق، بل هي التي ضمّتني كأنها تحاول حمايتي.. ولم نعد نعرف من أين يأتي الرصاص..

ـ هل أصابوك أنت أيضاً..؟

ـ لا أدري. لكن وجعاً كطعم المسامير الساخنة في كتفي، يخز بعمقٍ، ودفء..

ـ إذاً هيّا نذهب إلى الطبيب، هيّا حبيبي.. ارتدِ أجمل ثيابك..

وتراخى جسدها بين ذراعي..

ـ حبيبتي.. أفيقي أرجوك..

هززتُها، وأنا أصرخ:

ـ شفق، حبيبتي.. لا تتركيني أرجوك..

وسمعتُ كأنّما في حلم صراخ بوب:

ـ لا.. لا تطلق النار عليّ، أنا أمريكي..

وكأني سمعتُ صوت الإنكليزية:

ـ وأنا يهودية مثلكم.. لا تقتلوني..

ارتعشت شفق بين يدي، وأطبقت عينيها، فجنّ جنون قلبي، وهصرتها بكل ضراوة الحب والخوف:

ـ استيقظي حبيبتي، شفق.. شفق.. أفيقي أرجوك..

فتحت عينيها كهلالين هزيلين، وهمست:

ـ خذ هذه اللعبة لابنتنا في المخيم.. اسمع: لا تقاطعني.. أعطها أيضاً الكاميرا التي في عنقك، كي لا تنسى..

ارتعش صوتها، وبدأ يغيب كنجم بعيد في العتم.. حملتها بين ذراعيّ باقة دمعٍ.. وكان دمي مايزال يقطر على وجنتيها.. رفعتُها إلى فوق، أكثر من جرحي، وصرخت:

ـ إلّا هذه يا إيل.. لن أسمح لك أن تأخذها مني.. ألم تشبعك كل تلك الجثث ، ألم تروِ عطشك كل تلك الآماد من الدماء..؟

ركعتُ، ووضعتها على ركبتيّ طفلةً ذبيحة..

ـ افتحي عينيك.. تنهّدي قليلاً.. لا ترحلي باكراً..أما تعاهدنا على خلود الحب، فلا تغدري بي، وتسافري قبلي..

انقلبت كفها المثقوبة بارتخاء الذهول، ولامست سطح السفينة المعدني البارد، الذي لفحته الدماء، وغطته الأشلاء.. نظرتُ ثانيةً إلى السماء، وهمست:

ـ إن كانت هذه إرادتك فسمعاً وطاعة.. فأنا لاحول لي أمامك ولا قوة، لكنني أرجوك أن تشبع.. بل أظن أنك ستُتخم بها.. فهي ستملأ عليك السماء، ستسدّها.. ولن تأخذ بعدها أية أضحية منا..

شعرت في هذه اللحظة بدفقةٍ عطرةٍ تنسكب على رأسي.. ابتسمتُ من عمق الألم، فقد أدركتُ أن تلك الدفقة لم تكن سوى دموع إيل..! فاطمأنّ قلبي لإلهي الرّحيم.

وتساقط المطر على المتوسط كدموعٍ ساخنة، لقد كان الله يبكي دفئاً، وحناناً حزيناً على أحبّته المتناثرين بين أشداق الموت المالح.. وانتبهتُ لأرى جثة البرفسور، تنعقد إشارة استفهام حائرة، وتسألني:

ـ هل رأيتَ غليوني..؟

والإنكليزية كانت تذرفُ دمها بأناقة، وهي تغمغم:

ـ ربّ (موشيه) ليس (يهوه) ربّ هؤلاء القتلة..

وكأني سمعتها تخاطبني برجاء:

ـ خذ رطل الرمل إلى أهلي في لندن، وقلْ لهم: إن (موشيه) قد مشى عليه أثناء ذهابه وإيابه من عند الربّ، الذي ليس في إسرائيل شخصٌ واحدٌ يطيع وصاياه.

ـ سيدتي.. سيدتي..

هززتُها، ففتحتْ عينيها ببطء، وأشارت بيدها إلى أشباح الجنود الذين مازالوا..

ـ لقد عادوا.. قل لأهلي: إني لستُ يهودية، إن كان هؤلاء يهوداً..

وعاد نسيم غزة يعصر السفينة بحزنٍ أحمر كثيف.. كثيف أكثر من الدم.. صار ينزّ من صدوع البشر والحديد.. طاش حجري، وصرتُ أروح، وأجيء بين الجثث والأشلاء كالمجذوب.. مددتُ يدي الراعشة، كأني أحاول لمسَ روح شفق التي مازالت تنزف بدفءٍ، وسخاء..

أغمضتُ عينيها، وسجّيتها قرب فتاةٍ تركيةٍ قتيلة، مازالت تبتسم لأطفال غزة..

وميّزتُ في عتمة الدخان، وضوء الدم جثمان اليابانية الدمثة، وقد ارتمى مُتكوّراً على الجراح، وكأنها تضمّ يديها أمام صدرها، وهي تُحيّيك..

ـ أرأيت سيدتي.. لم يوفر الموت كل لباقتك.! بل أجبرك على انحناءةٍ مديدة..!

وسبحتْ في التماع الدم كفٌّ مقطوعة، ماتزال يانعة كالشهوة، وتوقفتْ على الحافة، كأنها ترفض الترجّل عن السفينة..

وكان مطر الله قد توقف عن العزف في عينيّ القبطان..! وماتت ضحكته الأخوية، ولغته العربية التي كان سيبويه يحسده عليها.. إنه يسبح الآن في بحر من دمائه، وكأنّه يُجيد الإبحار في الأحمر اللزج، كما في الأزرق الرّخيّ، ولم يعدْ أيّ خيطٍ في بزته ناصعاً كعادة الربان..

ـ إلى أين ستبحر يا سيدي..؟!

فأجابني صمته المديد.. كإرادة الدول الكبرى التي لن تحرّك ساكناً..

وسبحتُ في السّيل الأحمر، أتعثّر بالرصاص، وبأعين الضحايا المفتوحةً بدهشة الموت والمفاجأة..! وهي تنظر بأملٍ قانٍ نحو الأعلام المنشورة على حبل السماء

الدامي..! أمسكتُ جرحي بنصف أصابعي، واللعبة بنصفها الآخر، وزحفتُ بين الأشلاء، حتى استطعتُ التّمسّك بحافة السفينة اللزجة، نظرت نحو السماء المغلقة بإحكام، وناديته:

ـ كنْ معي يا ربّ.. أنا صاحبك القديم.. يا إيل السماوات، أنت تعرفني دون شك..! أنا (فينيق إيل).. عبدك الراضي بما شئت.. فكن معي يارب..

وأفلتُّ الحاقّة المُدمّاة للسفينة، ليحتويني ماء المتوسط الدافئ كمشيئة الله..! سبحتُ بكلّ عزمي الجريح نحو غزة التي تشعّ في البال.. وسمعت صوتاً يناديني:

ـ حبيبي انتظرني.. أنا كريستين..

ـ كريستين يا عزيزتي.. أنت مصابة، فلماذا نزلتِ ورائي..؟!

إنه مجرّد خدش، وسوف نسبح معاً إلى غزة..

ـ إنها مسافةٌ طويلة يا ألمانية..!

ـ إذاً سابقني..

ـ هل مات الجميع على السفينة..؟!

ـ لستُ أدري.. ولكن.. ماذا تحمل في يدك..؟

ـ لا أحمل شيئاً في يدي، بل في عنقي، أحمل الأمانة كالقدر.. الكاميرا.. دمية شفق التي صنعتها لابنتها، ورسالة الأمريكي إلى أطفال إسرائيل..

وشهق البحر بدفقةٍ من دمعها الغضّ..

ـ أشعر بالدوار..

ـ اسبحي يا كريستين، وتذكّري أن الله، والبشرية كلّها معك الآن..!

ـ الخدر يُمسك ساعديّ، تمهّل قليلاً، فلم أعد أستطيع اللحاق بك..

ـ هيّا حبيبتي.. قاومي، لا تستسلمي..

ـ صار البحر لزجاً، إني أسبح في الصمغ.. لكني أشمّ رائحةً قريبة، مازالت تُعشّش في خيوط ثوبي الأرجواني.. هل جننتَ لتُشعل بخوراً في المتوسط..؟!

اصطكّت عظامي، وأظن أن شعر رأسي قد انتصبَ رغم أصابع الماء والملح التي لا تكفّ عن تمسيده، وهجستُ:

(لاااا.. هذا كثير.. بخورٌ وثوبٌ أرجوانيّ..؟!! ربّاه ماذا أسمع..؟!

من أنت أيتها الألمانية..؟!)

قالت، وكأنها سمعت أفكاري:

هل نسيتني بابا (فينيكيل)..؟! أتذكر.. ذات يومٍ أطعمتني تيناً على مراكب سيليا..؟!

ـ يا إلهي..! عين الطيب..؟!! أجل.. كأنّك هي..! لا.. بل أنت هي.. كنتُ أحسّ أنّ ما يجمعني بك أقوى من العشق، تعالي أضمّك إلى صدري يا بنتي..!

ـ لا تقترب مني يا أبي، فأنا أغرق، أموت.. ابتعدْ، كي لا تغرق معي..

ـ لن أدعك تغرقين.. كريستين.. حبيبتي.. يا بنتي.. يا بنة مليكتي سيليا..!

وحملتُها، سبحتُ بها صوب صخرةٍ على شاطئ غزة، صخرةٍ تئنّ بحنين ناقةٍ، مازالت تنتظر حاديها..

ـ الزوارق الإسرائيلية مازالت تدور حولنا..

ـ لن يستطيعوا رؤيتنا، لا تخافي..

مسحتُ جرحها النّازف ورداً كفيروز بحر غزة، الماثل أمامي الآن نقيّاً كالتّوبة..!

وتركتها تسبح وحدها نزولاً عند رغبتها، في هذه الأثناء شعرتُ بأكتافٍ قوية تزاحمني.. وأضاء وهجُ الجلالة طفحَ الشوق إلى المدينة المحاصرة.. إنه إيل.. جاء يسابقني للوصول إليها..!

ـ اذهب عني يا إيل.. لقد قتلتَ كل من أحبّ.. وتركتني وحيداً..!

ـ لا لست وحيداً.. انظر وراءك.. فهذه (عين الطيب) تحاول اللحاق بنا..!

والتفتُّ.. كانت كريستين ماتزال تصارع الموج الأحمر بآخر ماتملك من أنفاس ونبض، وتحاول اللحاق بي..

ـ أرأيت يا إيل.. ستأخذها مني هي الأخرى..

ـ أنت تهذي يا فينيقيل.. لابد أن جرحك عميق.. هيّا أرني..

ومدّ يده ليمسح موضع الطلقة.. ثم بشّرني بجنته، فرفضتُ بإباءٍ عرضه السخيّ، قبل أن أصل غزة، وتلفتُّ إلى كريستين، لأجذبها نحوي:

ـ هيّا حبيبتي حاولي.. اسبحي..

ـ مع من كنت تتكلم..؟

ـ إنه إيل.. ألا ترينه..؟

ونظرتُ نحوه، فلم أجده.. لقد سبقنا كثيراً.. مرّ فوق غزة، وعرج صاعداً إلى السماء، ناديته قبل أن يغلق بابها وراءه:

ـ سأصلّي لك يا إيل.. يارب الأرباب العظيم.. رب اللوح والقلم.. لا تأخذ هذه منّي أيضاً..

وتأرجحت السماء والبحر، كأنّ إيل يهزّ رأسه يمنة ويسرة رافضاً صلاتي..! فحضنتُها، وسبحت بها بكل قوتي..

كان الفضاء أمامنا شريط أرجوانٍ بعيد، والبحر دنّ خمرٍ، يفور لذةً مُحرّمة..!

فغزة تتلألأ الآن في خاطرينا..!

ـ هيّا كريستين اسبحي.. اسبحي لقد وصلنا.

ـ اتركني يا فينيقيل.. واذهب وحدك، فلم أعد أستطيع..

ـ لا يا حبيبتي.. أنت سبّاحة ماهرة، ولم يبقَ إلا القليل..

احتضنتُ خصرها، جذبتها نحوي من جديد، ودفعتُ جسدينا معاً بكلّ ما تبقى فيّ من قوة.. كان صوتها كالنّزيف، وجراحها ترسم وراءها جدائل دم..!

ـ قلتَ لي: إن ملح المتوسط يشفي الجراح..؟

ـ نعم حبيبتي.. هيّا.. ستشفين عما قريب..

ونظرتُ إلى الأعلى باحثاً عن إيل، ألومه، لأنه لم يُبلسم جراحها أيضاً..!

ـ لا تتركني أموت.. بابا (فينيكيل)..

أحسستُ أنها هلوساتُ النّزع، أو ربما صحوة الموت.. وهجستُ:

(لماذا تستيقظ ذاكرتنا البعيدة في لحظات الوداع الأخير..؟!)

ـ لا يا عين الطيب لن أدعك تموتين.. فقط اصمدي قليلاً.. فها هو برّنا الفينيقي يمتد نحونا.. سنصل حبيبتي، سنصل..!

وحين صار الماء أقصر من قامتي، حملتُها بين يديّ، ومشيت محاولاً المحافظة على توازني، ورغم أني تعثّرتُ، وانزلقت، لم أفلتها، بل حاولت النهوض بها، وهي مُتعلّقة بعنقي، وأنفاسها مازالت تُهسهس حارّةً ودامية على صدري..!

ـ ياربّ.. ساعدني يا ربّ..

وكأني أحسستُ بيدٍ قويّة تدفعني، فوجدتُ نفسي خارج الماء..

ـ لا ترحلي يا عين الطيب، لقد وصلنا إلى غزة، افتحي عينيك، لتري جمالها، وتشمّي رائحة برتقالها وزعترها..

فتحت عينيها بصعوبة، وغمغمت:

ـ سبحتُ معك لأذهب إلى المخيّم، ولكن.. لكن..

وتدلّى خيطٌ قانئٌ من زاوية فمها، وسال بطيئاً، قاهراً، وعنيداً كالقدر..! جُنّ قلبي، فرفعتُ عينيّ إلى السماء، وجأرت:

ـ وعدتُك يا إيل أن أصلي لك، أصلي كثيراً.. ليس من أجلي الآن، بل من أجلها..

انتفضتْ على ذراعي، كأنها تُسلم الروح..

ـ يا إيل.. يا إيل القدير على كلّ شيء.. أيها الكلّيّ بلا حدود.. الواحد بلا نظير..

يا واهب الحياة، ومُقدّر الموت.. يا مُعطي بلا منّةٍ، يا رحيم فوق كل رحمة.. أرجوك لا تأخذ هذه منّي أيضاً..

هززتها في حضني، وناديتها:

ـ عين الطيب.. كريستين حبيبتي أفيقي، انهضي.. ألم تأتِ لنذهب معاً إلى المخيم..؟

قالت من بين أسنانها، وشفاهها المُرتعدة الزرقاء:

ـ أشعر أن قلبي يدور على فراغ، وأوردتي قد نضب منها الدم.. اتركني هنا، واذهب إلى المخيم، هيا اذهب، ولا تتأخر.. فأنا لم أعد أستطيع الـ.. لكن خذ..

ومدّت يدها بوهنٍ إلى عنقها، لتنزع منه فولارها الأخضر:

ـ خذ هذا إلى أختي في المخيم، فقد تصنع منه مقلاعاً..! وربما تريد أن تكون خضراء مثل أختها..!

وانتفض جسدها بشهقةٍ قوية، و.. و..

ـ لا.. لا.. لا يا إيل..

رفعتها نحوه، وقد أصبحت خفيفة كالقصبة الفارغة، وغمغمتُ:

ـ أنت لا تشبع من أرواحنا يا إيل..؟!

وجثوت، وضعتها أمامي، أغلقت جفنيها، ولم أكن أدري إن كنت أهذي، وأنا أعدها بأن أعود إليها.. واتّجهتُ شرقاً.. هذه الجهة أعرفها بأضلاعي.. ركضتُ دون أن أنظر نحو إيل، وكأني لم أعد أؤمن بجدوى الصلاة له.. رغم أنّ صوته ما يزال يدوي في أذنيّ:

ـ (لا تقتل)..

ـ غيري يقتلني يارب..

حاولت أن أمسح صوته، وأنا أركض، وأصرخ من كلّ عرقٍ فيّ:

ـ لديّ أمانات، وعليّ إيصالها..!

(كيسٌ من دم شفق، وخصوبتها في رحم الكاميرا.. عليّ الوصول به إلى المخيّم، كي لا يتوقف نسل العودة عن التناسل.. رسالة أطفال الدنيا، تبنّاها رجلٌ أمريكي، اكتشف إنسانيته بعد أن تقاعد، وقبل أن يستشهد، وعليها تواقيع الجميع.. الجميع من أول الدنيا إلى آخرها.. و(فولار) كريستين الأخضر، وعليه بعضٌ من رذاذ دمائها). الشمس تأكل رأسي، وبوصلة القلب تتجه شرقاً..

ـ شرقاً أكثر يا فينيقيل..

ـ نعم.. حبيبتي..

وتابعت ركضي..

ـ حقل دماءٍ محروقة على يمينك..

ـ رأيته، وعبرته الآن..

ـ اركض أكثر يا حبيبي..

عبرتُ بستان أفراحٍ حرثته الطائرات باليورانيوم..

ـ على يسارك أشلاء بيوتٍ، ورماد أعراسٍ مغدورة..!

ـ رأيتُها..

ـ اركضْ، فلم يبقَ إلا..

وجاءت الطائرات تعصف رصاصاً..

ـ سيصطادونك، فحاول أن تسرع أكثر، لتُوصل الأمانة..

ـ الأمانة ثقيلة..

ـ لذلك اختارك الله لحملها..

ـ في الأمانة أرواح تنبض..

ـ انتبه حبيبي.. على شمالك جذورُ مخيم يحاول التبرعم، وفوقه مقبرة شهداء..

ـ وأيّ مكانٍ في غزة، بل في بلادنا كلّها ليس مقبرةً للشهداء..؟!

ـ انتبه، أصلحْ اتجاهك نحو الشرق.. أتدري يا فينيقيل..؟ أنا حزينةٌ من أجل صديقنا الأمريكي الذي اكتشف بعد فوات أوانه، أنه كان يُصوّت، ويدفع الأموال لإسرائيل ضد لحم الأطفال..!

ـ اصمتي يا شفق، لا أريد أن.. فأنا أعرف..

ـ مازلت تحتفظ في دماغك بكبرياء ذكورتك الفارغة.. وتعتقد أنك تعرف كل شيء..

ـ هل هذا وقت العتاب يا شفق..؟ أرشديني إلى الطريق، لأصل إلى ابنتنا..

ـ تتهرّب كعادتك.. ولكن ليس وقتها كما تقول.. تابع سيرك شرقاً.. سترى أمامك بستان زيتون اقتلعته الجرّافات، اعبره، فوراءه يقع المخيم..

ودخلتُ فضاء الزيتون الميت.. المخيم أمامي، والمجزرة على سفن الحرية ورائي.. والكاميرا العجوز الثرثارة مازالت في عنقي تدور..

ـ أسمعتَ ما يقولون..؟

ـ أنا أسمع الكاميرا الآن.. صوتكِ وبعض الذكريات.. بيتنا في دمشق.. ملفاتنا الغرامية، وأفراحنا الصغيرة..

ـ اركض بسرعة، قبل أن تقتلعك الطائرات كالزيتون..

ـ أتخافين عليّ..؟

ـ احذر، احذر أن تدوس بركة الدماء أمامك.. انحرف قليلاً، وتابع السّير..

ـ نعم حبيبتي.. هاقد انكشف المخيم أمامي.. فعلى الزوايا تدلّت بقايا أرواحٍ، لم تُكمل الاحتراق..! أراها تُلوّح لي، فأتبع وجهة أصابعها..

....

ـ خذي يا بنتي هذه اللعبة صنعتها لك أمّك، لكن الرّصاص ثقبها بالنور والدم.. وهذه (الكاميرا) فيها كل التاريخ.. خذيها أيضاً.. أمك تسلّم عليك، وتقول لك:

ـ لا تنسي..

قاطعتني الصغيرة:

ـ مازالت الطائرات تطاردك يا أبي..

ولمست كتفي الجريح:

ـ أنت حارٌ، ولزجٌ كالحصار.. إنهم لا يسمحون للنّسمة بالمرور، فكيف أتيتَ أخيراً..؟!!

ـ هكذا أوصتني أمك يا صغيرتي.. فمن يستطيع مخالفة وصايا الأمهات..؟!

اندفعتْ إلى صدري بتوق اليتيم المشتاق، فبكى جرحي على عنقها دفئاً عتيقاً..

وفجأةً ارتعد الفضاء حولنا، فهمستْ مُحذّرةً:

ـ عادت الطائرات تطاردك يا أبي..

غامت عيناي بالدم، والحنين، وأنا أنظر عبر أشلاء المخيم.. خُيّل إليّ أني أرى (محمد الدرة) يتوارى في حضن أبيه، ومازال ذاك المُصوّر يلتقط الصورة تلو الأخرى لاستشهاده العذب المرير..! تتناسل الصور أمام عيني آلافاً..! وأرى (إيل) يلثم الأشلاء قبل أن يدفنها في سفح أقداره الترابيّ المُشعّ.. ناديته:

ـ اهرب.. لقد عادت الطائرات، وسوف يقصفونك..! فأنت مُتهمٌ مثلي يا ربّ..! فلماذا غامرت، وأتيت..؟! اهرب الآن.. اهرب قبل أن يقتلوك..!

ـ لا عليكما..!

قالت الطفلة بكلّ رزانة التّصميم، وهي تتناول حجراً من يد الربّ، وتُودعه فولار أختها كريستين، الذي حوّلته مقلاعاً بخبرتها الميدانيّة البريئة، نظرتْ نحو السماء المُغطاة بعواءٍ من حديدٍ ورصاص.. ورمت في وجهها حجرها الصغير..!

....

ورأيت الربّ جريحاً في غزة..!

ـ أنا لم أقل لأحدٍ أن يقتل أخاه..

قال، قبل أن يصعد ممسكاً جرحه المضيء.. وغامت عيناي، وأنا أرى السماء نظيفةً فوق غزة ـ على غير عادتها ـ

ـ لقد هربوا كعادتهم يا أبي..!

قالت الصغيرة، وهي تُعيد ترتيب سريرها، واضعةً الفولار الأخضر، واللعبة القماشية المثقوبة بالضوء والرصاص، وحجارة الربّ تحت وسادتها، ثم نظرت نحوي، وسألتني:

ـ هل أنت جائع يا أبي..؟

ـ لا يا حبيبتي.. أنا عطشان لك فقط، فتعالي إلى صدري..

وضممتُها بكلّ شراسة الحنان، فثمل إهابها الغضّ من خمرة جراحي المُعتقة في دنّ المتوسط، تركتني، وعادت إلى وسادتها، رفعتها، تناولت مقلاعها الأخضر، وضمّدت به جرحي النازف، وهي تثغو بدهشة:

ـ دمك أخضر يا أبي..!